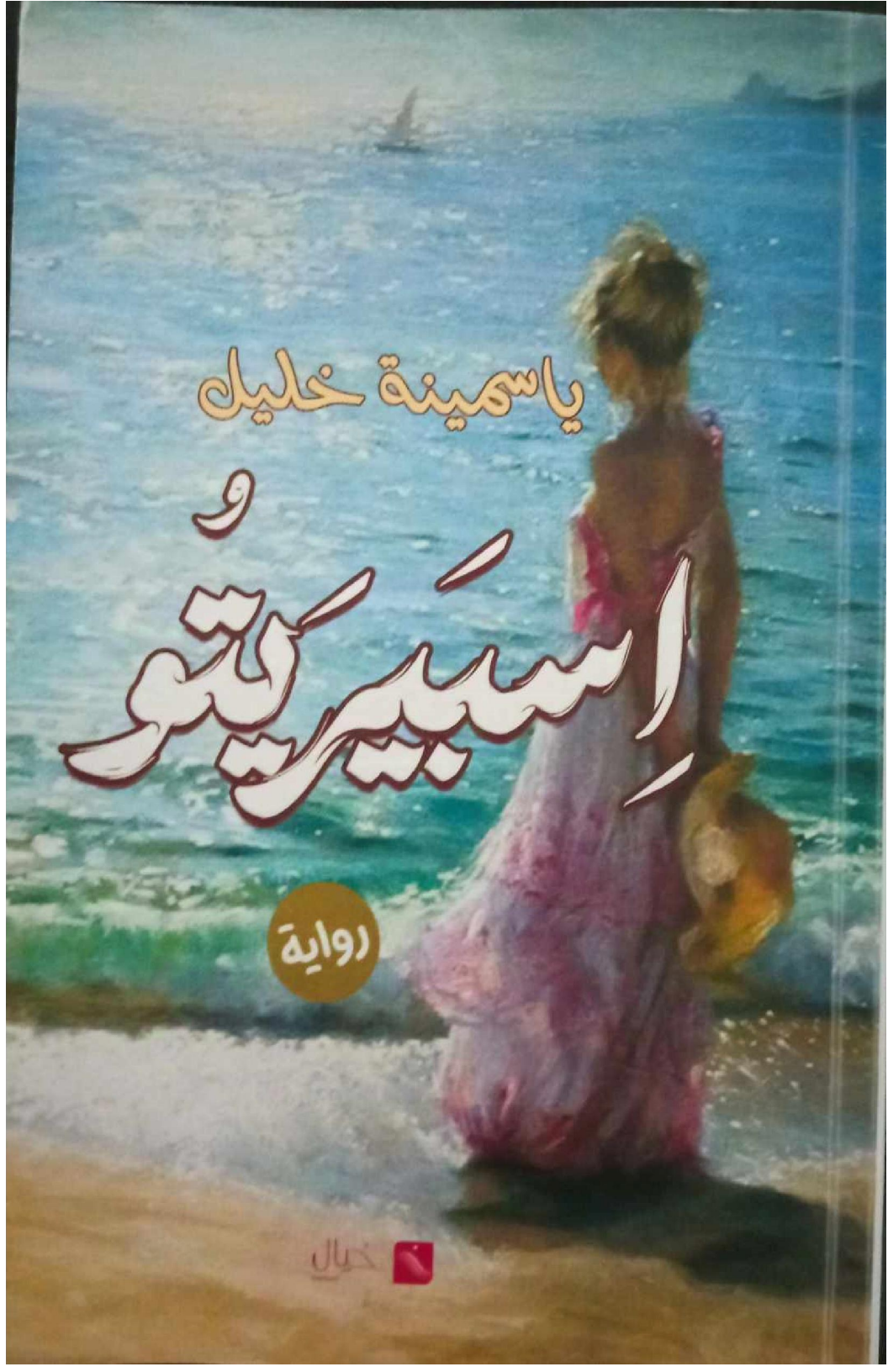
ياسمينة خليل
و
إسبيريتو
رواية
خيال

اِسْبِيرِيتُو

espiritu

للكاتبة: خليل ياسمينة

الإهداء

إلى عائلتي الصغيرة...

إلى زوجي، لا أعلم صدقا كيف تشكل لديك ذلك الإيمان القوي بما أكتب ولكن أعلم جيدا أنه يدفعني دائما للمضي قدما.

أهديك حبي قبل كلمات هذا الكتاب.

إلى ابني...

ربما كنت سببا في تأخير صدور هذه الرواية، لكنها لك، يوم أغيب عن عينيك يوما واشتقت إلي، ستجدني بين طياتها.

كلما كان الإنسان ضعيفا جسميا أو نفسيا كانت هذه "الكائنات"

أو الظواهر أكثر التصاقا به

فإذا حاول أن يقاومها بنفسه أو بغيره فإنها عادة تختفي.

هذا هو المعنى... وأرجوا الاحتفاظ به لأنه هو المقصود

من وراء مثل هذه الحوادث الغريبة التي تقع ووقعت

في أماكن مختلفة من العالم ومن عصور متعددة....

-أنيس منصور-

أرواح وأشباح.

-1-

-لن أفعل ما تريده مني دائما، هذه حياتي.

-بل ستفعلين، أنا والدك وأنا من يقرر.

انسحبت عليا من الحوار ومن البيت كله، حتى أنها لم تهتم أن الوقت قد تأخر لخروج فتاة والتجول في الشوارع، كانت تشعر بغضب شديد جعلها تمشي دون أن تدرك إلى أين تقصد، تركت لقدميها حرية الاختيار، ساهمة بعقلها في التفكير، هل عليها فعلا أن ترضخ لرغبة والدها فقط لأنه والدها، أم عليها أن تحارب لأجل أحلامها لأنها أحلامها؟

كانت وجهتها لشاطئ كريشتل القريب من بيتها، كما هي عادتها إذا ما ضاق الكون بها، فمن غير البحر يستطيع امتصاص الضغوطات والهموم، وحده يمنح الانسان تلك الطاقة الايجابية والصفاء حتى يستطيع التفكير بهدوء دون مؤثرات خارجية، خاصة إن كان يخلو من البشر...

جلست على الرمال وهي تحاور البحر وأمواجه تحاول أن تجد داخله صديقا.

-عندما كنت صغيرة، رسمت لوحة مملة، يرسمها جميع أطفال العالم تقريبا، بيتا يشبه الكوخ أمامه شجرة تفاح أحمر وزهرة كبيرة، حتى أنها كانت أكبر من البيت نفسه، وهناك على طرف الورقة رسمت شمسا صفراء بأشعة ساطعة، وطيورا وغيمة لأجل الظل، فرحت أمي كثيرا وعلقتها على جدار غرفتي وقالت إنني إن واصلت مداعبة أقلامي

سأكون رسامة مشهورة، صدّقت أمي وقتها... صدقتها بكل قلبي لأنني أحببت ذلك، رسمت ورسمت حتى أصبح الرسم هو حياتي وأصبحت أملك لوحات عديدة تقول ما بداخلي وترويني بألوانها، ثم...

توقفت عن الكلام بشيء من الفزع، فأحدهم كان قد شاركها خلوتها ببحرها دون أن تشعر، ربما اندمجت بقصتها مع البحر لدرجة أنها لم تسمع خطواته وهمساته رغم ذلك السكون المطبق، ظلت تحدق به وبعيونها الكثير من الأسئلة، من سمح له بالجلوس بقربها وسماع قصتها؟ ليست قصة الملكة ديانا وأسرارها لكنها خصوصيتها وحدها، شاب طويل مفتول الجسم وكأنه رياضي محترف في كمال الأجسام، يضع نظارة تخفي عينيه، ولأن الظلام كان قد بدأ يرخي ملاءته لم تستطع تمييز الكثير من ملامحه، قامت مبتعدة عنه ولم تنطق ببنت شفة، الغريب أن الشاب قام هو الآخر وجلس مجددا بقربها.

-ماذا تريد؟

-أن أستمع لنهاية قصتك.

-عفوا عفوا ومن أخبرك أني أريد أن يسمعني أحد، أرجوك غادر المكان، أو سأغادر أنا ولا تلحق بي.

-أنت تحتاجين لمن يسمع، وأنا أحتاج لأحد يكلمني، منذ زمن بعيد لم أشارك بشريا في حوار، اشتقت إلى الكلام، هلا سمحتي لي بكرمك أن اسمع.

انتابها شعور أنه مجنون، كيف لم يكلم البشر منذ زمن، أ هو وحيد إلى هذه الدرجة؟، لكنه هادئ جدا لم يطلب سوى أن يستمع إلى قصتها، فكرت قليلا في كلامه، وجدت فيه شيئا من الصواب، هي فعلا تحتاج لمن يسمعها وسط هذا الضياع الذي تعيشه.

-حسنا سأكمل كلامي كأنك غير موجود، وستتصرف أنت كذلك كأنك غير موجود، اتفقنا؟

أومأ الفتى برأسه علامة للإيجاب، وابتسم ثم وجّه أنظاره ناحية البحر، بدأ فعلا في تنفيذ ما طلبته، أصبح جامدا لا يتحرك إلا إذا عدَل نظارته من طرفها الأيسر بيديه، أما هي عادت لوضعية جلوسها الأولى، وراحت تكمل قصتها بين فرح كبير تحمله إحدى الجمل، وحزن وتذمر تحمله أخرى، ذاكرة تفاصيل عدة ربما لأن شخصا آخر كان يسمعها انسجمت مع روح الفن داخلها وتقمصت دور ممثلة بمسرحية.

-نعم يا بحري العظيم، رسمت لوحات عديدة، أعدت نسخ أخرى عن رسامين عالميين، حتى أنني أعدت رسم الموناليزا مرة لكنها كانت أكثر ابتساما، أضفت عليها الكثير من البهرجة اللونية، كانت تشبه روحي، سميتها وقتها مونا عليا، ضحك الجميع مني لكنني كنت سعيدة جدا، كنت دائما أستعمل أقمشة ثيابي القديمة لتفصيل شيء جديد، أقصَر سراويل الجينز، أقطع كما لقميص وأعوضه بالدونتال وأترك له الآخر كما هو، أعيد صباغة تنورة ما بألوان مختلفة، القطع السادة، أزينها بأشكال جديدة، كانت هذه متعتي وشغفي في الحياة منذ أول دمية خطت

لها فستانا بنفسي دون مساعدة أحد، رغم أن الإبرة قد شكت كل أصابعي لكن فرحتي بالنتيجة النهائية جعلتني لا أحس بشيء من ذلك، ثم كبرت وانشغلت بالدراسة خصوصا آخر سنة في الثانوية، وأخيرا نجحت في الامتحان، لا أدري إن كان لحسن حظي أم لسوئه، بعد صدور قائمة الاختيارات طلبني والدي لمناقشتها، بحكم أنني صغيرة ولن أستطيع اتخاذ قرار مصيري كهذا، أذكر أن أول ما قلته أني أود دخول كلية الفنون الجميلة، لأطور من موهبتي وتصبح شيئا مدروسا متناسقا، لكن أتعلم ما الذي فعله أبي؟.

التفتت إلى الشاب أمامها فهي لم تستطع أن تتجاهله فعلا، كانت تحاوره هو لا البحر، لكنها تفاجأت أنه لم يكن هناك أحد، بحثت بأعينها في كل ناحية من الشاطئ لكنه كان يبدو مهجورا لا أحد فيه، انتبهت حينها أن الوقت قد تأخر وعليها العودة إلى البيت لابد أن أهلها قلقون بشأنها فهي حتى لم تحضر هاتفها معها، حملت معطفها الذي تجلس عليه وعادت أدراجها، فهي لحسن الحظ على بعد بضع أمتار من بيتها.

بمجرد أن وطئت قدماها البيت، انهال عليها كمال بالصراخ الذي كان يغلف الكثير من الخوف الذي سكن روحه وقتها، خاف ألا تعود طفلته إليه، طفلته المدللة المجنونة، أما والدتها نجوى كانت جالسة تكفكف دمعها لا طاقة لها للقيام والنقاش والصراخ.

-أين كنت حتى الآن؟، لما تركت هاتفك في البيت؟ مكانه في جيبك هذا هاتف نقال يا طائشة، ثم ماذا سيقول الناس عنك حين يرونك تدخلين

إلى البيت بعد منتصف الليل؟، يبدو أن الحرية التي تركتها لك لم تكن في محلها.

-حرية؟ عن أية حرية تتكلم؟ الحرية هي حرية روحي وأفكاري، لا حرية دخول وخروج، آسفة أبي أنا متعبة ولا يمكنني النقاش في ذات الموضوع مجددا، اعتذر أنني ربما جعلتك تسهر لتنتظرني.

ثم اتجهت إلى حيث تجلس والدتها، قبلت رأسها واعتذرت منها أيضا، دخلت غرفتها ونامت فورا، فقد عرف التعب طريقه إليها بعد المشي الطويل إلى الشاطئ...

في مدينة وهران، في بلقايد تحديدا تعيش عليا حمُّود، الفتاة العشرينية المفعمة بالحياة والحيوية، تحب الرسم وتعشق التصميم وكل ما له علاقة بالإبداع، لها عيون لوزية الشكل سوداء اللون، ذات بشرة سمراء فاتحة، وشعر مموج تتركه للهواء يلاعب خصلاته، ذو لون كستنائي داكن، نحيفة بعض الشيء، لم تكن من المحبين للطعام والوجبات المنتظمة، تقضم من هنا خبزا ومن هناك لقمة بيتزا وتستمر الحياة بالنسبة لها، كما أنها ذات طول جميل ما يجعلها تنافس عارضات الأزياء بقدها وجمالها البسيط، حتى أن الناظر إليها في الشارع سيظن أنها في عرض لحفلة تنكرية من غرابة ثيابها التي تشرف بنفسها على تفصيلها وتنفيذ التصميم كما هو مرسوم في مخيلتها، كما أنها تحب ارتداء الكثير

من الإكسسوارات، تعيش وسط عائلتها الصغيرة، كمال والدها الذي لطالما احترم هذه الغرابة في طريقة عيش ابنته ولم يفرض عليها الحجاب أو الالتزام بشيء رغم أنه نشأ وتشرب مبادئه من عائلة محافظة، محاسب بأحد الشركات حتى وهو يكره كل شيء له علاقة بالأرقام والحسابات لكن هذا ما قُدِر له، رجل في الخمسينات من العمر قد بدأ الشيب يحط رحاله على رأسه، يتشارك مع عليا في عيونه السوداء اللوزية، وبشرته السمراء، بيد أنه أقصر بقليل وممتلئ الجسم أكثر، تزوج من نجوى منذ ست وعشرين سنة، بعد أن سلبت لبه بالحياة التي كانت تسكنها، أيام كانت تعمل بمحل والدها لبيع الورود بسوق ميشلي مكان تواجد باعة الورد قديما في وهران، كانت صورة قديمة لعليا ، أما الآن فهي سيدة هادئة لا يكاد يسمع لها صوت بالبيت إلا من الضروري من الكلام، لا تراها إلا وهي إما تعتني بزهورها على الشرفة أو تطالع رواية هناك في زاوية البيت، وذلك بعد أن تطمئن أنها قد قامت بكل واجباتها تجاه بيتها وعائلتها وكأن مسؤوليات الحياة قد هدأت من ذلك الحماس، أنجبا بعد سنة من زواجهما عليا، ثم عبد العلّي هو العقل المدبر لكل إخوته، و بعدهما آخر العنقود علاء، جمع بين رزانة والده وحلاوة روح والدته، كان ضحكة البيت التي لا تغيب ، وبما أن عليا هي الفتاة الوحيدة فقد كان لها نصيب وافر من الدلال، رمز الأنوثة الوحيد بعد أمها في البيت.

حل الصبح بخيوط الشمس التي يرسلها على عجلة منه في ثمان دقائق إلينا، ناشرا نورها على كل الشبابيك معلنة بداية جديدة، لكن البعض لن يبدأ قبل أن يختم ما علق به من الليلة السابقة، أفاقت عليا على صوت قرع الباب.

-أفيقي يا ابنتي ستفوتين دوامك

-لن أذهب يا أمي، أرجو ألا نعيد حوار الأمس.

التفتت نجوى لتجد كمال بقربها، مستاء مما سمعه من طفلته المدللة، لكنه متمسك ببعض الأمل.

-اتركيها، فترة غضب وستعود بعدها أحسن، هيا الآن ألن تشربي القهوة برفقتي؟

هزت رأسها موافقة غير مقتنعة تماما بما قاله، هي تدرك مدى عناد عليا، فقبل سنوات كانت مثلها، تفهم جيدا ثورة الشباب وجنون ابنتها خاصة، وفوق ذلك هي أم.

بقيت عليا بغرفتها تفكر بما عليها فعله مستقبلا، هل فعلا قرارها صائب؟ شعرت أن جدران غرفتها تطبق الخناق عليها، قامت وغيرت ثيابها وخرجت دون أن تقول شيئا، فهي نفسها لا تدرك إلى أين ستذهب وما ستفعله ومتى تعود، وبعد خطوات قليلة أخذت قرارها بالعودة إلى الشاطئ مرة أخرى لتحظى بالهدوء.

جلست على صخرتها التي تعودت عليها، وألقت بنظراتها على مدى الأفق، لا تقول شيئا ولا تقوم بأي حركة سوى أن تغرق في أفكارها التي كانت تشبه تلك الأمواج التي تتلاطم مرة جنوبا وأخرى شمالا، غير آبهة بأي شيء آخر غيرها.

-أ لن تحكي شيئا اليوم؟

كادت الدماء تجف في عروقها من الفزع، التفتت بسرعة لتعرف من اخترق خلوتها هذه المرة أيضا، لتجد شابا بدا وكأنه نفسه الذي شاركها ليلتها الماضية، لم يكن واضحا جدا بسبب الظلام، لكن بعضا من هدوء نبرته، نظراته، جلسته وهو يقابل البحر يتابعه لم يتغير.

-أنت مجددا؟ ماذا تريد مني؟

-لا شيء محدد، أردت فقط أن أعرف ما الذي فعله القدر بتلك الفتاة الحالمة.

-لا أريد أن أحكي اليوم، لا مزاج لي للكلام.

-عيناك تقولان العكس.

-عيناي؟ أنت حتى لم تنظر إلي.

-نظرت بقلبي، دعك من ذلك وأكملي قصتك، علّنا نجد حلا سويا.

-ولما قد أشارك غريبا قراراتي؟ من أخبرك أصلا أني أحتاج حلا لأمر ما؟

- الموضوع لا يحتاج ذكاء، جلوسك هنا وضياعك بين قطرات هذا العملاق خير دليل، اعتبريني لا شيء، غير موجود، تماما مثلما فعلت المرة الفائتة وأكملي، أريدك أن ترتاحي لا أكثر، الحديث لغريب لا يعرفنا، لن يحكم علينا، ولن ينقل كلامنا لغيرنا مريح، أدعوك أن تجربي.

سكتت وكأنها تفكر في كلامه أو كأنه أقنعها بوجهة نظره، فهو محق على الأغلب كانت تحتاج للتحدث مع أحد مهما كانت صفته، ورغم ذلك بقيت ساهمة لم تقل شيئا، لعلها خافت أن يكون رأيه لا يناسبها ويقنعها كما فعل قبل قليل.

-هاه هل تذكرين أين توقفت أم أذكرك، ماذا فعل والدك؟

-والدي كان مولعا منذ صغره بالقضاء والمحاماة وأجواء المحاكم، وبحكم أنني أول من ستدخل الجامعة من أولاده، فقد أجبرني على دخول كلية الحقوق، حاولت كثيرا إقناعه أنها لا تناسبني، لن أنجح أبدا في شيء لا أحبه، لكن عبثا قلت، عبثا شرحت، ورضخت لما أراده ودخلت كلية الحقوق، مرت أول سنة مقيتة مميتة، لا شيء يحفز على حبها والتقدم فيها، مواد جافة لا روح لها...

-سأقاطعك ممكن؟

أومأت برأسها علامة الإيجاب، وأكمل هو كلامه دون أن ينتظر الموافقة لكنه هذه المرة كان قد عدَل جلسته وقد ركز نظراته عليها لا يكاد يرمش.

-لكنها طريقة رائعة معبدة لمساعدة الناس، واضح جدا أنك تحبين ذلك، يقال يا...ما اسمك؟

-عليا

-يقال يا عليا أن من أسْعَدَ الناس هو أسعدُ الناس، أن تمسحي دمعة مظلوم، أن تعيدي حقا لصاحبه، أن يشم بريء ريح الحرية بفضلك، أن يرتاح ميت في قبره لأنك نصرته، أ لم تفكري في ذلك؟

-أولا هلا عدلت جلستك قليلا، الناس ترمقني باستغراب، ثم إن ما تقوله جميل فعلا لكن لو استطعت أن أكون محامية ناجحة تربح قضاياها وهذا لن يحدث وأنا لا أطيق ما أنا فيه.

-في أي سنة أنت؟

-تخرجت منذ سنة وأعمل حاليا في مكتب لمحام كبير، صديق لوالدي.

-الآن فقط تذكرتي أن تتوقفي عن كل هذا؟ بعد أن بدأت العمل؟ أين كانت إرادتك وكلامك هذا في السنوات الماضية؟

-كنت أخاف من أبي وردة فعله.

-مجنونة أنت أم ماذا، لم تخافي أن تضيع هذه السنوات؟

سكت قليلا وكأنه يفكر ثم أضاف

-إن كنت أستطيع أن أقول رأيا ويجد لديك أذنا مصغية، سأقوله.

-تفضل، كان ذلك هو الغرض من كل كلامنا هذا.

-بما أنك أخذت شهادتك، اعملي في هذا المجال فإنه جيد، في الوقت نفسه لا تهملي تلك الطفلة المجنونة داخلك، ارسمي وصممي كما تشائين، بعض التنظيم وسيكون كل شيء بخير.

-كلامك به وجهة نظر، لكن سأتدبره لاحقا، فأنا لا أفكر في ممارسة الرسم كهواية ولكن كعمل، وإن كنت تتحدث عن إسعاد الناس بالمحاماة فبالفن أيضا يمكننا أن نسعدهم.

سكتت قليلا ثم أضافت

-صراحة تعبت من التفكير والآن وهروبا من موضوعي أ لن أعرف عنك شيئا؟

-علي الذهاب، نلتقي مرة أخرى في نفس هذا المكان وسأحكي لك ما تشائين.

انسحب من الجلسة دون أن ينتظر ردها عليه، ظلت تنظر إليه بغرابة وهو يختفي بين الناس بخطى سريعة حتى لم يعد مرئيا، ثم عادت

تتأمل البحر وهي تفكر فيما قاله، كان به شيء من الصحة والجانب المشرق رغم أنها لم توافقه على كل شيء من أعماقها، ظلت كذلك حتى اقترب عناق الشمس وكبد السماء، حملت أغراضها وعادت إلى البيت وقد حسمت أمرها في هذا الموضوع.

-مرحبا أمي.

-أهلا أين كنت حتى هذا الوقت؟ ماذا أكلت على الغذاء؟ أم أنك لم تأكلي؟ اتصلي بصديقاتك فقد اتصلنا بي كثيرا بحجة هاتفك المغلق.

-رويدك، لا تقلقي أنا على ما يرام، قضيت اليوم على الشاطئ ليس إلا، أما بخصوص الغذاء والأكل فقد نسيت كليا أن أمره، وصديقاتي سألتقي بهن غدا في العمل، لا أظن أن أمر مهم.

-زيارة تفقد يعني أم وداع؟

-سأنهي هذا الشهر الذي بدأته وبعدها سأنفصل عن العمل، هكذا حسمت أمري بعد تفكير طويل يا ماما.

امتعضت نجوى فهي تعلم أن هذا الإصرار لن يرضِ كمال، بل سيأجج النقاشات والمشادّات الكلامية بينهما فيما بعد، وكأنها تنبأت بحرب توشك أن تدق طبولها على الأبواب، لاحظت عليا تلك النظرة الحزينة في عيني والدتها فأكملت حديثها

-جعلتكم تعيشون فرحة التخرج، يفتخر أبي بين الجيران أنه أنجب محامية، تذكرين خالاتي وعماتي في جلساتكم بذلك دائما، علقتم الشهادة في صدر الصالون، أظنه يكفي إلى هذا الحد، أمر مزاولة العمل أمر يخصني وحدي، هل كنت لتتخلي عن الورد لو أن متجر جدي لم يغلق بسبب الديون؟ مع أنك من المفروض ممرضة، لا تحاولي يا أمي فأنا نسخة منك أصبح واجبا عليك أن تدعميها.

تاهت نجوى في شوارع الذاكرة، استحضرت نقاشاتها مع والدها وكيف كان يقنعها أن العمل في كشك الورد لا يناسبها وأن التمريض هو فقط ما يليق بابنته العاقل، من قال إن التاريخ يعيد نفسه لم يقلها من فراغ أبدا، لذلك لابد أن على الانسان أن يدرسه جيدا عله يتوقع القادم من أيامه، لربما جنب نفسه الكثير من المتاعب، أو اتخذ الأنسب من القرارات.

اقتربت الساعة من الواحدة زوالا، فرت عليا كعادتها قبل أن يعود والدها وتدخل في نقاش آخر، قصدت آية صديقتها التي تدرس بمدرسة الفنون الجميلة، فقد كانت تتنفس بغرفتها، تشعر بالحياة بين ألوانها، ترسم فيعود الصفاء إلى ذهنها، كلنا لنا هذا المخبأ الذي نكون نحن كما نحن بدون أقنعة، بدون مجاملات، بدون تكلف كأننا شفافون.

دخلت إلى غرفتها ودون أن تشرح لها شيئا طلبت منها أدوات الرسم الخاصة بها التي كانت قد تركتها لديها خفية عن كمال الذي كان يسمعها كلاما سخيفا كلما رآها، سواء بقوله أنها مضيعة للوقت أو أنها سبب إفلاسها وشبيهه من الكلام الذي يتعب الروح ليس إلا، خصوصا من يعيده لك كل مرة كأنه أسطوانة تالفة تعيد نفس الجملة منذ سنوات، فهمت آية أن الوضع لا يحتمل الكلام ولا الشرح حتى، تعرف أنها بعد انتهاء عليا من الرسم ستفهم كل شيء، فهي عادتها، تمسك قلم الرصاص ثم وكأنها تخرج عن نطاق الواقع فيتجسد ما يجول بعقلها على الورقة، تنسخه حتى دون شعور منها.

ولتترك لها مجالا أكبر من الراحة، غادرت آية الغرفة لتحضر الشاي فالجلسة بعد الرسم ستحتاج لشيء يبلّ الريق، عادة ما يطول الشرح بعد هكذا حالات، بينما بدأت عليا تنفجر كالبركان، تسيل حممها على لوحتها كما تفعلن العجائز بسكب الرصاص...

-عمي كمال يضغط عليك مجددا، أ لم يتعب ويقتنع بعد؟

قالت آية ذلك بشيء من الإحباط والملل.

.-ولا أظنه سيفعل يوما

-مؤلم أن ترسميه هكذا يطبق كلتا يديه على جيدك، هو لا يخنقك هو يجرك ربما غصبا عنك لكن إلى مكان يرى فيه الأمان لك، حاولي أن تجدي حلا وسطا، أتفهم حبك للفن والرسم فأنا أتشارك معك الشغف نفسه لكن أتفهمه هو أيضا

-تتكلمين مثل فتى البحر.

نظرت آية إليها باستغراب، لم يسبق لها أن سمعت عن فتى البحر هذا رغم أنها تعلم أن الشاطئ هو الأقرب إلى عليا بعدها، وارتسم السؤال على محياها، من هو هذا الفتى؟

-إنه شاب لا أعرفه، تصادفنا مرتين على شاطئ البحر، لكن ظهوره وغيابه غريبان.

ثم أخذت تسرد لها كيف التقيا واقتحم خلوتها مرتين، الأمر الذي جعل آية تفترض أنه معجب بصديقتها، كأقصر طريقة لتفسير الموضوع، فهكذا هي طبيعة الفتيات يستطعن تفسير أي لفتة من شاب على أنها إعجاب، فهن يرين أنفسهن محط أنظار الجميع وهذا الجميع يحاول بكل الطرق التقرب منهن، حتى أن البعض منهن يبالغن ويعشن قصة حب داخل عقولهن،

ويشعرن بالغيرة والخيانة وحتى الألم، التفسير الوحيد لذلك هو أنهن يعشن نقصا في الحب والاحتواء بصفتهن فياضات بالمشاعر، فيعوضنه بأي بادرة اهتمام ولو وهمية.

-طيب كيف يبدو شكله؟ هل هو وسيم؟

-وما علاقة هذا بذاك الآن؟ المفروض أن نناقش وجهة نظره ونظر والدي وحياتي العالقة هناك، ما همني إن كانت عيناه بنيتان تستتران خلف نظارته الطبية، بأنف طويل قليلا لكن متناسب مع وجهه الرجولي التفاصيل، ما همني إن كان جسمه متناسقا كلاعب كرة السلة بطول ملاحظ وذراعين مفتولان.

-كل هذا وتقولين إنك لم تنتبهي له، ولم يهمك به إلا رأيه؟

وانفجرتا ضاحكتين كطفلتين، ثم عدلت جلستها بشيء من الجدية وأكملت كلامها

-اتخذت قراري، سأواصل العمل لهذا الشهر فقط، ثم سأبحث عن مكان أجعل زاوية منه مرسما والباقي مكانا لتصميم الأزياء.

-هل تملكين مالا لذلك؟، سواء كراء المكان، أو معدات العمل من أقمشة وآلات خياطة وربما احتجت لعاملة، هل فكرت في كل هذا؟ أم تتهورين كعادتك فقط؟

-لم أفكر بعد، ربما أستلف من أحدهم، أو آخذ قرضا.

-أو اعملي لشهرين أو ثلاثة إضافية، عليك دراسة المشروع جيدا حتى لا تزل قدمك إلى اللاشيء، وأنا معك في أي قرار تتخذينه. (وشدت على ذراعها في حركة تقول أنا سندك**).**

-لهذا أزورك دائما إذا ما حاصرتني أفكاري، تضيئين الممرات المظلمة وتفتحين المسدودة منها.

-ستدمع عيناي بعد قليل، متى ستلتقين فتى البحر لاعب كرة السلة؟ ما اسمه على فكرة؟

-لا يخبرني شيئا عنه، يسمعني فقط، ولا أعلم متى سنلتقي مرة أخرى، سأسأله عن نفسه في المرة القادمة انتابني الفضول بخصوصه.

أكملا دردشتهما وهما ترتشفان الشاي بين الحين والآخر رفقة الطورنو (حلوى شعبية)، ضاحكتان مرة، جديتان مرات أخرى، حتى قاطعهما هاتف عليا وهو يرن، كان المتصل هو كمال لكنها تجاهلته مأجلة النقاش إلى وقت آخر، وقررت أن تغادر غرفة آية إلى أين تجد وحدتها مجددا وتفكر أكثر، ابتسمت آية وهي تودعها

-أبلغي فتى البحر سلامي، لدي شعور أنك ذاهبة إلى الشاطئ.

-لم أكن أنوي على ذلك، لكنك نبهتني.

وكما توقعت آية، قصدت عليا الشاطئ وجلست في نفس المكان، بداخلها شيء ينتظر ذاك الشاب وشيء ينهرها عن ذلك، تريد أن تعرف عنه أشياء

كثيرة، تتلاعب بها فكرة هل فعلا هو معجب بها كما قالت صديقتها؟ منذ متى يراقبها إذا ليعجب بها؟ وسرحت بخيالها وسط أسئلة لا تجد لها إجابات.

-هل ما زلت لم تتخذي قرارا نهائيا؟

-أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من أين خرجت أنت مجددا؟

-تجيبين عن سؤالي بسؤال آخر، طيب أنا هنا منذ بضع دقائق فقط، ولأنك غارقة في التفكير لم تنتبهي لي، والآن وقتك للإجابة، هل حسمت قرارك؟

-ربما نعم، ولكن ما همك بقراري؟

-أ لم نصبح أصدقاء بعد؟

-أصدقاء؟ وأنا لا أعرف عنك حتى اسمك؟ كيف تكون الصداقة هكذا؟

-أردت فقط أن أعرف إن كان لك قبول بخصوص صداقتي، (ابتسم بشيء من الخبث**) طيب أنا محمد بلعربي من معسكر، طالب بكلية الاقتصاد هنا ببلقايد، مقيم بالإقامة الجامعية، عمري22 سنة، هل يكفي هذا لنصبح أصدقاء؟**

-لا أدري.

وأشاحت بوجهها عنه كأنها انتظرت أن تعرف شيئا آخر عنه غير هذه المعلومات العابرة، أو ربما لأنه يصغرها سنا، ظهرت عليها علامات العبوس، ولم تضف كلمة أخرى رغم أنه كان واضحا أن الكلمات تتسرب من عينيها وصمتها.

-كان يمكن أن أصبح صديقك دون أن تعرفي عني شيئا، الصداقة ليست قائمة ما أعرفه عنك، فعدوك هو أكثر من يعرفك، الصداقة أن أحمل عنك غبنك، أن أستمع لصمتك، أن أكون الناصح وقت تيهك، الجدار الذي تضربينه لتفريغ غضبك، اللوحة التي تخربشينها بألوانك ليهدأ خاطرك، الصديق أبعد ما يكون عن جمع معلومات عابرة، أم أنها المحاماة لعبت بعقلك؟

كانت تستمع إليه مفكرة بكلامه، هل فعلا كان ممكنا أن يصبح هذا الغريب صديقا لها دون أن تعرف عنه شيئا؟ كيف يمكن أن تثق بعابر بحياتها ومن كان أقرب إلى قلوبها قد يكون طاعنا لظهرها؟ ثم انتبهت إلى جملته الأخيرة

-أنا لم أنتسب إلى المحاماة يوما، ولا أظنني سأنتسب، وبما أن موضوع المحاماة قد فتح مجددا، وقد كنت سألتني عن قراري فها أنا أخبرك أنني سأستمر في عملي للفترة التي أجهز فيها نفسي لفتح ورشة تصميم أزياء ورسم كما كان حلمي دوما.

-كم شهرا؟

-لا أعلم ربما واحدا أو عشرا، لما تسأل؟

-سؤال عابر فقط، كنت سأخبرك أمرا لكنه يخص عليا المحامية ولا علاقة له بعليا المصممة الرسامة، أستأذنك بالذهاب، تشرفت بالتعرف عليك عليا الصديقة.

-انتظر، ماذا كنت تود إخباري؟ انتظر...محمد...محمد

لكنه لم يلتفت إليها وأكمل طريقه وكأن لا شيء يعكر صفو سماءه، بينما أخذ الفضول يتلاعب بأفكارها، ماذا كان ينوي إخبارها يا ترى؟

-3-

عندما نحدد هدفنا في الحياة يصبح المضي نحوه سهلا مهما تعقدت السبل وتكالبت العراقيل، سيبقى شغفنا يدفعنا بكل طاقته، سنتخيل كل ليلة لحظة التتويج على قمة أحلامنا، وهذا ما كان يحدث مع عليا، دائما يزورها الحلم ذاته، ترى نفسها أمام أكبر عرض للأزياء في باريس أو نيويورك أو حتى روما مثلا، تتخيل أشهر الممثلين الهوليوديين يرتدون من تصاميمها، بهذا فقط كانت تتحمل أياما أخرى في مهنة جامدة لا تغذي حبها للحياة، تدفع الملفات القضائية وترسم تصميما جديدا، تنتظر عطلة الأسبوع لتجلس على قارعة البحر، ترتاح وتنتظر، أحيانا لم تكن تعلم ماذا تنتظر ولكن أحيانا كانت تنتظر فتاها الذي فتح باب الفضول واختفى.

عادت إلى البيت في يوم سبت ولمعة حزن تشرق من عينيها، دخلت غرفتها مباشرة، استلقت على سريرها وهي تحضن مخدتها، حتى هي نفسها لا تعلم ما الذي أحزنها لهذه الدرجة، هل مجرد ثلاثة لقاءات عابرة تجعلنا نتعلق هكذا؟ أم أن بهذا الفتى ما يميزه؟ كان هذان السؤالان يراودانها طول الوقت دون أن تصل بها الأجوبة إلى بر الراحة.

-ما الذي يقلق فراشة بيتنا؟

-محمد ومن غيره

قالت ذلك وكأنها لا تزال تتحدث مع نفسها ولم تنتبه أنها تكلم عبد العلَي، الذي أرسلته نجوى في مهمة سرية لسحب الكلام من أخته، علّها تعرف ما

الذي يحزنها، لم يكن يعرف أن المهمة سهلة لهذه الدرجة ولم يكن يعلم أن الموضوع له علاقة برجل، حتى في أسوأ السيناريوهات لم يتخيل أن تخبره عن شاب بهذه الطريقة البسيطة كأنها تخبره أنها جائعة أو عطشى، ظهرت علامات العصبية عليه اقترب منها متمالكا نفسه متذكرا أنها أخته الكبرى ولا يملك حق تعنيفها، لكنه كأي رجل شرقي ينتمي إلى الوطن العربي مهما ادعى التفتح لن يتقبل موضوعا كهذا.

-من محمد هذا يا عليا؟

وقتها فقط أحست أنها لا تجيب نفسها وأسئلتها الداخلية كالعادة.

-فتى البحر الذي ترك خلفه فضولا كبيرا واختفى.

وجلست تحكي له ما حدث من أول لقاء جمعهما إلى أن وصلت بسردها الجملة الأخيرة لمحمد التي أشعلت الفضول بنفسها.

-هل يا ترى يا عبدو هو يعاني مشكلة ما وأرادني أن أساعده كمحامية، أم المشكلة تخص شخصا عزيزا؟ هذا هو التفسير الوحيد الذي توصلت إليه. توقف عن النظر إلي بهذه الطريقة التي يملأها الريب، لا تدع مخيلتك تسرح بعيدا، إنه فقط الندم على أنني لم أفهم أنه يدفعني لإكمال عملي في المحاماة لأنه يحتاجني، ربما لا يملك مصاريف محام آخر وتأمل في الخير، أشعر بالحسرة يا أخي.

-أفهمك الآن، هل تملكين أي معلومة قد توصلنا إليه؟ سأبحث لك عنه، وستساعدينه إن كان يحتاج ذلك وتنتهي القصة لما كل هذا الغم؟ لا تضخمي الأمور وتعطيها أكبر من حجمها.

ابتسمت وعانقته علها ترتاح من عبئها بأنها خذلت شخصا انتظر مساعدتها، أو ربما لأنها اشتاقت لذلك الفتى الذي كان يستمع إليها كما لم يفعل شخص من قبل، طبيعتها الأنثوية تقدر أي اهتمام مقدم إليها وتضخمه كما تفعل مكبرات الصوت في الحفلات تجعل ملايين الجماهير تسمع وكأن الفنان يغني لأجل كل واحد منهم على حدا، كذلك هي تجعل خلايا جسمها كلها تعرف فضل ذاك المستمع.

سحبها من يدها وقاما إلى طاولة العشاء بعد اتفاقهما أن يبحثا في الموضوع أكثر فيما بعد، يجلسون وكأن لا هم يشغل سكان هذا البيت، طاولة العشاء هي المكان الوحيد الذي يجمع الأسرة كاملة كل يوم، لا يجوز التغيب عنها إلا لسبب طارئ، تنتظرها نجوى لتتأمل وجوههم، هل كمال يبدو مرتاحا أم أنه منزعج كعادته، سيكون أمرا مثيرا للاهتمام أن يجلس وهو يبتسم، حدث ذلك في اليوم الذي قُبِلت فيه عليا في كلية المحاماة، يحتاج الموضوع أن يكون حلما يتحقق حتى تراه يأكل مبتسما، تعود أن يكون جادا وهو يتعامل مع الطعام. تدرك أيضا من طريقة أكل عليا إن كان يومها جميلا، كما تراها تأكل الآن بطريقة مجنونة لقمة من هنا وأخرى من هناك كأنها تود التهام الطاولة كلها، مع أنها توقعت أنها ستحمل ملعقتها وتلعب بها قليلا دون أن تجعلها تلج فمها بعد أن رأت

حالتها عند دخولها المنزل، ابتسمت وأكملت جولتها الاستطلاعية، عبد العلّي أو عبدو كما تعودوا تسميته رزين يلوك اللقمة جيدا كما تقول قواعد الايتكات، لكنه لا يختلف عن أخته إذا لم يكن في مزاج جيد، لن ترتفع الملعقة إلى فمه وستبقى تسبح تائهة في صحنه، آخر العنقود لا يحتاج أن تلاحظه، فهو لا يتوقف عن الكلام إن كان يومه جيدا، ولا يتوقف عن الكلام أيضا إن كان سيئا، سيخبرها بكل شيء دون أن تتعب نفسها. قطع كمال الصمت المنتشر في المكان وقال:

-تقول أمك أنك ستواصلين العمل حتى آخر هذا الشهر فقط، هل هذا صحيح؟

-بل سأستمر لشهور أخرى، أظن أن الموضوع فعلا يحتاج إلى التفكير.

تدخل عبدو وكأنه ينهي هذا الحوار الذي ملّ أهل البيت من تكراره والجدال فيه.

-ربما ستحبينه مع الوقت

ثم غمزها كأنه يتركها بين حدين، أيقصد أنها ستحب العمل أم محمد؟ لم تجد بما تجيب، سحبت كرسيها إلى الخلف وعادت إلى غرفتها، أكمل عبد العلّي وقتها كلامه

-أشعر أن قضية ما ستطبق الخناق على عليا وتجعلها ربما تحب العمل.

-ماذا تقصد؟ قال كمال ذلك وقد قطب جبينه

-سأخبرك في الوقت المناسب، سأساعدها حتى تجد قضية عمرها ربما.

في غرفتها اتصلت عليا بآية لتخبرها أنها قررت أن تبحث عن محمد وأن عبدو سيساعدها، شيء من الفراغ داخلها جعلها تتعلق بأي قصة تجعل لحياتها حركة ما، فتحت حسابها على الفايسبوك وكتبت في خانة البحث محمد بلعربي، فظهرت حسابات كثيرة تحمل نفس الاسم، حاولت أن تميزه من صورهم المنشورة لكنها لم تفلح، ثم تذكرت أنه طالب اقتصاد بوهران هنا، إذا عليها أن تبحث في المجموعات علّها تجد الطريق إليه، بحثت وبحثت ولم تفلح في العثور على شيء كأن محمد بلعربي هذا غير موجود أصلا، فكرت في وضع منشور لتسأل عنه لكن الأمر قد يسيء إليها أو إليه فتراجعت عن ذلك، انتبهت وقتها إلى الساعة التي كانت تشير إلى الثالثة صباحا.

-أوف من هذا الفايسبوك كلّما قلت سأدخله لخمس دقائق وجدتها خمس ساعات، حتى المدفع لن ينجح في إيقاظي صباحا.

تركت هاتفها جانبا ونامت دون الغوص في الأفكار التي تزور البشر قبل النوم، تلك الأفكار التي نحرر بها دولا ونحتل أخرى، نعيش قصص الحب بسيناريوهات أجمل من تلك التي تحدث في المسلسلات التركية، نربي أطفالا، نحقق كل أحلامنا ونزور المناطق الأجمل حول العالم، تلك الفترة قبل النوم هي الرحلة التي ننتظرها جميعا. وفي الوقت نفسه هي رحلة أرق طويلة لمن ترهقه المشاكل.

وكما توقعت تماما أفاقت متأخرة، عليها الركض كثيرا، عليها أن تتحضر، أن تراجع جدول أعمالها، القضايا التي يجب أن تحضر ملفاتها للمحامي ياسين، عليها أيضا أن تشرب قهوتها وإلا لن تستطيع الخروج من البيت بأمر صادر من الأم القائد نجوى...وقفت أمام المرآة قليلا، شكرت الله أنها لم تتعود على تسريح شعرها ووضع مستحضرات التجميل، وإلا فلن تصل إلى المكتب أبدا...

ولأن تفكيرها بمحمد لم يتوقف، في المكتب راودتها فكرة استعمال معارف مدير المكتب في سلك الشرطة للوصول إليه لكن دون أن تثير الشبهات، وبحكم زياراته الكثيرة لهم، كان سهلا أن يراود المفتش زيتوني علي عقلها، هو صديق مقرب للأستاذ ياسين رغم فارق السن.

علي شخص لن تستطيع أن تدرك أنه مفتش شرطة بالنظر إليه من الخارج، يبدو شخصا مبعثرا قليلا، غير مهتم بصرعات الموضة رغم أنه شاب ثلاثيني، تراه دائما بسروال الجينز الأسود، ورغم أنه يملك العديد منها ويغير بينهم إلا أنه لا أحد يصدقه أنه ليس سرواله الوحيد، يرفقه بأي قميص عريض نوعا ما، أبيض أو رمادي عادة، حتى أنه كسول جدا خارج ساعات عمله، يحب النوم وكل ما يمت للراحة بصلة، يوحي وجهه برجولية مفرطة، أسمر بعيون غائرة سوداء، تشعر أنها خلقت لتخترقك بنظراتها الحادة، تناسبانه كمفتش، فوقهما حاجبان سوداوان يحددان ساحة العين بدقة، شعر لا يطول أبدا، مجرد حقل يحصده كل يومين ليبقى قصيرا، يخبرنا فقط أنه ليس أصلعا، لكنه إذا ابتسم تضيع كل هذه الصرامة

ويجد المرء نفسه مرغما على الابتسام تباعا له، كل هذا داخل وجه طويل نوعا ما مع عظم فك بارز تجعل وجهه مربع الشكل من الأسفل مما يوحي برجولة أكثر، كشكل عام هو بطول جميل يلائم وزنه.

اتصلت به وطلبت منه أن يجد لها وقتا بين عمله الكثير، فهي تحتاجه في خدمة، وعدها أنه سيتصل حالما يجد ذلك الوقت الذي تطلبه، وبما أنها خطت أول قدم في طريق البحث، قررت أن تترك أمر فتى البحر إلى أن تلتقي علي، أخرجت ورقة بيضاء وبدأت تخطط للمستقبل، كيف ستقتصد من راتبها؟ وكم سيكلفها استئجار المحل؟ دخلت وقتها إلى واد كنيس تبحث عن مكان يناسبها، قريب من بيتهم، ترى هل سيتحقق هذا الحلم يوما ما؟ ستسعد الكثيرين بتصاميمها، ستشارك الكثير من النساء فرحتهن، ستلبسهن أحلامهن، كم العرائس اللواتي ستزفهن بكامل زينتهن إلى أحبائهن، غاصت في أحلامها حتى رن هاتفها.

-قررت أن أختار لك وقتا اليوم قبل أن أنساك، مساء على السابعة بالشاطئ القريب من بيتكم، سلام.

وأقفل الخط قبل أن تقول هي شيئا، إنه علي الغريب الأطوار كعادته، سحبت ملف قضية كانت تعمل عليها في الفترة الأخيرة، شابة مسكينة اغتصبها حيوان بشري، وقد اصطادها من مواقع التواصل الاجتماعي، تحت مظلة الحب، كان ذئبا وكانت ساذجة تصدق أن كل من قال أحبك قصدها، وكل من أظهر اهتماما فهو يريد به راحتها، أرادت عليا لو أنها استطاعت أن تكون عقوبته الإعدام، مثلما شوه حياة فتاة بريئة وسرق منها

فرحتها بأغلى شيء تملكه أي فتاة على الوجه الأرض، أرادت أن يغرس رأسه بالتراب كما أحنى رأس والدي الفتاة، أرادته أن يعقد بالحبال حتى تخنقه كما عقَد حياة المسكينة. رفعت رأسها إلى سماح زميلتها وقالت:

-تقولين لي دائما أنك تشعرين أني لا أحب المحاماة، سأخبرك أنك على حق.

ظهرت علامات الاستغراب على وجه سماح ولأن هذه الجملة جاءت فجأة دون حوار، ثم أجابتها مستفسرة:

-لما؟ إنها مهنة نبيلة تعيد للناس حقوقهم المسلوبة.

-أعمل الآن على قضية الفتاة المغتصبة، تذكرينها صحيح؟ في المقابل هناك محام سيدخل ليترافع عن المغتصب ويحارب الأستاذ ياسين بكل قوة ليكسبه ويخرج موكله من الورطة التي هو فيها، أمر يشمئز له البدن، كيف يستحل أمواله وهو يدافع عن مجرم وهو يدرك تماما أنه مجرم.

-معك حق يا طفلتي البريئة لكن الأمور هكذا تمشي، وعلى المحامي الذي على حق أن يكون الأقوى ويدافع بكل خلاياه حتى يفوز الحق، والمهمة الأعظم تكون على عاتق القاضي.

-القاضي يحكم بما يقدم إليه من أدلة.

-هناك ثلاثة أنواع من القضاة يا طفلتي، من عرف الحق وعمل به، من لم يعرف الحق ولم يعمل به طبعا، وأخطرهم من عرف الحق ولم يعمل

به، أما المحامون فبإمكانهم اختيار قضاياهم ببساطة، لن تكوني في طرف لا تريدينه أبدا. حاولي جعل المرافعة تهوي بالمغتصب إلى أسفل السافلين.

وابتسمت سماح وانسحبت من الحوار آملة أنّها قد نفعت هذه الفتاة التي تعمل بمشاعرها لا بعقلها، بالمقابل وجدت عليا في كلام زميلتها شيئا من الحقيقة، لو أنّ كل المحامين تخلو عن عملهم لأنهم يرونه مثلها، من سيدافع عن المظلومين وقتها؟ ثم عادت لتندمج مع الأوراق والقضايا، ترتب الأدلة وتبحث عن المواد الدستورية الملائمة، محاولة أن تكتشف ثغرة ما في الجهة المضادة، وبقيت كذلك إلى أن انتهى الدوام.

دخلت إلى البيت متعبة من يومها، قبّلت رأس نجوى ثم ولجت غرفتها، غيرت ملابسها وتجهزت لتخرج مجددا.

-إلى أين في هذه الساعة يا ابنتي؟

-موعد عمل قريب من هنا لا أظنني سأتأخر، أريد طاجين الزيتون على العشاء ممكن؟ اشتهيته فجأة.

-طبعا ممكن حبيبتي، كنت حائرة ماذا أحضر لكم أصلا، اعتن بنفسك.

كان هناك نصف ساعة بعد على موعدها، ذهبت بخطوات متثاقلة وعقل عالق يفكر بفتى البحر، جلست في نفس مكانها المعتاد، فكرت لو أن الفتى البحر يأتي ويحكي لها هو عن نفسه بدل أن تبحث عنه من وراءه هكذا.

-بمن تفكرين؟

نادت محمد وكل ما فيها مصدق أنه أتى فعلا، لكن سرعان ما سيطر عليها الارتباك برؤية علي.

-هل كنت تنتظرين شخصا آخر؟

-لا، لا انتظر أحدا، إنه موعدي معك.

سكتت قليلا وهي تنظر إليه مستغربة ثم أضافت:

-على فكرة تبدو مختلفا بملابس الرياضة.

-إنه وقت الركض يا بنت، وبما أنّك تسكنين بالقرب من البحر ارتأيت أن أراك ثم أقوم بحصة الرياضية من اليوم، هاه دعك مني، ما الموضوع التي تريدين التحدث فيه معي؟

-أريدك أن تعرف لي إن كان أحدهم متورطا في قضية ما، أو أحد يحمل نفس اللقب، وإن كان ممكنا أي معلومة بخصوص هذا الشاب أحتاجها.

-على رسلك يا بنت، أنا لست محرك البحث الخاص بك، كما أني مستأمن على المعلومات لا أعطيها لكل من يسأل.

-لكنك تعرف أنني محامية.

-مبتدئة، محامية مبتدئة، وإن يكن ماذا يعني أنك محامية؟ لكن ربما إن شرحت لي لما تريدينها، أساعدك.

ابتسم وكأنه تمكن منها أو كأنه كان في حرب ربحها، لم تفهم هي ابتسامته تلك، لكنها شعرت بالضيق لأنها ستضطر لقص حكاية هذا الفتى مرة أخرى لشخص جديد، بعد هذا أكيد أنها ستكتبها لتنشرها على صفحتها الفايسبوكية ليعرفها الجميع دفعة واحدة. فكرت قليلا ثم لم تجد بدا من الكلام.

-طيب سأخبرك لماذا أريد هذه المعلومات شرط ألا يصل خبر عن هذه القصة لا لسماح ولا السيد ياسين صديقيك.

هز رأسه موافقا وشرعت هي في سرد حكاية محمد التي حفظتها بكل تفاصيلها بعدد المرات التي قصتها سابقا.

-وقد بقيت جملته الأخيرة عالقة بعقلي، أريد أن أعرف ما وراءه، شيء كتأنيب الضمير، هاه هل ستساعدني الآن؟

-الأمر ليس معقدا، نقرة زر بعد كتابة اسمه وتكون لديك كل المعلومات. هل فقط تريدين مساعدته؟ وليس هناك شيء آخر؟

-وما دخلك سيد علي؟ هل سنصبح أصدقاء الآن لأني طلبت منك معروفا؟

-لا يهم.

قام ليغادر المكان بعد أن قال لها أنه سيتصل بها ليخبرها ما تريده وأنه لا يهتم بصداقتها أبدا مجرد الفضول الذي التصق بشخصيته من العمل، بينما شعرت هي ببعض الندم على التعامل مع شخص بهذه النفسية الفوقية، ثم

تذكرت أن طاجين الزيتون ينتظرها على العشاء، ابتسمت ابتسامة عريضة، هو الأكل هكذا وإن كنا قليلي الأكل إلا أننا نجد سعادة الكون في طبق نحبه، تعده الأم بكل حب، الصديق الوفي، لا يحدث أن تقصد الشوكولاتة وأنت في حالة اكتئاب وترفضك أو تخبرك مثلا أن لديها عملا تكمله ثم تعود إليك لمواساتك. وهي تفكر في عشاءها قررت أن تنتظر محمد للمرة الأخيرة ربما يأتي ولن تحتاج لعلي بعد ذلك.

من جانبه علي انشغل بحصة رياضيته اليومية، هذا الشاب المشبع باللامبالاة، أخذ يفكر في فتاة تقصد مفتشا لتبحث عن شاب يبدو أنه أعجبها واختفى، تغلف إعجابها بقصة القضية، شعر ببعض الغضب لأنها تستغبيه، ثم طرقت أفكاره أبوابا أخرى، ماذا في هذا الشاب حتى يشد بنتا بشخصية عليا؟ في ثلاثة لقاءات سرق تفكيرها، وقرر أن يبحث عنه ليفك اللغز ويكتشف ماذا خلف هذا الاختفاء وخلف اهتمامها.

-4-

تجلس آية وهي تتأمل عليا ترسم كما تعودت، لكنها لمحت ابتسامة خفيفة تتراقص على شفتيها، لم تجرأ على اختلاس النظر إلى اللوحة فذلك يغضب عليا، يخرجها من حالتها التي تشبه الانفصال عن العالم الحالي، وكأنها في حياة غير التي نعيشها، في دنيا الأحلام، انتظرتها حتى وضعت قلمها وجلست تنظر إلى ما خطته. وقفت آية تتفحص اللوحة وعلامات التعجب وشيء من الإعجاب يعلو محياها، ثم قالت:

-إنه فتى وسيم، هل قررت رسم فتى أحلامك اليوم.

-فتى أحلامي؟ من أين جاءت هذه الفكرة تافهة.

-لكل فتاة شاب تحلم به، له مواصفات معينة، بعضهن يعشقن الطويل، كما أن صاحب اللحية ينال هذه الصفة بسهولة، في كل مرة تريد أن تتخيل عرسها تضعه عريسا، عندما تشاهد فيلما رومنسيا أو تقرأ رواية ما سترى نفسها تعيش تلك اللحظات الجميلة معه، عندما تغمض عينيها لترى طفلها سيكون يشبهه، قد يكون ممثلا تحبه، أو كاتبا أو ربما شخصا هي ترسمه في عقلها، لكن تقريبا لا توجد فتاة بدون هكذا شخص، وكما ألاحظ هذا الشاب لا يشبه مواصفات فتى البحر فمن سيكون...

-دعيني أغلق معك قصة فتى الأحلام ثم سأخبرك من هذا المتعجرف، أولا أختلف معك في التسمية، أنا أسميه شريكي المستقبلي، ففكرة فتى الأحلام

تجعله شيئا خياليا صعب الحدوث، الأحلام تبقى أحلاما مهما سعينا خلفها، وأما تخيلي له فدائما ما يكون في الأمور المعنوية، لم أفكر في الشكل حتى أرسمه، هل سأدور بصورته في الشوارع أبحث عمن يشبهه؟ ربط الشريك بالشكل أمر سطحي، عن أي طول ولحية تتكلمين، هذا الأمر قد يجعل الشخص المناسب يقف أمامي دون أن ألاحظه فقط لأنه لا تنطبق عليه مواصفات تخيلتها، أهم ما سيتوفر عليه شريكي المستقبلي أنه سيكون سندي في كل قراراتي وسيعتبرني كيانا قائما بذاته وليس ظلا له...

قاطعتها آية بعد أن خمنت أن عليا لن تخرج من هذا الموضوع، كما تعرف أنها هنا تتحدث عن شيء خلَّفه موقف والدها الأخير...

-لو كنت سأرسم فتى أحلامي لما كان بهذه الوسامة، من هذا أخبريني دون التهرب والدخول في حوارات لا تنتهي.

-المفتش علي، تحدثت معه...

وقبل أن تكمل جملتها قفزت آية إلى جانبها وأمسكتها من يدها وهي تقول بشيء من الصراخ الخافت.

-هل هذا الملاك موجود حقا؟ وتكلمت معه؟ هيا قولي كل شيء تعرفينه عنه، أسرعي.

قاطعها هاتف عليا الذي رنّ معلنا وصول رسالة، وجدتها هي فرصة لتفر من فضول آية الذي كان كبركان لن تتوقف حممه حتى تفرغ كل ما في جعبتها...

"هل يمكننا أن نلتقي اليوم أيضا في نفس المكان والزمان؟"

-وكأنني سأندم لاستنجادي به، كان يمكنه إرسال المعلومات في نفس هذه الرسالة، لماذا سنتقابل ثانية؟

-هل هو المفتش علي؟

هزت عليا رأسها إيجابا وهي تشعر بشيء من الاستياء، أحست أنها أوقعت نفسها في مأزق مع هذا المفتش، بينما كانت صديقتها في كامل انتباهها تود أن تسمع قصة هذا العلي، وقد فهمت عليا ذلك من نظراتها فعادت لتخبرها ما حدث باختصار.

-تذكرين فتى البحر محمد صحيح؟ استنجدت بهذا المفتش لأنه يزور السيد ياسين كثيرا وقد عرفني عليه مرة، أخذت رقمه من زميلتي، وقد التقينا أمام شاطئ كريشتل وطلبت منه ملفه، وهذا كل ما في الأمر.

ردت آية والخبث واضح على تعابير وجهها، تزم شفتيها.

-إذا كان هذا كل ما في الأمر لماذا رسمته إذا؟

تلعثمت عليا قليلا، فهي فعلا لم تعرف لما رسمته، لماذا احتل اللاوعي منها ليتجسد صورة هكذا، ثم ابتسمت كأنها عرفت السبب.

-لأنه ببساطة هو الحل، بفضله سأتخلص من هذا الغموض الذي اكتنف حياتي فجأة بسبب محمد.

-ربما...متى ستلتقينه مجددا؟، عليّ أن أجد حجة وأتواجد معكما لأراه حقيقة.

-اليوم مساء على السابعة أمام الشاطئ.

انتصبت آية واقفة معترضة على ذلك.

-تعلمين أنني لا يمكنني الخروج من المنزل في ذلك الوقت، أمي لن تسمح لي حتى لو قلت لها أني سأزورك في بيتك، اختاري وقتا أبكر أرجوك، ربما يكون من نصيبي.

قالت ذلك وهي تمسك بيد عليا، عليا التي سحبت يدها بقليل من الغضب ثم أجابتها.

-هو من حدد الموعد حسب موعد فراغه، كما أنه سيخبرني معلومات فقط ويذهب، ما الحجة التي سأقدمها لتكوني معي؟

ثم أضافت بعد أن حملت هاتفها

-بسبب كلامك الكثير الذي لا طائل منه نسيت أن أرد على رسالته.

أخذت نعبث بهاتفها وقد نبهها كلام آية إلى جانب انشغلت عنه...علي شاب وسيم فعلا، كيف لم تلاحظ ذلك وحدها؟ كتبت أول الأمر "نعم موافقة

أنتظرك هناك، إلى اللقاء" ووضعت آخره وجها باسما، قرأت ما كتبت قبل أن تؤكد الإرسال، شعرت أنها قد بالغت، مسحت كل شيء وتركت فقط "نعم".

أصدق الرسائل تلك التي لا نرسلها، تلك التي تقف بين قلوبنا وألسنتنا، تلك التي نكتبها على سجيتنا أول الأمر قبل أن نقرأ ونتمعن ونفكر ونسمح للعقل أن يلقي بحكمته على الموضوع، قبل تذكر مواقف الشخص المرسل إليه معنا، من منا لم يكتب ولو مرة في حياته رسالة طويلة أفرغ فيها لب قلبه ثم مسحها ليكتب بدلا عنها حسنا، قد يكون الخجل هو السبب، وقد يكون الكبرياء، لكنه يحدث...شيء كالإجابات في الامتحانات دائما ما نكتبه أول الأمر يكون صحيحا ثم تتلاعب بنا الوساوس لنخرِّب كل شيء.

حملت عليا حقيبتها وقبلت صديقتها، أخبرتها أنه عليها العودة إلى البيت أولا ثم لقاء علي، مشت خطواتها مسرعة إلى الباب، انتعلت حذاءها ثم التفتت فجأة وقالت:

-يمكنك تمزيق اللوحة ليست شيئا مهما، أراك على خير، أحبك.

وغادرت بعد عناق مقتضب، بينما كانت آية تقف وهي تضحك على صديقتها، لا يمكنها أن ترسم شخصا وهي تبتسم بكل تلك الطمأنينة ولا يكون للوحة أي أهمية، عادت إلى الغرفة وجلست قليلا تنظر إلى علي، فقد رسمته مبتسما، ارتفع فمه من جانب واحد.

-إنه فعلا جميل رجولي وإن لم يكن له شعر يصففه ولا لحية قد هذبها، أثبت أن هذه شكليات، من كان أصله جميلا سيبقى جميلا، إن كانت قد رسمته كما هو ولم تغدق عليه من مخيلتها، إن لم ينجح هذا الفتى في سرقت قلب هذه المجنونة ستظل عانسا متأكدة.

ضربت رأسها وكأنها تذكرت شيئا مهما.

-ماذا لو كانت له حبيبة؟ وان فتاتنا الغبية لم تنل إعجابه؟ اللهم إني أعوذ بك من أن تكون الأولى صحيحة، وأما الثانية فسهلة، عفوية عليا تسرق قلوب الجميع. (سكتت قليلا ثم أضافت) **يا رب دعوة أخرى بعد، يا رب شابا كهذا العلي في طريقي ولن أطلب غيره.**

ثم قامت وخبأت الصورة في غير مكان اللوحات المعتاد بعد أن سجلت خلفها تاريخ اليوم والساعة، وهو الأمر الذي لم تفعله سابقا...

دخلت عليا مسرعة إلى البيت بعد أن تأخرت في العثور على سيارة أجرة، بقي القليل فقط على موعدها، قبلت نجوى وولجت غرفتها وغرست رأسها في الخزانة تبحث عما يمكن ارتداءه، اختارت فستانا أزرقا كلون البحر، وانتعلت صندلا خفيفا وهرولت مسرعة إلى الشاطئ، تفكر في الطريق هل هي مسرعة للقاء علي أم لمعرفة أخبار محمد؟ هل اختارت هذا الفستان الذي يجعلها ملاكا يطير بخفة فقط لأنه يعجبها أم لتلفت انتباهه إلى جمالها؟ هل أثر حديث آية عليها؟ وهي في طاحونة الأفكار هذه لمحته يجلس على

صخرتها ينتظرها، نظرت إلى ساعتها كان هناك خمس دقائق بعد لموعدها، وقفت هكذا من بعيد تنظر إليه، ثم هزت رأسها وهي تقول:

-ما الذي أفعله، إنه متعجرف ليس إلا وهذا لقاءنا الأخير، تبا لك يا آية ملأت رأسي بالتفاهات منذ الصباح.

اقتربت منه ببطء وجلست بهدوء، التفت إليها وابتسم بطريقة حلوة جعلتها تخجل وتدير وجهها إلى البحر هاربة إليه منه.

-أهلا، على وقتكِ تماما، أحب من يحترمون مواقيتهم، سجلت نقطة.

-أهلا بك، وأنت جئت باكرا فهل أسجل لك نقطتين؟

ضحك من مزحتها وابتسمت هي لوجهه الضاحك تلقائيا، ثم تمالكت نفسها وحاولت العودة بالأمور إلى الجدية، جمعت فمها عن بسمته وقالت:

-هل نعود إلى موضوعنا؟

-أعلم أنك قلت أنّه يمكنني إرسال المعلومات في رسالة وينتهي الأمر...

قاطعته بشيء من النرفزة

-ومن أين تعلم؟ هل تفكر بدلا عني؟ أم أنك تظن أنك تعرف كل شيء.

-نعم أعرف كل شيء، وإن كنت قد أخطأت التخمين فقولي، رغم أن ردك السريع يثبت صدق ما قلته.

سكت ينتظر ردها، وسكتت لم تجد ما ترد به، فهو قد أصاب في الأمرين في تخمينه وفي تفسير رد فعلها، عاد هو إلى الكلام بعد أن فهم تحرجها منه.

-نعم، كنت أقول أنّه كان يمكن إرسالها دون هذا اللقاء لكن ما عرفته وما قلته قبلا جعلاني أقدِّر أن قول ذلك وجها لوجه سيكون أحسن...

-5-

كانت تمشي وهي كالمجنونة، فاقدة لعقلها تعيش في عالم آخر، بقيت كذلك حتى وصلت بيتها ودخلت غرفتها، لم تقبل نجوى على غير عادتها، جلست على سريرها لا شيء بعقلها غير كلماته...

-محمد بلعربي الذي تبحثين عنه وتدعين أنك التقيته غير موجود في عالمنا، أو بعبارة أدق هو لم يعد موجودا الآن، قد توفي قبل سنة في 15 مارس، في نفس شاطئكم هذا بجرعة زائدة من المخدرات، أقفلت القضية في تاريخها، باقي المعلومات لا أظنها ستهمك بما أنه مات...

لم تتذكر إن كان قال شيئا بعد ذلك أم لا، تركت المكان فزعة من أن يظهر محمد من مكان ما هناك، كانت متأكدة أنها التقته وليس مجرد حلم، أصلا كيف يمكن أن نحلم بشخص لا نعرفه وبمعلوماته الصحيحة، أخذت تفكر في لقاءاتها معه، كيف كان يظهر ويختفي سريعا دون أن تشعر به، كيف كان يرمقهما الناس، أو بالأحرى يرمقونها هي، كيف كانت نظراته غريبة، تذكرت عندما أخبرها أنه لم يشارك بشريا حوارا قبلا...

بمجرد أن فُتح باب غرفتها، صرختْ صرخة دوت عاليا، فزعت لها نجوى التي دخلت لتطمئن على ابنتها.

-هذه أنا أمك، ما بك؟ لما كل هذا الفزع؟

-ليس من عادتك الدخول دون طرق الباب لذلك فزعت لم أتوقع أنّك أنت.

-طرقت حتى تعبت ولم تردي...هاه ما بك؟

-أمي هل يمكن لنا لقاء الأرواح؟

-بسم الله الرحمان الرحيم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، عن أي أرواح تتحدثين؟

-أشخاص ماتوا مثلا تبقى أرواحهم معنا.

-لم يسبق أن رأيت ذلك بنفسي لكن قرأت عن الموضوع سابقا، كان ذلك في زمن ماضي، بعض الأرواح تكون معذبة أو ماتت قتلا، يكون هناك شيء عالق لها في الدنيا تريد أن تأخذه معها حتى ترتاح في قبرها، ورغم أني لا أصدق ذلك لكن بعض القصص قريبة جدا للحقيقة.

-في أي كتاب قرأت هذا؟

-أكثرها صدقا كان لأنيس منصور، أرواح وأشباح وهو كاتب مصري وأستاذ جامعي في الفلسفة، لذلك تشعرين بصدق القصص التي يرويها عن تلك الأرواح العائدة.

-هل تملكين نسخة منه؟

-نعم نسخة قديمة أبحث لك عنها، لكن ما سبب هذا الحوار؟

-لا لشيء فقط احتاجته صديقة لي في بحث لها وأردت مساعدتها.

-تمام، هاتفك يرن منذ دخلتي ولم تنتبهي إليه.

كان علي هو من يتصل مرارا وتكرارا ولكنها لم تستطع أن ترد عليه بسبب نجوى وبسبب الشتات الذي قد رمى بها فيه، ماذا سيقول؟ ماذا ستقول هي؟ ماذا قررت بهذا الخصوص؟ كان كل شيء مجرد فوضى، وكل الصور ضبابية.

-غيري ملابسك وتعالي، العشاء جاهز، حضرت لك "الرقاق".

-سآتي بعد دقائق.

رن الهاتف مجددا، وقررت أن ترد هذه المرة ليتوقف عن الاتصال.

-ألو...ألو أخيرا فتحتِ الاتصال، قلقت كثيرا عليك، هل أنت بخير؟

-بخير شكرا

-انتظري لا تقفلي الخط، انتظري أرجوك.

-ماذا هناك؟

-عليا هل يمكن أنه تشابه أسماء، أنت لم تخبريني ما أخبرك به محمد الذي التقيت به.

-ليس كذلك فلقد رأيت صورته في ملفك، كان هو.

كان صوتها رخاميا، كأنه ليس صوتها، فارغا كأنها لا تملك ما تقوله، حتى هو لم يملك ما يضيفه لينتشلها من الغموض الذي أحس أنه السبب فيه.

-هل يمكن أن نلتقي مجددا لنتحدث عن الموضوع، سأجمع معلومات أكثر و...

-سأقفل، تصبح على خير.

وقبل أن يرد عليها أقفلت الخط، شعر علي بالضيق لأجلها، وبدأ يفكر في موضوعها، فتح النت وأخذ يبحث في فكرة عودة الأرواح لكنه لم يجد شيئا معقولا يصدقه العقل، أخرج ملف الشاب وبدأ يقرأه من جديد، يحاول إيجاد حل لهذا اللغز، ثم استلقى على ظهره، أغمض عينيه لتتراءى له صورتها، تذكر شعرها المجنون كحركاتها، فستانها الأزرق الذي كان يتراقص مع نسمات البحر المنعشة، تذكر بسمتها وهي تنظر إليه، وكأن بها شيئا ساحرا يشغل باله.

-لن أتركها حتى نجد حلا لهذه المعمعة.

وواصل التفكير حتى سرقه النوم من هذا العالم إلى عالم الأحلام، ولأن الحلم أحيانا مجرد استمرار لليقظة، لم يتخلص منها وزارته هناك، يقال في علم النفس أن ما نفكر به آخر الشيء نحلم به، كانت بنفس فستانها الأزرق، لكن عيونها كانت حمراء تقطر دما، تتلفت يمينا ويسارا كأنها تبحث عن أحدهم، حاول التقدم إليها ومساعدتها لكنها كانت تغرق شيئا فشيئا في الرمل...

أفاق أمين على صراخه باسمها، قام متعثرا إليه وسط الظلام، دخل غرفته وأشعل الأنوار ليجده نائما يتخبط في مكانه.

-علي...علي أفق إنه مجرد كابوس.

فتح عينيه وأمسك بذراعي أمين الذي بدأ في الضحك فجأة بعد أن اطمأن أن شريكه في السكن قد استعاد وعيه تماما.

-لما الضحك الآن، عد إلى غرفتك ودعني أعود لنومي.

-أنا لا يمكنني العودة إلى النوم قبل أن أعرف من عليا التي هربت من قبضتك في حلمك.

-عليا؟ هل قلتُ عليا؟ لا أعرف فتاة بهذا الاسم مجرد كابوس ليس إلا.

وقام يجره إلى خارج الغرفة وأغلق الباب وراءه، أخبره أمين أن التهرب من الموضوع ليس بهذه السهولة ولولا أن عمله بالمستشفى غدا ينتظره لما تركه، عاد علي إلى سريره واستلقى وأخذ يفكر بحلمه.

-لن أدعها تغرق لوحدها، ما هذا المنام إلا إشارة...

عليا بدورها لم تستطع النوم بهدوء، كانت في كل مرة تغمض عينيها لتنام ترى محمد يفتح قبره ويخرج بكفنه ويمشي إليها، تستفيق وهي تتصبب عرقا، تقرأ ما تستطيع تذكره من القرآن من شدة الفزع، وتستعيذ من الشيطان وتعاود المحاولة مرة أخرى، إلى أن استسلمت والخوف قد استوطن روحها، قامت وأنارت الغرفة، جلست تحاول جاهدة صرف تفكيرها عما حدث، لجأت إلى طريقتها المعتادة، اتجهت إلى مكتبتها الصغيرة، أغمضت عينيها واختارت كتابا هكذا تاركة عنوانه للحظ،

كبرياء أنثى هذا ما وجدته بين يديها، فتحها على صفحة أيضا دون اختيار مسبق، علّ القدر يرسل رسالة لها من خلال ذلك، أو تشغلها عن هذا الخبل الذي تعيشه...

"غير أن الله لا يضيِع تعب مجتهد، قد يبتليه ولكن لا يوجد من هو أحن منه على عباده..."

-الله نعم الله لن يتركني لهذا الجنون، بالتأكيد هناك تفسير منطقي لما حدث، لا يمكن لأحد غير الله أن يسندني.

عادت إلى فراشها وهي تتلو ما تحفظه من القرآن، لما فيه من قوة سحرية في إعادة السكينة إلى الأرواح، "ألا بذكر الله تطمئن القلوب"، باغتها النوم بعد أن نال منها التعب، وهذه المرة دون كوابيس.

-6-

الجمعة، الساعة قاربت الحادي عشر، الهاتف يرن دون توقف، حملته والنوم لا يزال يحط رحاله على جفونها.

-ألو...

-صباح الخير ماذا حدث مع الوسيم البارحة؟ انتظرتك أن تتصلي، أو أن تفتحي حسابك على الفايسبوك لكنك عشت اللحظة معه حتى نسيتني.

-آية...آية توقفي عن الكلام، سأغير ثيابي وآتي إليك، أحتاج إلى الكلام وجها لوجه.

أقفلت الخط وقامت من مكانها، خرجت من الغرفة إلى المطبخ، وجدت نجوى منشغلة بالطبخ.

-صباح الخير ماما.

-أخيرا قمتي، كدت أفجر قنبلة في غرفتك علك تشعرين وتستفيقين لكن لا حياة لمن تنادي، هل ستشربين القهوة؟ هناك بعض الكعك التلمساني.

-لم أنم جيدا ليلة البارحة يا حلوة، لم أكن أفكر في شربها لكن الكعك لا يقاوم.

-على فكرة وجدت لك الكتاب الذي أخبرتك عنه البارحة، وضعته في غرفتك.

-شكرا حبيبتي، سأغسل وجهي وأعود إليك.

وقفت أمام باب الحمام تفكر هل تدخل؟ هل يمكنها أن تقف أمام المرآة دون أن يظهر خلفها؟

-كفي عن هذا الهراء، لقد اقتنعت بالأمس أن للموضوع تفسيرا، كما أنّه وإن كان ميتا فهو لم يزرني هنا قبلا.

كان وجهها يبدو متعبا منهكا، حتى الهالات السوداء قد بدت بارزة على غير العادة، جمعت شعرها على شكل كعكة، ثم عادت للمطبخ، وجدت قهوتها محضرة بملعقة سكر كما تحبها، أمامها حبات من الكعك، نظرت إلى أمها وبكثير من الحب، تلذذت بفطورها دون أن تقول أي شيء، حتى بادرتها نجوى بفتح باب الحوار.

-ماذا حدث معك البارحة؟ لم تكوني بخير عند عودتك من الشاطئ.

-لا شيء مهم، عندما أفهم الموضوع جيدا سأحكيه لك، لا تشغلي عقلك الجميل هذا بسخافاتي.

قامت وقبلتها وهي تودعها.

-سأذهب إلى آية.

-وقت الغذاء يا بنت، عيب.

-إنها آية فقط، لا أخجل منها وكما أنها تعلم أنني لا أتناول الغذاء أصلا.

وهي في الطريق تفكر كيف ستشرح الموضوع لآية، رن هاتفها مجددا، كان علي هذه المرة من يتصل، حاولت أن تتجاهله لكن يدها ودون إرادة منها قبلت الاتصال.

-ألو صباح النور عليا، كيف حالك اليوم؟ هل تجاوزت حالة البارحة؟

-أهلا، نعم أنا بخير شكرا.

-أنا الآن بالشاطئ هل يمكن أن نلتقي؟

- لا داعي لذلك قلت لك أني بخير، كما أنني الآن في الطريق لبيت صديقتي.

-طيب نلتقي في وقت آخر، لكن علينا أن نلتقي.

-بمجرد أن أرتب نفسي سأتصل بك، شكرا على اهتمامك سيد علي.

لاحظ الرسمية في حديثها والانفعال في نبرته، شعر أنه غير مرغوب فيه، أو أنه يفرض نفسه عليها، أخبرها أنه قد اهتم بالقضية لأنها غريبة، استأذنها وقطع الاتصال وهو يشعر بالسوء جراء تسرعه.

فتحت آية الباب وسحبت عليا من يدها مباشرة إلى الغرفة، كأن صبرها قد نفذت ولم تعد بها طاقة أكثر للانتظار.

-ابدئي وبأدق التفاصيل، هل تجهّز لموعدك؟ هل لاحظت اهتماما إضافيا؟ هل أخبرك أنك جميلة اليوم؟ هيا لا تسكتي هكذا.

-ما حدث كان فوق التخيل يا ابنتي.

-أووووو هل اعترف بحبه مباشرة؟

-عن أي حب تتحدثين، هل تعرفين أن محمد فتى الشاطئ ميت منذ سنة.

-ماذا؟ مستحيل فقد التقيته مرات عدة، وقد تحدثتما، لا يمكن أن يكون هذا حقيقيا، تشابه أسماء ليس إلا، لا بد أن المفتش لم يركز جيدا...

-تتحدثين كثيرا، في كل مرة أقول أنّني سأتخلى عن صداقتك بسبب هذا الطبع ولا أستطيع، دعيني أشرح لك ثم علقي.

-لن يمكنك فعل ذلك، هاه تفضلي اشرحي.

حاولت عليا أن تحكي لها كل ما عرفته، وكل ما فكرت به منذ الأمس، علّهما تجدان مخرجا، مع كل تقدم في القصة كان فم آية ينفتح أكثر، مدهوشة مما تسمعه، لا يمكن أن يصدق أحد أن الأموات قد يعودون للحياة، بل ويتكلمون معنا، ونحكي لهم.

عاد علي إلى بيته حيث وجد أمين قد حضر الغذاء، كان أمين يفر من ضغط عمله بالطبخ وكان علي يستفيد من هذه الخاصية لأنه لم يتعلم حتى كيف يقلي بيضة، جلس على الطاولة، ولكن عقله كان في مكان آخر، حتى داهمته كلمة من أمين.

-عليا؟

-ومن غيرها...

-قبضت عليك أخيرا، هات الحكاية من الأول.

-لا شيء يستحق القص.

-تعيش بأحلامك، تصرخ بها في نومك، وتجيبني ومن غيرها بلا وعيك وتقول لا شيء؟

-لو أنك تركت الطب الشرعي ودرست الطب النفسي لكان أحسن، سأحكي لك يوما ما لكن الآن لا شيء واضح فعلا.

لم يضغط أمين عليه أكثر لأنه يعلم أنه سيترك طاولة الغذاء، اكتفى بالابتسام وقبول تأجيل الموضوع لوقت آخر، بينما علي كان شاردا عن الأكل ولم يحمل حتى لقمة واحدة، كبرياءه يرغمه على الانسحاب من هذه القصة، الغموض يدفعه للعودة إلى عمقها، عليا...عليا اسمها يتكرر داخل عقله ولا يعرف سببا لذلك.

على طاولة غذاء أخرى كان كمال يسأل عن عليا ولما هي غائبة، وهذا من غير العادة في أيام العطل، خاصة الجمعة اليوم الخاص بالكسكسي، أخبرته أنها تزور آية لكن هذا لم يرح خاطره، ثم تكلم علاء.

-أبي هي كبيرة الآن ألا ترى أنك تضغط عليها كثيرا؟

تعبت عيون نجوى وهي تشير إليه أن يصمت لكنه لم ينتبه إليها، ثم أضاف عبد العلّي.

-رغم أنك يا علاء طفل ولكن هذه المرة قد أصبت...

لم يكد يكمل جملته حتى ثار عليهما كمال وهو يصرخ بأن يصمتا وأنه لا دخل لهما كيف يربي ابنته.

-هل تظنان أنه أمر سهل أن تكون أبا لبنت، تربيها رقيقة كالنسمة، قوية كالعاصفة، تقف لوحدها أمام الكون لتقول أنا هنا، أنت وأنت شباب ستتكلفان بنفسيكما كيف ما كان الحال وحتى هذا المجتمع لن يظلمكما لأنكما رجلان، ذكران أما هي فأخاف عليها بعد أن يتوسد جسدي التراب، لذلك اخترت لها المحاماة ليهابها هذا المجتمع ولتعرف كيف تأخذ حقها من كل واحد يدوس على طرفها، أنا لا أكره ابنتي أنا أدعمها، أحبها، أدفعها إلى القمة، يكفي أن تفهم هذا...

كانت المرة الأولى التي تقاطعه نجوى وهو يتحدث إلى أولادهما

-يكفي أن تخبرها، الفتاة لا تريد شيئا غير أن تعتبر كيانا قائما بذاته نناقشه، يقنعنا ونقنعه، وليس آلة نلقي عليها الأوامر وتطبق، كمال لم أكن أتدخل في قراراتك سابقا لأني أعلم أنك تفكر ألفا قبل أن تقرر لكن هذه المرة عليك أن تناقش قبل أن تقول أوامرك.

أكل كمال دون أن يقول شيئا، وكأنه اقتنع برأيهم، وخيم الصمت عليهم حتى قال علاء مرة أخرى

-أبي أريد التسجيل في ناد رياضي، أحب الملاكمة وقد أخبرني كريم صديقي أنهم قد فتحوا واحدا قريبا من هنا.

-ودراستك يا ولد، نتائجك أصلا تحتاج إلى الرفع والتعب عليها لتتحسن.

-أعدك أن أدرس أكثر إن سمحت لي.

-سنعقد اتفاقا إذا سأنتظر نتائج هذا الفصل الأخير من السنة فإن كانت جيدة سأسجلك بنفسي.

هز علاء رأسه متحمسا، موافقا على الاتفاق حتى تدخل عبدو وهو يغمز أمه.

-لا تتحمس كثيرا يا علاء المجنون لا أمل منك ومن نتائجك.

-بل سأنجح وسترى، الملاكمة حلمي وسأبلغه، يريدنا أبوك أقوياء لنحمي طفلته المدللة.

ضحك الجميع من غيرته الواضحة، يبقى أصغر عنصر في البيت يرغب في الاهتمام كاملا، بالحب شاملا، لذلك أي مدح أو تفضيل وإن كان غير مقصود لغيره من أفراد العائلة يجعله يشعر بنقص في مكانته، ويشعره بنار تحرقه من الداخل...

عادت عليا مساء وهي على نفس الضياع الذي خرجت به من البيت، ألقت التحية وطلبت كتاب أرواح وأشباح من نجوى التي أخبرتها أنها تركته في غرفتها كما قالت صباحا، دخلت إلى هذه الأخيرة وأقفلت الباب خلفها، وشرعت تخوض غمار التجربة مع هذا الكتاب الغريب...تجربة استمرت لساعات طويلة حتى وصل الليل، حتى سمعت قرعا خفيفا، ظنته عبدو أو

نجوى، قامت وفتحته ودون أن تلقي بالا للقادم عادت إلى كتابها بعد أن سرقتها قصة ابنة نفرتيتي.

-هل هناك وقت لي لنتحدث قليلا؟

رفعت رأسها مستغربة فقد كان كمال هو من كسر خلوتها، عدلت من جلستها وطلبت منه التفضل، جلس كمال بقربها على السرير وأمسك يدها بكل حنان ثم قال.

-هل تشكين أني أحبك؟

تلعثمت وكادت الكلمات ألا تخرج من فمها لكنها أجبرت نفسها على الإجابة.

-طبعا أدرك أن تحبني، كل الآباء يحبون أبناءهم.

-تماما كلنا نحب أولادنا، وأنت كنت أول فرحتي وثمرة زواج عن حب كما تعلمين، كانت ضحكتك وأنت طفلة تغنيني عن العالم وتنسيني تعبي، كنت أحب تفاصيلك، أول ابتسامة، أول كلمة، أول خطوة، أول مرة قلت فيها بابا، وقتها غضبت أمك لأنك لم تقولي ماما أولا، لم نكن ندرك أن مخرج الحرف باء أسهل من الميم على الطفل وهذا هو السبب ليس إلا، لكن معك تعلمت هذا، معك تعلمت كيف أكون أبا، دائما تكونين التجربة لكل شيء، لذلك ربما أحيانا أخطئ في حقك، لم أنتبه بعد أنك كبرت، ما زلت في نظري تلك الطفلة التي أحميها من كل شيء...

كانت عيونها قد اغرورقت بالدمع، الحديث الشاعري مع الأب دائما ما يحمل الدموع في طياته، حاولت أن تتكلم لكنه أخبرها أنه سيكمل ما عليه قوله وهي غير مجبرة على الإجابة.

-لم أنتبه أنك كبرت، لكنه وإن بلغت من العمر أرذله ستبقين طفلتي التي أحميها من الهواء، إن كنت قد أجبرتك على دراسة الحقوق فهذا لأني خفت عليك بعدي، لن أستأمن إخوتك عليك فسيتزوجون وينجبون وينشغلون، ولن أستأمن زوجا لا أعرفه عليك، فكم من زوج كان مصيبة في حياة زوجته، سأستأمنك على نفسك لأنك عليا، عليا التي وقفت في وجهي لأجل أحلامها ستحمي عليا التي تبكي أمامي الآن، إن وجدت أني مخطئ فمن الآن انسي المحاماة وافعلي ما تريدينه لن أتدخل، لكن تفهمي وجهة نظر رجل وجد في هذه المهنة حماية لقرة عينه.

قالت عليا والدمع يخنق صوتها.

-لن أتركها يا أبي، فهمتك خطأ يوم اعتقدت أنك تحقق أحلامك الضائعة بي.

وعانقته عناقا طويلا هدأت فيه روحها، وخمدت دموعها، ثم قاما معا إلى العشاء.

كانت تحمل هاتفها، تبحث عن رقمه، تحاول الاتصال، ثم تتراجع عن ذلك، حتى رن بين يديها، ردت بسرعة دون أن تنتبه للاسم المسجل.

-ألو... هل اتصلت به؟

-هذه أنت آية، لا لم أفعل.

-ماذا تنتظرين؟ أن يتصل هو، لا أظنه سيفعل، وهذه القضية لن تستطيعي الخوض فيها دونه، دعي كرامتك جانبا، ماذا أقول أنا عن أي كرامة اتحدث، أنت المخطئة أصلا، الشاب كان ألطف من اللطف في حد ذاته.

-لن أناقشك الآن أنا متعبة، سأتصل به لاحقا، هل علي الاعتذار أم أدخل في الموضوع مباشرة؟

-إن لاحظت نبرة انزعاج اعتذري وإلا فأكملي من حيث توقفتما، لما أنت متعبة مازلنا صباحا؟

-لم أنم طول الليل وأنا أقرأ أرواح وأشباح، حسب القصص الواردة به لقد سجل التاريخ عدة أرواح بقيت معلقة بيننا حتى أخذت انتقامها، وهناك بيوت ملعونة بأرواح تسكنها.

-هل صدقت هذا؟

-القصص التي يرويها عن شخصيات معروفة وليست خرافات الجدات، أنا الآن في المكتب، نتكلم لاحقا علي إكمال عملي الآن.

-بل عليك الاتصال به الآن، سأقفل الآن حبيبتي سلام.

أقفلت عليا الخط وأخرجت رقمه هذه المرة وقد شحذتها آية لتتصل، هذه من فوائد الصديقات في حياة بعضهن، فهن أجمل طريقة لإراحة الضمير، فالصديقة تفكر في كل الطرق التي تبرر بها أخطاء الأخرى، ستدفعها إلى الطريق الذي تعتقد أنه فيه سعادتها وإن كانت غير موافقة عليه، تساعدها أحيانا في الدعاء على من يحزنها، الصديقة كالساحرة في قصة سندريلا تفعل كل شيء لتجعلها أميرة وترسلها على أكمل وجه.

ضغطت على زر الاتصال وبقيت تنتظر صوته القادم من الطرف الآخر، لكنه كان صوتا مؤنثا آخر الأمر، "إن الرقم الذي طلبتموه مغلق أو خارج نطاق التغطية"...قالت لنفسها.

-ربما هذه إشارة إلهية بأن أخرجه من هذه...

وقبل أن تكمل جملتها رن هاتفها مجددا،

-ألو أعتذر لقد شفرت الاتصال، لا أريد أن أكلم أحدا اليوم، لكن بما أنك اتصلت فأظن أن الموضوع مهم، تفضلي آنسة عليا.

-آسفة على الإزعاج، وآسفة على آخر مكالمة بيننا.

-ليس مهما، نعم أسمعك ماذا هناك؟

لاحظت أنه يختصر الكلام ويلجأ إلى الرسمية التي لم تكن موجودة من قبل، فسلكتها هي أيضا.

-أردت فقط أن تفيدني بخبرتك في قضية محمد بلعربي.

-حاليا مشغول سأكمل جمع المعلومات ونحدد موعدا لمناقشتها، جيد هكذا؟

-نعم

-إذا إلى الملتقى سيدتي مع السلامة.

-مع السلامة.

كلمت آية لتخبرها بما حدث بينهما، التي أخبرتها بدورها أنه ليس لها حل آخر سوى تحمله بغروره هذا الذي أصلا هي السبب فيه، وتنتظر وقت فراغه دون نقاش.

عادت إلى أشغالها في المكتب، محاولة الهروب من التفكير بهذه القصة الغريبة التي تخللت كل فروع حياتها،

في مكان آخر كان علي يجلس وراء مكتبه، يشعر بالاستياء، لكنه كان مرتاح الكبرياء لأنه أعاد العلاقة بينهما إلى الرسمية، وخرج من دور الشاب المهتم بها، مقنعا نفسه أن اهتمامه كان للقضية وليس لعليا بحد ذاتها، وأنه عليه أن يجمع ما تحتاجه من معلومات ويقدمها إليها وينسحب، أعاد النظر إلى الملف الذي كان أمامه، لا يوجد ما يمكن إضافته، إذا بقي

أن يلتقيها ويقدمه إليها وتنتهي القصة هكذا بأقل الأحداث، فكلما كان لنا ذكريات مع شخص ما صعب نسيانه وتجاهل مروره بحياتنا.

حمل الهاتف مجددا وأرسل إليها رسالة يخبرها أنهما سيلتقيان مساء كالعادة، على السابعة أمام الشاطئ، ليصله الرد بعد ذلك ببعض الوقت "أشكر اهتمامك لكن لا أظنني أستطيع النزول إلى الشاطئ...أخاف" ابتسم وهو يقرأ آخر كلمة كان اعترافا كبيرا من فتاة تصر أنها قوية ويمكنها مواجهة كل شيء وحدها، ثم أرسل لها مرة أخرى يخبرها أنه إن لم يكن يزعجها فسيمر في آخر الدوام يلتقيها في كافتيريا قريبة من المكتب، فوافقت وشكرت بدورها تفهمه.

مر اليوم على كليهما مزدحما، ورغم ذلك بقي الموعد في عقليهما، كل وأسبابه، خرجت عليا من المكتب وقد قررت أن تنتظره بالمقهى حتى لا تضطر للاعتذار مجددا، دخلت وهي تبحث بعينيها عن طاولة فارغة مناسبة حتى لمحته في زاوية بعيدة عن النظر يغرس نظراته بهاتفه، ثم رن هاتفها، لتجد اسمه مسجلا، ردت على المكالمة بينما رفع هو نظره إلى نافذة هناك، لم تقل أي كلمة بقيت صامتة تراقبه هكذا قبل أن ينتبه إليها، كأنها أصبحت عادة لديها...حتى جاء صوته الفخم.

-أنتظرك سيدتي في الكافتيريا، أجلس على ...

-على طاولة أمام النافذة وأقف خلفك.

التفت بسرعة ليجدها مبتسمة، قام وانتصب واقفا ينتظر أن تجلس هي، ثم قعد كلاهما وكل واحد منهما يترقب ماذا سيقول الآخر، لكن الصمت ظل سيد الموقف، حتى قطعه النادل وهو يهم بأخذ طلباتهما، أخبرته أنها تريد كوبا من الشاي بينما طلب هو قهوة بدون سكر. ابتسم علي وكأنه وجد بابا يلج منه إلى الحوار.

-عادة المثقفون أمثالك يحبون احتساء القهوة كيف سرقك الشاي منها؟

-أولا لا أعلم كيف صنفتني من المثقفين وأنت لا تعرفني، ثانيا لا أحب أن أحب ما يحبه الآخرون بل ما يروق لي، وأما ثالثا فأرى أن الشاي أفضل بكثير من القهوة، سواء رائحته الزكية، أو لونه الشفاف كما يليق بالأرواح، وختاما فإن ذوقه رائع، يتلاءم بشكل منسجم مع السكر، لا تشعر بذلك الشجار بين المر والحلو.

-أما أولا فعرفته من صفحتك على الفايسبوك، أما ثانيا وثالثا فيروق لي التميز.

-لم أكن أعلم أنك تزور حسابي.

-أمر بديهي جدا في وقتنا هذا، لدينا أصدقاء مشتركون، ياسين وسماح مثلا، كنت سأضيفك لكن شعرت أنه قد يساء فهم تصرفي، لا عليك دعينا نتحدث عن الموضوع الذي يجمعنا، محمد بلعربي، هل أخبرك ما وجدته أم تقرئين الملف وحدك؟

-تفضل، أسمعك.

-محمد بلعربي ولد 05 أفريل 1997 هو من معسكر، عائلته تتكون من والديه وأخته، يعمل والده فلاحا في أرضه الخاصة، أتى إلى وهران سنة 2015 بهدف الدراسة، تخصص اقتصاد ومحاسبة بجامعة بلقايد، يقيم بالإقامة الجامعية رفقة صديق له إلياس، سنة 2018 كانت سنة تخرجه، يوم 17 مارس 2018 تقدم صديقه هذا ببلاغ عن اختفائه، وقد اخبره أنه سيذهب ليرتاح على شاطئ البحر، شاطئ كريشتل، وبعد يومين من عمليات البحث وُجِدت جثته التي تعرف عليها زميله، وبعد عملية التشريح سجل أنه توفي إثر جرعة زائدة من المخدرات وذلك قبل أربعة أيام أي 15 مارس 2018. أكد إلياس صديقه أن محمد لم تكن له هكذا تصرفات، كان رياضيا لا يدخن حتى وأنه لابد من البحث خلف الموضوع، لكن أقفلت القضية على الأدلة الموجودة، سلمت جثته إلى أهله ودفن وانتهت القصة.

-إذا هناك ما يعرفه صديقه وهو ما سيساعدني.

-مصرة أن هناك قضية عليك النبش فيها؟

- ومع قولك هذا تأكدت.

-أعانك الله.

قال ذلك وهو يحتسي قهوته بكثير من اللامبالاة، يميل بجسمه على جانبه الأيمن، يبدو كشخص سينام، أما هي فكانت تصارع نفسها هل عليها حمل الملف والانسحاب، أم عليها أن تناقشه وتستخرج من خبرته ما يمكنها

عمله، تغلب فضولها على كبريائها وقررت أن تستخلص منه كل ما يمكن من معلومات، تقدمت بجسدها إلى الطاولة، ارتكزت بمرفقيها وقالت:

-سأمضي في هذه القضية حتى آخر رمق، أتعلم أن الأرواح يمكن أن تبقى بعالمنا إلى أن تتخلص من قضاياها العالقة، وأنا قررت مساعدة محمد.

-هل تصدقين ما تقولينه؟

-هذه هي المرة الثانية التي أسمع فيها هذه الجملة اليوم، ربما أنت لن تصدق لكنني رأيته وجالسته وحتى أنني كلمته، محمد كان واضحا أنه متعب، علي الآن أن أجد طريقة لأفك رموز هذه الورطة.

-هل تريدين فكها لتتخلصي منه أم لأنه فعلا أثار شفقتك؟

كأنه عرى قليلا من جمال روحها الذي تظهره في كلامها، فالكل به شيء من الأنانية، شيء من الشر وإن حاول إخفاءه بكل الطرق، ابتسمت بخجل ثم تكلمت بشيء من الهمس.

-كلاهما

ثم أضافت وهي تسأله

-هل ستستمر في مساعدتي أم أنها المرة الأخيرة؟

-سيدتي أنا سأكون في الخدمة إن تطلب الأمر، القضايا والجرائم عملي، (عدل من جلسته وتنحنح ثم أكمل**) في إطار العمل أنا موجود دائما هذا ما أود قوله.**

حملت حقيبتها، ثم شكرته على كأس الشاي الذي لم تتذوقه حتى، واستأذنته في المغادرة فقد شعرت أنها غير مرغوب بها، أما هو فاكتفى بهز رأسه علامة على أنه لا داعي للشكر، كان بداخله إحساس مزعج يخبره أن ما فعله لم يكن لائقا، لكنه أرضى غروره بما يلزم ليسكت هذا الإحساس، بقي بعد مغادرتها يكمل قهوته ببعض من البرود المرتبط بشخصيته طبيعيا، ثم كتب لها رسالة "نسيت إخبارك أنه يوجد أرقام والده و صديقه بالملف"، قرأتها هي بكثير من الغضب، تفكر فيما اقترفته حتى يعاملها هكذا كأنها متطفلة على حياته، لم يخطر ببالها أنه يبعدها حتى لا يتعلق، خرجت من الرسائل واتصلت بآية لتفرغ الغضب الذي اجتاحها من تصرفه.

-إياك أني تحرضيني مرة أخرى للاتصال بذاك الغبي، يظن أن العالم كله رهن إشارته، لا ويذكرني بالرسمية، أتصدقين أنه يخبرني أننا نتعامل بيننا في إطار العمل، وهو يزور حتى حسابي الفيسبوكي، غبي مغرور تافه.

-هل يمكن أن أتكلم؟ لأول مرة أراك تتكلمين هكذا دون توقف، هذه عاداتي أنا، الشاب يتعامل معك باحترافية لماذا هذا الغضب إذا؟

-ليس وقت الضغط على حبي لك وتحملي لسخافتك، أين الاحترافية في الموضوع؟

-الرسمية، التحدث في إطار العمل، شخص محترم ولا يود استغلال الموقف، وهذا أمر نادر في وقتنا، له تفسيران لا ثالث لهما، أولهما واضح أنه شخص محترم، وثانيهما أنه يحب أخرى وشخص محترم مرة ثانية.

-ما دخلي أنا، يحب أخرى أو يحب عشرة، اختفي من أمامي الآن، علي إيجاد سيارة أجرى للعودة إلى البيت قبل أن يغضب عمك كمال.

-تمام، نلتقي غدا ونتكلم بالتفصيل.

من حسن حظها، تصادفت مع جار لها وقد دعاها ليوصلها، بقيت طول الطريق صامتة فقط تفكر بكلماته في لقاءهما الأول، كان كما هو مغرور متعالي، في لقاءهما الثاني، كان أكثر ودية، حتى أنه اتصل بها بعدما حدث مرات كثيرة واظهر اهتماما واضحا بها، لكنها من كانت فظة وعاملته برسمية وخشونة، وعليه فإن طريقته الآن هي طبيعية جدا كما قالت آية.

-لكن كان عليه أن يتفهم حالتي وظروفي.

-ماذا؟ عمن تتحدثين أختي عليا؟

-لا، لا عليك أكرر كلمات إحدى المتهمات أمام القاضي.

-عملكم مقدس، العدل هو بسمة الأمل لنا.

ابتسمت وضحكت داخلها، عليها أن تجد حلا لخروجها عن حديثها مع نفسها على العلن، لن تستطيع في كل مرة أن تنجو بنفسها هكذا.

-8-

أحضرت ورقة وقلما، وبدأت في تشريح قصص الكتاب الذي قدمته لها نجوى "أرواح وأشباح"، تبحث عما يمكن فعله في حالة مشابهة، تتنقل من قصة إلى أخرى تقيّد الملاحظات لتناقشها فيما بعد مع آية، وفي أثناء ذلك دخل عبدو الغرفة وهو يستأذنها في الحديث في موضوع مهم، تركت الكتاب جانبا وجلست بقربه على سريرها، كان وجهه يوحي بالكثير من الجدية والاهتمام، استجمع نفسه ثم بدأ في الحديث.

-أفكر منذ فترة كيف أخبرك بهذا، لكن أصبح ضروريا أن تعرفي.

-أعرف ماذا؟ هل تعيش الحب مثلا وتريدني أن أدعمك؟

-أظن أنك من عليه أن يعيش الحب ويتزوج، أريد غرفتك، ألا تشعرين أنك كبرت وعنست؟

حملت وسادتها وضربته بها وبعض الغضب قد ارتسم على ملامحها.

-عن أي عنوسة تتحدث أيها المختل وأنا في الخامسة والعشرين من عمري؟

-في هذا العمر كنت في حضن أمك، (ثم بدأ بالضحك ليثير حنقها أكثر)، **حقيقة أحتاج غرفتك للتخلص من علاء المجنون لكنه ليس**

الموضوع الذي أتيت لأجله، كنت قد وعدتك أن أبحث لك عن ذلك الفتى، لقد نسيت اسمه.

ارتبكت عليا وكأن الكلمات قد تاهت منها، وكأن هذا الموضوع أصبح يطاردها، ما كان ينقصها إلا عبدو، يجب عليها أن تخرج من هذا الحديث دون إثارة أي ذرة شك، وهي في الوقت نفسه لا تود أن تشرح لأخيها الآن القصة.

-أظنك أيضا نسيته، فيما تفكرين؟

-نعم نسيت القصة، انساها أنت أيضا، كانت هوسا لحظيا ليس إلا.

-متأكدة؟ لا تريدين مني أن أبحث لك عنه؟

هزت رأسها علامة الموافقة، وأخبرته أنها قد التقته مجددا وكل ما فكرت به كان خيالا ليس إلا.

-عليا، بما أن هذه القصة ليست ما يشغلك؟ لما تبدين دائما تائهة؟ كأن هما كبيرا قد استوطنك.

-كلامك هذا أم أنك جاسوس السيدة نجوى؟ لا شيء فقط أحاول أن أتأقلم مع عملي ووضعي، أحاول أن أنجح به، طمئنها أنني بخير.

ابتسمت بهدوء كأنها تحاول إثبات كلامها أنها بخير، قام عبد العلّي مغادرا الغرفة وقد اقتنع بكلامها، بوصوله إلى الباب استدار يسألها إن

كانت تريد شرب قهوة المساء معهم، انتبهت وقتها للساعة التي كانت تشير إلى الخامسة.

-كان علي الذهاب إلى آية لكن الوقت قد تأخر، إذا خرجت الآن سأعود مع منتصف الليل.

-ما الذي تتحدثين عنه؟ ستأتين أم لا؟

-قادمة، قادمة.

في مكان آخر في وهران، يجلس علي يتجول في حسابه على الفايسبوك، راوده فضوله عن نفسه لزيارة حسابها، كان يساعده أنها تشارك منشورتها مع الجمهور، فأراد أن يعرف كيف حالها من خلال منشورها الأخير، كتبت "إن التيه يزداد عمقا بالوحدة" و قد أتبعته برسمة لفتاة تغرق في دموعها، شعر أنها ليست بخير، بقي يفكر كما يفعل في كل مرة يجلس قبالة حسابها، هل يضيفها ويكلمها أم يواصل المراقبة من بعيد، ولأول مرة لم يكن تائها تماما، ضغط على زر الإضافة وهو متأكد أنها ستقبله، انتظر قليلا ولكن لم يصله ردها، فكر في سحبها مجددا لكن أمين كان قد داهمه، وضع هاتفه جانبا وقرر أن يستفسر قليلا عن الطب الشرعي ربما يستطيع فتح موضوع معها تلك الليلة.

-كيف يمكنكم تحديد عمر الجثة وسبب الوفاة؟ هل يتضح من التشريح أن سبب الوفاة جرعة زائدة من المخدرات؟

-رويدك يا علي، هاتهم سؤالا، سؤالا، طبعا يمكننا تحديد عمر الجثة وذلك عبر عدة عوامل.

ثم توقف ونظر إلى علي وسأله.

-هل تريدني أن أفصّل أم أختصر؟

-هات المهم فقط.

-طيب يا سيد علي، تشريح الجثة يكون عادة في الجرائم وهذا تعرفه، سواء يقينا أم شكا، ففي حالة هذه الأخيرة تقدم العائلة أو المعني بالموضوع بطلب تشريح الجثة إلى المحكمة والتي تدرس الموضوع هل تقبله أو لا، بداية العمل تكون معكم، وذلك بتصوير الجثة ورفع الأدلة من مكان الجريمة، نقوم بعدها بالفحص الخارجي، قد نأخذ عينة من شعر الجثة وأظافرها وعينة من كل سوائل الجسم لفحصها، تجرد الجثة من كل ما عليها لملاحظة أي جروح أو آثار على سطحها، ننظفها ونزنها، ثم توجه إلى الفحص الداخلي، وذلك بفتحها للتمكن من فحص أعضائها الداخلية للحصول على أي أدلة من صدمات أو مؤشرات أخرى على سبب الوفاة. ثم في ختام هذا نعيد تشكيل الجثة من جديد ونسجل كل ما يتعلق بها في سجل خاص.

-هذا كله لسبب الوفاة، ماذا عن وقتها؟

-نعتمد في ذلك على مؤشرات ثابتة، أولها درجة الحرارة، وهذا عادة عملكم، تسجلون وقت العثور على الجثة مع درجة حرارتها، صلابة

الجثة وهنا يتدخل تأثير تدفق الدم والأكسجين، أيضا فحص غشاء العينين ولون البشرة، خاصة المنطقة السفلية للبطن بفعل البكتيريا تصبح خضراء بعد 48 ساعة، إذا تجاوزت الجثة 4 أيام إلى 7 أيام تصبح رخامية وذلك بفعل العروق والأوردة التي تصبح قريبة من السطح، كما أنه يحدث ترسب للدم في الساعات الست الأولى أسفل الظهر أو على المكان الذي ترتكز عليه الجثة، وفي الختام نفحص الجهاز الهضمي.

-فهمت الآن، أظنني خزنت كل هذا في عقلي أحمد الله أني شديد الحفظ، وفيما يخص أن يكون سبب الوفاة جرعة زائدة من المخدرات؟ كيف تعرفون ذلك؟

-أخبرتك أننا نجمع كل سوائل الجسم، من بول، دم، وسائل الرئتين، نرسلها إلى مخبر علم السموم، حيث يقوم بفحص كل المواد التي يمكن أن تتسبب في الوفاة. أي سؤال آخر؟

-لا، هذا يكفي.

-كيف هي عليا؟

-ما دخلها الآن؟ بالمناسبة أريد أن أخبرك أن عليا مجرد محامية مبتدئة تعمل لدى ياسين، وحاليا أعمل أنا وهي على قضية مشتركة ليس إلا.

-وهذه القضية بها جثة وتشريحها، أليس كذلك؟

-كيف عرفت؟

قال علي ذلك وقد قطب جبينه في استغراب تام، فهو لا يذكر أنه اخبره بذلك سابقا.

-أسكن معك منذ سنوات، وشعارك "لا للحديث عن العمل في البيت"، حاولت كثيرا أن أشرح لك عن طبيعة عملي وكنت ترفض، أما الآن فجئت بنفسك لتستفسر عن كل هذه التفاصيل، طبعا لتبهر عليا لا أحتاج لذكاء لأعرف ذلك.

-ليس لأبهرها، فقط ل...

وقبل أن يكمل جملته، رن هاتفه ليخبره عن إشعار قبول عليا لطلب صداقته، فتح أيقونة الرسائل وهو يفكر بما يمكنه أن يحدثها الآن، لاحظ أمين تشتته، قام تاركا الغرفة بعد أن أخبره أن يسلم عليها. نظر إليه علي باستغراب مرة أخرى فهو لم يخبره أنه أضافها، مط شفتيه وهو يفكر أن صديقه أصبح مخيفا أكثر من محمد الذي يلاحق عليا، وقبل أن يعود من أفكاره وجدها قد سبقته وأرسلت هي تسأله إن كان قد تراجع عن البقاء بعيدا عن القضية، فأخبرها أن نعم وأنها قضية أثارت فضوله، كان مقتنعا من داخله أن هذا هو السبب وليس فقط يقوله لها، بينما شعرت هي بقليل من الدعم اطمئن له قلبها. انتظر أن تتكلم أكثر لكنها لم تضف شيئا آخر، ففكر قليلا ثم ابتسم وكتب لها يسألها عن اللوحات المتواجدة على صفحتها،

وقد دق الباب الصحيح، استمر الحديث حتى بقيت رسالته الأخيرة معلقة بدون قراءة أو رد.

-9-

تقف أمام باب آية توشك على دق جرسه حتى وجدته قد فتح، كانت آية تنتظرها من شرفة البيت فقد تعودت قدومها كل يوم سبت، إما لترسم أو ليتسكعا في شوارع وهران التي تنجح بطريقة سحرية في امتصاص حزن زائرها، وقد تجتمعان لمناقشة أحداثهما المهمة والغير مهمة خلال الأسبوع، وهذا كان سبب الجمعة هذه المرة، وقفت آية تنظر إلى صديقتها بكثير من الاستغراب، لم تكن تبدو عليا التي تعرفها، جمعت شعرها بشكل غير مرتب وكأنها تتخلص منه ليس إلا، لقد ظهرت لديها بعض الهالات السوداء، كما أن النوم لا يزال مقيما في جفنيها، الخمول والكسل واضحان على حركاتها، وكل هذه العلامات ما كانت يوما تبدو عليها، حتى في أصعب مراحل حياتها، تتمتع بالحماس والنشاط اللذان ينتشران في غيرها تلقائيا، فبادرتها بالسؤال.

-ما هذا الوجه يا ابنتي؟

-سأحكي لك، دعيني أرمي بجثتي على سريرك أولا.

بدأت عليا تروي ما تعيشه بكثير من التأثر، فهي لم تذق طعم النوم لليلة كاملة منذ أسبوع، تنام بعد الفجر عندما يقرر الضوء أن يزور الدنيا، أصبحت تستحم كأن أحدهم يركض خلفها، لا تقف أمام المرآة إلا نادرا، تتجنب البقاء بمفردها، هي حتى لم تزر البحر طول الفترة الماضية، تبقى شاردة طول الوقت في المكتب، إنجازاتها الوحيدة، إكمالها كتاب أرواح

وأشباح وأبحاثها الطويلة في هذا الموضوع، شعرت آية بالحزن عليها وحاولت أن تفهم الموضوع أكثر لتساعدها فقالت.

-لكن لما كل هذا؟ لماذا تخافين من شيء لا ترينه.

-الكارثة كلها في أني لا أراه، بينما هو يراني، فالحمامات والمرآة مكانهم المفضل، الليل وقتهم، البحر حيث رأيته دائما.

- مثلا الله سبحانه وتعالى يراك طول الوقت، ولو أننا نستشعر هذه المراقبة لكنا عباده المخلصين، هل تعلمين كم المخلوقات التي تراك ولا ترينها ولا تخافين منها؟ الملائكة، هناك واحد على شمالك وآخر على يمينك، ستقولين أننا نكون بخير عندما نعلم أن الله موجود والملائكة حولنا، طيب قرينك يسكنك، الجن والشياطين تراك من حيث لا ترينها، ومع كل ذلك نعيش حياتنا بشكل طبيعي ولا كأن كل هذه العيون موجودة حولنا، مشكلتك أنك رأيته وليس العكس، علمت بوجوده، في رأيي تجاوزي خوفك فهو في مرات اللقاء لم يؤذك في شيء.

-ربما معك حق، سأفكر في ذلك فيما بعد، الآن اسمعي مني ما استنتجه من الكتاب.

وشرعت تحكي لها عن أخناتون وهو أول من دعا إلى عبادة الرب الواحد، وكان ذلك الرب هو الشمس، لكن هذا الفرعون كانت له ابنة تمردت عليه، فقتلها ثم قطع يدها حتى يحرمها من دخول الجنة، فالاعتقاد القديم للفراعنة أن الجسم السليم وحده من يدخل الجنة، وقد عثر أحد علماء

الآثار الفرنسيين على هذه اليد، فقام باستحضار روح ابنة نيفرتيتي، وهذه الأخيرة سحبت يدها واختفت تماما، ولم يلمحها أحد بعد ذلك، كما أن هناك قصة لشاب يدعى هنري، قتِل واتهم بالسرقة، فكانت روحه تظهر لسيد القصر وتخبره عن مكان تواجد الجثة، الجثة التي استخرجت فيما بعد وتمت تبرئته واختفى هو أيضا. آخرون عادوا ليوفوا عهدا قطعوه وهم أحياء، كجمعية الأدباء الصامتين حتى الموت، والتي تواصلت اجتماعاتهم حتى بعد موتهم، وهذا مسجل في سجل بتوقيعهم فقط لأنهم تعاهدوا على الاجتماع أحياء كانوا أم أموات، وذاك الذي عاد ليخبر صديقته بما رآه بعد الموت لأنهما قد تعاهدا على ذلك، بعض الأرواح تعود لأنها تشفق على أحد، كفتاة زارت رساما ليجسدها على الورق وقادته إلى بيت أهلها حيث كان والدها يشرف على الموت من فقدانها، فوجد سلواه في صورتها، وغيرها الكثير من القصص. بقيت آية تركز فيما تقوله عليا بكثير من الحماس، ثم لم تتمالك نفسها وبدأت في الضحك وهي تقول.

-هل يصدق عقلك ما يقوله لسانك؟ أي أخناتون وأي هنري، واجتماعات بعد الموت، هذا الكتاب هو سبب حالتك المزرية بتصديقك له.

بلهجة حادة تكاد تكون غاضبة ردت عليا.

-القصص المذكورة هي قصص شهيرة مذكورة بتاريخها ومكانها وشخصياتها الحقيقية، ليست خيال كاتب.

-طيب، طيب وبعد كل هذا ماذا قررت؟

-قررت أن أستحضر روحه وأعرف ما يريده حتى يختفي من حياتي.

كانت آية قد أخذت شربة من كأس الشاي، ولكن لم يكتب لها الله أن تستقر بمعدتها فقد انتشرت في كل مكان بعد سماعها قرار صديقتها المجنونة، ما معنى استحضار الأرواح؟ كانت حائرة بين أن تصبح فنانة ومصممة أو محامية والآن رسا المزاد على ساحرة ومحضِّرة أرواح، سماع ذلك كان صادما، ورؤية الإصرار على وجه عليا كان صادما أكثر، سكتت آية لدقائق تفكر فيما يمكن قوله لصديقتها حتى تخلصها من هذه الفكرة التافهة، ثم استجمعت نفسها وقالت.

-عليا حبيبتي اسمعيني قليلا، عن أي استحضار أرواح تتكلمين، هذه ليست علبة حليب تحضرينها من البقال، هل تعرفين كيف تفعلين ذلك؟ هل تعلمين كم هو خطير؟ وفرضا ستفعلين، هل تعلمين أنه حرام ولا يجوز شرعا.

-بحثت عن بعض الطرق التي ستساعدني على ذلك، لم أفكر من جانب الحلال والحرام في الموضوع...

غاصت في التفكير كأن آية قد فتحت بابا آخر عليها الإلمام به، باب الدين، رغم كل الأبحاث التي قامت بها نسيت هذا الجانب من القصة، ثم ابتسمت كأنها وجدت المنفذ الذي يخرجها من هذا المأزق.

-أنت تحفظين سورة البقرة أليس كذلك؟ وتعرفين سبب تسميتها بهذا الاسم، لأن بني إسرائيل أرادوا معرفة القاتل فضربوه ببعضها، عادت روحه وأخبرتهم ما يريدون، إذا الموضوع ممكن، وأنا سأفعله.

ثم تهربت من الموضوع بسرعة قبل أن تقنعها آية بما هي مقتنعة به أصلا، تعلم جيدا أن تلك كانت معجزة لبني إسرائيل وليس مثالا يحتذى به، هل ستحول العصا إلى حية تسعى لأن سيدنا موسى عليه السلام قد فعل ذلك؟، أم نستخدم الجن لأن سيدنا سليمان قد سبق واستخدمهم، الموضوع غير منطقي والمقارنة فاشلة مسبقا، لكن في عقلها لم تجد مخرجا آخر لحالتها فتعلقت بتلك الحجة، قفزت بصديقتها إلى موضوع آخر أكثر جنونا حينما طرحت اقتراحها قائلة.

-هل أستطيع استحضاره هنا في بيتك؟

-أيتها المجنونة أنا ضد الفكرة تماما فكيف تقترحين هذا؟

-بيتنا يعج بالناس طوال اليوم، بينما أنت وحدك إلى حين عودة خالتي فاطمة، يمكننا إتمام الأمر في وقت قصير.

-صديقتي وأحبك، اسمح لك بترك أغراض رسمك هنا، بالقدوم واستعمال غرفتي كمرسم لك وقتما تشائين، تفرغين غضبك بي، نتشارك التسوق لساعات دون شراء شيء لأن ذوقك صعب، لا أتذمر أبدا، ولكن انسي هذا الموضوع تماما وجدي مكانا آخر لجنونك هذا، سيصبح بيتي

مقر الأرواح لأنك غير محترفة وبدل استدعاء محمد بلعربي ستستدعين المقبرة كلها.

ورغم أن الموضوع لم يكن يتحمل مزاحا كهذا إلا أنها طريقة آية للرفض دون إغضاب أحد، ابتسمت وهي تأمل أن تتراجع عليا عن هذه الفكرة الغريبة، ووجدت في رفضها هذا سببا لذلك، علها تنسى الموضوع إذا لم تجد أين تنفذه، لكن في الوقت نفسه قامت عليا بحمل أشياءها لتغادر مؤكدة أنها لم تغضب لكن عليها أن تجد المكان المناسب قبل أن يقبل يوم الثلاثاء. خرجت من بيت صديقتها تجر أذيال الخيبة أين يمكن أن تفعل ذلك؟ بقي مكان وحيد ولكنها لن تجرأ على زيارته وحدها، وحتى أنه المكان الأنسب فقط لو أنها تملك الجرأة والشجاعة، راحت تهيم في أفكارها عائدة إلى البيت، وبمجرد أن استقرت في غرفتها حاولت استجماع نفسها وتكليم علي بشأن مكان استحضار الروح ولكن في كل مرة كانت تفتح الرسائل في المسنجر تعيد إقفالها وهي تتخيله يرفض كما فعلت آية، وتتخيل جمله التي سيقولها ليثنيها عن هذه الفكرة، تناولت عشاءها مع العائلة وهي ساهمة في أفكارها، لاحظت نجوى كيف كانت ملعقتها تلهو بملل في صحنها، سألتها عن السبب فكان الرد نفسه دائما، متعبة من العمل ليس أكثر، كان صعبا أن تتوقع أن يفهمها الناس، صحيح قد تصدقها نجوى، لكن ستشعل نار القلق بقلبها وستجعلها دائمة الشك بخصوصها، انتظرت حتى أكمل الجميع أكلهم فقامت بجمع الصحون وانشغلت قليلا عن التفكير بالموضوع وهي تجلي الأواني.

أثناء الجلي تغوص النساء في عوالم أخرى لا تشبه التي يعشن فيها، تقول أجاثا كريستي أنها فكرت في كل حبكات قصصها البوليسية أثناء الجلي، يغنين، يرقصن، يحكن الخطط، يتخيلن حياتهن في مكان آخر، ثم يعدن إلى الواقع بوضع مئزر المطبخ جانبا، كما عادت هي إلى غرفة الجلوس، كان كل مشغول بشيء لكن اسما هم مجتمعون، كمال يتنقل بين قنوات الأخبار على التلفاز، يتذمر على حالة العرب وتخاذلهم في القضية الفلسطينية والحوثيين في اليمن، يتأسف على وضع السوريين ويبقى صامتا من الألم على المصريين، وطننا العربي ينزف من كل جانب ولا نملك لذلك حلا سوى ثورات الغضب أمام التلفاز، نجوى تغوص في أغوار كتاب جديد، عبدو مشغول بصفحته على الفايسبوك، تعليق هنا، رسالة من هناك ويمضي الوقت دون أن يشعر، علاء كعادته مع الألعاب الالكترونية سرقت عقله كله، يذكره كمال في بعض المرات أنه عليه أن يحصِّل معدلا جيدا حتى يستطيع الالتحاق بالملاكمة، فيخبره أنه قد أكمل مراجعة دروسه، تجلس عليا تراقب الجميع بعقل يسبح بعيدا في الفراغ، لا تفكر في شيء محدد، تائهة وفقط.

ينتهي هذا الاجتماع بإطفاء كمال للتلفاز، يقوم كل واحد إلى غرفته، عادة ما تكون الساعة وقتها الحادية عشر، قامت عليا هي كذلك إلى غرفتها مرغمة، فهي تعلم أنها لن تستطيع النوم، وقد استأنست بهم وتمنت لو أنهم يسهرون هكذا حتى الصباح، حاولت أن تستجمع قوتها لتكلم علي لكنها لم تستطع، فقد قالت لنفسها أن الوقت قد تأخر، وكما تفعل كل

ليلة لتشغل نفسها، تقرأ روايات، تتصفح الانترنت، تتفرج فيلما حتى إذا دقت الساعة الخامسة صباحا، غاصت في النوم مرغمة من التعب...

-10-

كاد صوت المنبه أن يوقظ كل من في البيت إلا عليا، تبدو كأنها قد دخلت في غيبوبة، ولولا تدخل نجوى لما كانت ستستفيق أبدا، جهزت نفسها وهي نصف نائمة وذهبت إلى عملها، هناك في المكتب لم يختلف الوضع كثيرا، تتصيد الفرص لتنام على المكتب، وهذه أصبحت حالتها في الفترة الأخيرة، أفاقت فزعة بعد أن رمت سماح الملف على مكتبها بقوة، نظرت إليها لتجدها تضحك على حالتها تلك.

-تمالك نفسك يا عليا وتوقفي عن السهر، إن الأستاذ ياسين لن يعجبه هذا الوضع أبدا، تعرفين ذلك، الآن هذا ملف قضية جديدة يريدك أن تهتمي به أنت بعد عملك الجيد في قضية الفتاة المغتصبة.

هزت رأسها وكأنها تستثقل الكلام، سحبت الملف إليها وهذه المرة كانت قضية قتل، فبعد نشوب شجار بين زوجين، قام الزوج بطعن زوجته بمفك للبراغي، مكتوب أن سبب الشجار كان في البداية أن الغذاء لم يرق له، ثم تطور إلى أن وصل إلى نقطة اللا رجوع.

-سماح هل قرأت هذا الملف؟

ابتسمت سماح باستياء أن نعم فعلت لتواصل عليا كلامها.

-هل تستحق بعض اللقيمات أن يصبح قاتلا؟ أنا حتى أنسى في بعض المرات أن آكل، كتب هنا أن له طفلين، أ لم يفكر فيهما، أمهما في القبر ووالدهما في السجن، أي حياة سيعيشانها الآن.

-يا حلوتي سترين قضايا تجعل شعر رأسك يشيب، تعودي أن تتعاملي معها بحيادية وإلا فستضرين نفسك، أما هذه القضية فلا أحد يعلم الوضع الصحيح ما كتب هنا هو مجموعة شهادات فقط، وما اعترف به القاتل عن نفسه، قد يكون ذنبها كبيرا، قد تكون خانته مثلا ولم يشأ أن تجرح رجولته، أن يقال غلبه الغضب ولا يقال خانته زوجته، أنا أفترض فقط من خلال ما مر علي سابقا، ولا أقول أن هذا ما حدث فعلا، أنت محقة فقط بشأن الطفلين، كان الله في عونهما.

وقبل أن تجيب عليا عن ذلك، دخل المكتب علي، كانت كأنها تراه لأول مرة، كان ببذلته الرسمية، يبدو أكثر وقارا، انتظرت أن يكلمها لكنه ألقى السلام من بعيد ثم دخل إلى مكتب ياسين مباشرة، كانت تود فتح موضوع مكان استحضار روح محمد لكنه سد الطريق لذلك، قالت لنفسها لعله خير، تكليمه من وراء شاشة سيكون أريح، وبينهما أفضل من أمام الجمع هكذا، عادت لعملها والتفكير في النوم قد استولى على عقلها حتى أنها فكرت في أخذ استراحة لنصف يوم لكنها تراجعت بعد أن تذكرت التحقيق الذي ستفتحه نجوى.

بعد ساعة خرج علي من المكتب وتوجه إليها والبسمة تعلو محياه كان يبدو سعيدا وهو ينظر إليها بينما كان رأسها يرتكز على يدها ساهمة البال.

-كيف حالك آنسة عليا؟

انتظر قليلا لكنها لم تجبه، ظلت تنظر إلى الفراغ، طرق على المكتب ليعيدها إلى وعيها، انتبهت بشيء من الفزع ما جعل علي يضحك على حالتها تلك.

-آسفة، كنت أفكر ولم ألاحظ وجودك.

-لا عليك أردت فقط أن أسأل عنك وعن حال محمد.

قال اسم هذا الأخير هامسا متبعا كلامه بغمزة كأنه يقول سرا مهما، وقد جعلها هذا التصرف ترتبك فقالت وهي تتهرب من نظراته.

-بخير، بخير شكرا على السؤال.

-هل من تطور في الموضوع؟

-هل يمكن أن نتكلم مساء؟ أريد أن أستشيرك في مسألة مهمة.

هز رأسه علامة الموافقة، وفي تلك اللحظة انضمت سماح إليهما وتحول سياق الحديث إلى زاوية أخرى، إلى أن استأذن علي أنه عليه العودة إلى عمله، ودعهما بينما سحبت سماح كرسيها بالقرب من عليا تحاول سحب الكلام ومعرفة ما الذي كانت تتكلم فيه مع المفتش، ولكن دون نتيجة تذكر، فقد حولت الحديث إلى العمل من جديد وأنستها ما كانت تسأل عنه.

أكملت عليا يومها بشق الأنفس من فرط التعب، ولم تصدق أنها وصلت بيتها لتلقي بنفسها على سريرها وتغط في نوم عميق، لم تفق إلى

ونجوى تحاول إيقاظها للعشاء، تذمرت داخلها لكنها ابتسمت وانظمت إليهم على المائدة، أخبرتها والدتها أنها من ستتكفل بجمع الأواني وغسلها فهي قد لاحظ التعب عليها، شكرتها وعادت إلى غرفتها، كانت الساعة تشير إلى التاسعة، فكرت مع نفسها أن الوقت مناسب لتتحدث مع علي، وهي تستعد لتفعل ذلك وصلت رسالته.

-المستشار علي تحت أمرك سيدتي، ماذا هناك؟

-أهلا، أتمنى أنك بخير.

-بخير الحمد لله وأتمنى أنك كذلك، ما الموضوع؟

-أنا أيضا بخير، وعملك كيف هو؟

-كل شيء على ما يرام، وبما أنك تتهربين من الموضوع أستطيع أن أتوقع أنه خطير، تخلصي من كل الضغوط وابدئي من الآخر.

سحبت نفسا عميقا وقررت أن تكتب كل شيء دفعة واحدة لتتخلص منه ومن ضغطه.

-بعد تفكير طويل قد قررت أن أستحضر روح محمد لأعرف القصة كاملة من صاحبها، أحتاج إلى مكان لأفعل ذلك، طلبت من صديقتي بيتها لكنها رفضت، وبيتي مستحيل بحكم أنه لا يفرغ من البشر.

-هل علي أن أفكر أنك تريدين بيتي؟

علي شعر بالغرابة كيف أنها فكرت في موضوع كهذا، لم يحاول أن يناقشها في استحضار الأرواح لأنه يعلم بما أنه وصلت إلى طرحه عليه فهي قد اتخذت قرارها ولا مجال للعودة، لكن وهو ينتظر أن ترد عليه كان يخمن هل سيقبل لو أنها طلبت فعلا أن تستحضره في بيته؟

-لا ليس في بيتك، أنا حتى لا أعرف ظروفك.

-شاب يقيم لوحده مع صديقه.

-بارك الله لكما في سكنكما، لكن كنت أريد أن أطلب منك أن ترافقني يوم الثلاثاء القادم إلى الشاطئ...

ضحك وهو يقرأ رسالتها، هي فعلا تخاف من الشاطئ إذا، ثم زارته فكرة جميلة، رغم الكل المحيطين بها فقد لجأت له دونهم، ورغم أنه يعلم أن ما تفعله جنون ليس إلا، لكنه قرر أن يمشي معها فيه حتى تتأكد أنها لن تجني من ذلك شيئا، رفضه لذلك سيجعلها تلجأ لغيره أو تجازف بنفسها وهذا قد يكون خطرا عليها فكتب.

-حياتي الجامدة تحتاج بعض الإثارة، نلتقي يوم الثلاثاء ونحضر الأرواح إذا...

وضعت هاتفها جانبا وصفقت فرحا أنه وافق دون جدال، وقبل أن تعيد الكلام في الموضوع وجدته قد سألها عن رواية جيدة تنصحه بها، وبدأت تقترح تلك التي تراها جيدة مع بعض الشروح عنها، ومثل المرة الماضية امتد الحديث حتى نامت دون أن تشعر...بينما انتظر ردها هو

لبعض الوقت لكنه لم يأت، شعر بقليل من الضيق فهي حتى لا تكلف نفسها في أن تخبره أنها ذاهبة، تأكد من ضبط منبهه وخلد هو الآخر إلى النوم.

استيقظ صباحا وقد وجد رسالة اعتذار منها تخبره أنها غفت دون أن تشعر، لا بل شكرته أنه قد حدّثها وجعلها تشعر تنام دون تفكير وخوف.

-وفي الأخير أصبحت منوما طبيعيا يا مفتش علي.

قال ذلك وهو يضحك على نفسه وعلى الحالة التي آل إليها.

مر اليوم على الجميع بشيء من الروتين، نجوى بين تنظيف وطبخ، كمال في مكتبه في الشركة، عبد العلّي في جامعته وعلاء في مدرسته، عليا بفضل نومها الجيد كانت تقوم بعملها بنشاط في المكتب، تنتظر يوم الغد بكل حماس، علي هو الآخر انشغل بيومه وروتينه، أمين في مشفاه وآية في كليتها، لا أحد يفكر في الآخر، كل مشغول بما بين يده، يبحث عمّا يسعده. بعضهم يرضي غروره في أن يكون رقم واحد فيما يقوم به، وبعضهم يحاول جعل اليوم ينتهي وفقط، فالروتين الحسن أفضل من الحوادث الجديدة السيئة.

في آخر الليل انتظرت عليا أن يكلمها علي لكنه لم يفعل، ولم تجد كيف تفتح الحوار معه، فطال سهرها كالعادة وهي تجول بفكرها في كل مكان، وأشرقت شمس يوم الثلاثاء على عليا كيوم مصيري في حياتها، أمضته مشغولة البال تنتظر أن تلتقي علي على الشاطئ، ظلت مشتتة الفكر

تراجع الطريقة التي اعتمدتها، حريصة كل الحرص على أن لا تغفل عن أي تفصيل صغير يجعلها تحيد عن هدفها.

على الساعة السادسة تماما كان علي يجلس على الشاطئ بعيدا عن تواجد الناس، وافته عليا إلى هناك بعد وقت قصير، انشغلت بجمع مستلزمات مهمتها، بادرها هو بالكلام

-هل أنت جاهزة؟

-تقريبا، لا أعلم مدى قدرتي على فعلها، لكن شكرا أنك هنا.

-لا عليك، فقط لدي سؤال، لماذا اخترت يوم الثلاثاء؟

-لأنه اليوم الذي خلق فيه الله المكروه، فهو في نظرهم أكثر يوم مناسب لهذه الأعمال.

هز رأسه أي أنه فهم، وبقي ينتظر أن تبدأ بعملها وكله فضول ليعرف طريقتها، هو يعلم يقينا أن ما ستفعله ما هو إلا خزعبلات لن تجدي نفعا، ولكن بعض الفضول تملكه للتجريب معها، كان بؤبؤ عينيها لا يستقر على شيء، دليلا واضحا على خوفها وقلقها، حاول تشجيعها.

-تفضلي عالمة الأرواح الشهيرة مدام صولاي، اشرحي لي ماذا ستفعلين، وسأساعدك بما أستطيع.

ثم أضاف ملاحظة على شكل مزحة بغرض تلطيف الجو.

-علينا أن نسرع، وإلا سيكون عنوان جرائد الغد بالبند العريض، "مفتش ومحامية على شاطئ كريشتل يقومان بأعمال الشعوذة".

لكنها لم تتجاوب معه، عقلها كان عالقا في مكان آخر، نظر إلى داخل الكيس الذي أحضرته معها، كان هناك شموع، قداحة، ورقة، قلم، لوحة حروف أبجدية، قارورة فارغة وشوكولاتة. استغرب قليلا ولم يفهم الرابط بين كل تلك الأشياء، حاولت أن تخبره باختصار ما ستفعله، ستلعب هي دور الوسيط الروحي، عليها أولا أن تصنع حلقة بالشموع المضاءة، عددها لا يقل عن ثلاثة كما أنه يقبل القسمة على ثلاثة، لذلك أحضرت معها تسع شموع، ستجلس متوسطة الحلقة المضاءة بوضعية تشبه تلك التي تقوم بها أثناء اليوغا، ثم سترددد بعض الكلمات التي حفظتها عن ظهر قلب "عزيزي محمد بلعربي جئت إليك بالهدايا من الحياة إلى الموت، تواصل معي وتنقل حولي، وأشعرني بوجودك"، ستنتظر أن يظهر، تستعمل في ذلك قارورة فارغة، إن تحركت فهذا دليل على أن روحه تحوم حولها، وإلا ستكرر طلب حضوره حتى يحدث ما تنتظره، الشوكولاتة هي الشيء التي أحضرته كهدية كما تقول في النداء، فلابد أن تحضر شيئا يحبه الميت، بما أنها لا تعرف ما يحبه محمد فقد اختارت الشوكولاتة فالكل يحبها عادة، أما أهم شيء في الحادثة هو أن تسمو بروحها إلى درجة عالية من الصفاء حتى تستطيع التواصل مع ذلك العالم، إن فشل بلوغها لذلك المستوى من الصفاء فكل هذه التجهيزات والكلمات ستذهب هباء منثورا، لذلك عليهم إطفاء هواتفهم أو أي جهاز قد يخرب الجو العام والخشوع، ،كانت قد جهزت أسئلة للروح، تلك التي تحتمل جوابا بنعم أو لا، سيتم ذلك

فقط عبر القارورة، ففي الحالة الأولى أي نعم، ستلف القارورة عكس دوران عقارب الساعة، وفي الحالة الثانية فتلف معها، بينما الأسئلة التي تحتاج جملا فستمرر يدها على لوح الحروف، في حالة الحرف المراد ستحرك الروح القارورة، فتسجله عليا على الورقة، وختاما يجب أن ينتظرا أن يحل الظلام، كان علي ينظر إليها باستغراب، لا يجد ما تقوله منطقيا، أكثر جنونا من الفكرة في حد ذاتها، ما معنى أن تحضر شوكولاتة لروح ميتة؟ كان يضحك داخله لكنه لم يظهر ذلك لها احتراما للحالة الغريبة التي تعيشها، ثم تمالك نفسه وقال:

- لكن كيف تنهين هذه المراسم المبجلة؟

-يكفي إطفاء الشموع ثم شكر الروح وتمني السلام لها ثم طلب مغادرتها.

-بهذه البساطة إذا تتم الأمور، جميل، مزال هناك ساعة حتى تغيب الشمس، عن ماذا سنتحدث حتى ذلك الوقت؟

بقيت تفكر هل تخبره بما يجول بخاطرها أم تتجاوز التهيؤات التي تعشش ببالها، ثم قررت أن تتكلم فهذا الشاب الجالس أمامها أصبح يشاركها ما لم تستطع مشاركته حتى مع والدتها.

-هل تعلم أنه منذ أن التقينا هنا وأخبرتني عن حقيقة محمد وأنا لا أستطيع النوم إلا في أوقات متأخرة جدا من الليل، لكن منذ يومين، يوم أضفتني وتحدثنا استطعت أن أغط في نوم عميق، ثم في الليلة التي تليها

لم نتحدث، الغريب أني لم أتمكن من النوم مجددا، يوم الأحد كلمتني فنمت، والبارحة غاب النوم بغيابك، هل تملك تفسيرا لهذا؟

-كنت قد قلتها مزاحا أنني أصبحت منوما طبيعيا، لكن بحديثك هذا أظننا انتقلنا من المزاح إلى الجد، قد أقول عن الليلة الأولى أن التعب قد أنهكك لذلك نمت لكن بتكرار الموضوع أصبحت أعتقد أني أملك قوى خارقة.

كان التفاخر واضحا من تصرفاته وطريقة كلامه، في شيء من المزح وكثير من الاستغراب، نظر إليها وابتسم بشكل طفولي ثم أخبرها أنه مستعد أن يكلمها كل ليلة حتى تنام ما دام ذلك سينفعها، شرط أن تجد هي المواضيع ليتكلما، فهو يجد صعوبة بالغة في ذلك، بحكم أنه لا يعرفها كثيرا، ففي اعتقاده تفسير ذلك أنه يشتت ذهنها عن التفكير بمحمد لذلك تنام بهدوء، شكرته مجددا وهي تشعر بالإحراج فقد أصبحت تحس أنها عبئ ثقيل عليه، لكن لا حل لها إياه.

-لست أتهرب منك لكن أخبرتني أنك تملكين صديقة مقربة، لماذا لا تكلمينها ليلا؟

-تعيش بمفردها مع أمها وتنامان سوية، لذلك هي لا تستعمل الهاتف في أوقات متأخرة من الليل حتى لا تضايقها، إن كنت سأزعجك...

وقبل أن تكمل جملتها رد هو.

-أخبرتك أنه بدافع الفضول الذي التصق بشخصيتي من مهنتي، أنا استفسر عن كل شيء، أما الحديث معك فهو جميل، يشعر المرء أن بجعبتك الكثير ليتعلمه بعيدا عن الملل.

حنت رأسها خجلا وهي تشكره للمرة التي لا تعلم عدا لها، أصبحت تفعل ذلك تلقائيا كلما تواجدت أو تحدث معه، فهو يفعل دائما ما يستحق الشكر.

قررت الشمس حمل ما لها والغروب عن الأرض تاركة مكانها للقمر، جلسا أولا يستمتعان بهذا المنظر الجميل، تشعر أن الشمس تسبح في هذا الأقينوس العظيم، هكذا بدون أن يقولا أي حرف، يقول نزار قباني أن الصمت في حرم الجمال جمال، وهو محق تماما، الصمت في تلك الحالات يمكن ان يكون واجبا، حيث أن اللغة بشساعتها وآلاف كلماتها لا تملك ما يمكن أن تصف به ما يحدث أمامك من أشياء جميلة، لكن قد تختصره نظرة، عناق، ضحكة خالتها الدموع.

بدأ الظلام في الانتشار، معلنا أن وقت بدء الطقوس قد حان، ساعدها في إشعال الشموع وترتيبها، ثم ابتعد قليلا وجلس يراقبها هي وأدواتها، كانت تبدو خاشعة، بعد مرور بعض الوقت، كانت علامات اليأس ترتسم على وجهها، فالقارورة لم تتحرك أبدا ولا حتى بنسمة الهواء، ثم فجأة ظهر الفزع يغزو محياها، أعاد علي نظراته إلى القارورة لكنها كانت على هيئتها الأولى، أراد أن يقوم إليها ويقوم بإطفاء الشموع، خاف

أنها فعلا نجحت في استحضار الروح، لكنها أشارت له بيدها أن يبقى مكانه.

ظهر محمد أخيرا.

-11-

فتحت عينيها لتجد محمد يجلس مقابلا لها، بنفس نظرته الجامدة، وشكله وثيابه، لأول مرة لاحظت أن هيئته لم تتغير أبدا، سرواله الكلاسيكي الرمادي مع قميص أسود وحذاء من نفس اللون، عدل نظارته كما يفعل دائما وقتها عادت من تيهها إليه، تحاول أن تستجمع نفسها وتنسى أنه مجرد روح، وقبل أن تتمكن من ذلك سبقها هو إلى الكلام.

-ها قد حضرتُ يا صديقتي، أظنك قد افتقدتني.

كان داخلها يرتجف، والقشعريرة قد سرت بجسدها مع نسمة هواء باردة حولها، لم تعرف بما يمكنها أن تجيبه، وجدت أنها من المستحيل أن تتعامل معه طبيعيا مثل السابق، تبخرت كل الأسئلة التي كانت قد حضرتها قبلا، كلمة صديقتي قد وترتها أكثر، تذكرت أنها كانت تجالسه قبلا بدون أدنى تحفظ، ثم وبعد عناء طويل استطاعت أن تنطق أخيرا.

-هل قُتِلَت؟

-مازال الوقت مبكرا لتعرفي ذلك، أولا عليّ إخبارك أني لن أؤذيك أبدا، إحضار حماية معك لم يكن ضروريا.

قال ذلك وهو ينظر إلى علي، كان واضحا أنّه لم يرغب في وجوده، ثم أعاد نظراته إليها وأكمل وهو يبتسم محاولا مداعبتها

-أنت شخص فاشل جدا في أمور السحر والشعوذة، أراقبك منذ نصف ساعة، تفكيرك مشتت كنت تبذلين جهدا كبيرا لجلوسك دون حركة، ثمّ ما كل هذه الشموع والشكولاتة، يا ليتني أستطيع أكلها، واضح أنك رومانسية جدا، لكن أكثر ما أثار استغرابي هو هذه القارورة والورقة والقلم ولوحة الحروف، إن كنت تعلمين أنك ستريننني لأننا التقينا سابقا، وتحدثنا كثيرا، إذا لما ستحتاجينها لتخبرك أني هنا أو لأجيبك عبرها؟

سكت قليلا وهو ينظر إليها كما لو أنه يسخر من تفكيرها، ثم أكمل

-حسنا لن أطيل أكثر، سأسهل عليك الموضوع، لاستحضاري مرة أخرى يكفي أن تذكري اسمي وأنت تقصدينني وسأكون أمامك في أي مكان تريدينه ليس فقط هنا في الشاطئ، هل تعلمين مثلا أنني كنت معك عندما حكيت قصتي لأخيك، وأنت مع صديقتك في غرفتها، مع هذا الشاب في المقهى وفي أماكن أخرى ذكرتني فيها.

-لكنني لم أرك.

-أتجنب ذلك، نظرت الرعب التي لمحتها في عينيك يوم أخبرك هذا الشاب أني قد انتقلت من عالمكم إلى عالمي الجديد، جعلتني أتجنب لقاءك، حتى أنني قد فكرت كثيرا قبل أن أظهر أمامك اليوم، لكن أعلم أنه يجب عليّ الإجابة على بعض الأمور وتوضيحها، أولها لماذا اخترتك أنت، ثانيها القضية التي كنت أريدك لأجلها، وأخيرا كيف مت.

-جميل وهذا كل ما أريده، أسمعك.

-سأجيبك على السؤال الأول فقط اليوم، أما البقية ستختارين إن كنت تفضلين أن نتواصل عبر الإشارات أم لقائي مباشرة.

هزت رأسها موافقة، كأنها تخاف معارضته، أو أنها مسلوبة الإرادة، هكذا كانت تشعر.

-عليك لقاء أختي منى، اطلبي منها دفتري الأسود هو مخبأ في خزانتها، ستعرفين لماذا اخترتك أنت دونا عن الجميع.

ثم وقبل أن تقول هي شيئا أو تسأل عن أي أمر آخر قال

-لقد تحدثت كثيرا اليوم أما الآن فيجب أن أغادر.

واختفى.

كان علي يستطيع سماع نبضات قلبها من مكانه، واضح أن معدل الأدرينالين قد ارتفع في جسمها إثر كمية التوتر التي عاشتها، حاولت أن تقوم لكنها لم تفلح وعاودت الجلوس مكانها، وافاها وقتها علي مسرعا وأطفأ كل تلك الشموع، جمعها مع كل تلك الأشياء في الكيس مجددا، ثم جلس بالقرب منها، ينظر إليها ينتظر أن تستجمع قواها وتعود إلى نفسها، قامت وقتها بفتح هاتفها حتى تتفادى أي مشكلة مع أهلها، في الوقت نفسه اتصلت آية، فتحت عليا الاتصال.

-ألو، ألو عليا أكاد أموت من القلق ما الذي حدث؟ هل استحضرته؟

-ستتوقفين أم أقفل؟

-تفضلي ها قد سكتت.

-حاليا ما زلت هنا بالشاطئ، أكلمك عندما أصل إلى البيت وأحك لك بالتفاصيل التي تريدينها.

-طيب، اتصلت خالتي نجوى وأخبرتها أنك بالشاطئ وقد انتهى شحن هاتفك ربما، بالمناسبة هل جاء علي؟ هل كان وسيما اليوم أيضا؟

ضحك علي غصبا عنه، وهنا فهمت عليا أنه يستطيع سماع كلام صديقتها المجنونة، فردت عليها بسرعة حتى تمنعها من قول أكثر من ذلك.

-آية أنا مع علي الآن أكلمك لاحقا، مع السلامة.

وقبل أن تجيبها آية كانت قد أقفلت الخط، ثم هربت من وجه علي متحرجة، إلى أن بادرها هو بالسؤال.

-هل ستعودين إلى البيت الآن؟

هزت رأسها نفيا، عليها أولا أن تهدأ ويزول عنها التوتر، فتح الكيس وأخرج الشكولاتة، قدمها إليها وهو يقول

-ها قد نفعت مشترياتك في شيء، هل ستخبرينني ما الذي حدث؟

-أخبرني أنه لاستدعائه يكفي ذكر اسمه، شعرت بخيبة أمل بعد كل ذلك التعب.

انفجر علي ضاحكا وهو يخبرها أنه كان يعلم أن كل تلك التحضيرات ما هي إلا خرافات تناقلتها الأجيال وتحضير الأرواح ليس له أساس، إن كانت ستحضر فستفعل ذلك بنفسها دون أن نطلب منها ذلك، ثم أضاف.

-وماذا أخبرك أيضا؟

-أخبرني أني لأفهم لماذا اختارني يجب أن آخذ دفتره من أخته منى.

-نجد طريقة لذلك لا تقلقي، على سيرة أنه اختارك دون غيرك هل لاحظت يوما أنك تملكين مميزات روحية إضافية؟ على فكرة عليك أن تتعودي أني أسأل كثيرا.

أغمضت عينيها وكأنها تسافر في رحلة عبر الزمن، تذكرت وفاة جدتها والتي كانت علامة فارقة في حياتها، مرت الحادثة عليها ضبابية الوجوه واضحة التفاصيل، عاد الألم ليحط رحاله في قلبها كأنها تعيشه في لحظته، فهكذا نحن البشر نعيش الفرحة، نبتسم لتذكرها مرة ثانية ثم تفقد معناها وبهجتها بعد ذلك، مجرد حدث سعيد مر بنا، أما الحزن فنعيشه في كل مرة تمر ذكراه علينا، لأن الذكريات السيئة تحرك المشاعر أكثر، ألا

يحدث أن نستمع إلى أغنية حزينة فنحزن وهي لا تعنينا، شيء كالمغناطيس بداخلنا يدفعنا لذلك.

-كنت في الحادية عشر من عمري عندما فقدت جدتي، كان وقع ذلك كبيرا علي، غرفة كبيرة في بيت جدي مليئة بالنساء، يبكين وينتحبن، بعضهن يذكرن الله، أخريات يغتبن، لا أتذكر وجه ولا واحدة منهن، تتوسط الغرفة جدتي ملفوفة بكفنها وبقربها أمي، الوحيدة التي أتذكرها، اقتربت بخطوات ثقيلة جدا، كأنني أحمل جبلا على ظهري، عندما وصلت إليها، نظرت إليها بتمعن، جدتي بيضاء جميلة، لكن وقتها كان وجهها أبيضا زيادة عن المعتاد، تبدو نائمة، أخذت في النزول رويدا رويدا إليها لتقبيلها، ثم انسحبت وهربت، تخيلت أنني حين تلامس شفتاي جبهتها ستفتح عينيها، فكرة مرعبة راودتني. هربت لبيت الجيران ولم أشاهد خروج موكب الجنازة، بعد ذلك ولا أذكر كيف أو متى أصبحت هناك عجوز ترتدي الأبيض تمشي ورائي دائما، حين ألتفت تختفي، التصقت فترة بأخي الأصغر عبدو بدعوى رعايته لكنني حقيقة كنت أحتمي به، سنة، سنتين، ثلاثة لا أتذكر كيف اختفى هذا الأمر من حياتي واستطعت الانفصال عن عبدو والعودة إلى مساري النفسي السوي، دائما فسرت الأمر أنه هلوسات بسبب آخر نظرة لجدتي، لكن عندما فتحت الموضوع الآن عاد إلي الشك أنها ربما فعلا روحها.

لم يرد علي أن يعقب ويشوش عقلها أكثر، اكتفى بتنبيهها أن الوقت تأخر وعليها العودة إلى البيت مؤكدا أن منومها الطبيعي سيكلمها بمجرد

أن يصل هو إلى البيت، ابتسمت وهزت رأسها موافقة، ابتلعت آخر قطعة من لوح الشوكولاتة وغادرت المكان بتعب واضح في خطواتها.

فتحت باب البيت لتجد كمال ينتظرها، كان سيبدأ بالمشاجرة فورا لكن وجهها كان متعبا فقرر تأجيل ذلك قليلا حتى يطمئن عليها، بينما جلست هي على أول كرسي صادفها في طريقها إلى الصالة، ثم رفعت رأسها إليه وقالت معتذرة.

-آسفة أبي، كنت متعبة قليلا من العمل، فأردت أن أرتاح على الشاطئ ولم أنتبه للوقت، لم أرد إغضابك.

-أنا لا أغضب منك، بل أخاف عليك، يجب ضبط ساعات دخولك، أصبحت شابة فإن لم تطلك الأيدي، ستطولك الألسنة.

جلس مقابلا للتلفاز كعادته، بينما جاءت نجوى لتسألها إن كانت ستتناول العشاء أم لا، أخبرتها عليا أنها لا تريد ثم انسحبت إلى غرفتها، لتكلم آية وتخبرها ما حدث، وإلا لن تستطيع هذه الأخيرة النوم من فرط الفضول والقلق، أقفلت الخط واضطجعت مغمضة العينين تحاول إدراك كل ما حدث، حتى سمعت صوت إشعار وصول رسالة، نظرت إلى هاتفها، كان علي.

-عن ماذا ستحدثينني اليوم؟

-أفكر في قوله إنه يحضر في كل مرة أذكر اسمه، أي أنه لن يفارقني بعد اليوم، أشعر بخوف أكبر.

يعلم علي أنها محقة في خوفها لكنه أراد أن يجعل الأمر بسيطا، حتى تستطيع تجاوز هذا الموضوع بأقل الضرر، فكتب رسالة مقابلة.

-الحل سهل، لن تذكري اسمه مجددا.

-كيف لا أفعل وهو يشغل كل جزء من حياتي؟

-إذا جدي له اسما بديلا، شيئا ككلمة السر.

-فكرة جيدة فعلا.

بقيت تفكر فيما يمكن أنه تجعله اسما له، هل تستمر بمناداته فتى البحر؟ أم تجد اسما آخر، حتى وصلت رسالة أخرى من علي.

-أسميه روح، فهي صفته الآن.

-سيكون مرعبا لو قلتها أمام غيرنا.

فكرت قليلا ثم أضافت.

-espiritu

-نوع من القهوة هذه؟

-لا، اسبيريتو، معناه الروح لكن باللغة الاسبانية. وبما أنك اعتبرتها نوعا من القهوة فهي لن تثير استغراب أحد.

-اسبانية؟ لديك العربية، الفرنسية، الإنجليزية والأمازيغية وتعبثين بالإسبانية.

-شيء في يربطني بالإسبان.

-لم ألاحظ قبلا لكنك فعلا تشبيهين الغجريات، والآن أجد الكثير من الروابط، شعرك المموج، روحك الحرة، عشقك للألوان في ثيابك ولوحاتك، إكسسواراتك الكثيرة.

-ملاحظة توجه لي لأول مرة.

-إسبانيا من أكبر البلدان التي تحتوي على الغجر كما تعلمين، إذا وجدنا موضوع اليوم، علاقتك وحبك للإسبان أيتها الغجرية.

-لدي الكثير لأقوله، هل أنت جاهز؟

-تفضلي الليل طويل.

-سأرسلها عبر الرسائل الصوتية إذا.

-بدأت برحلة مدرسية إلى سانتا كروز في جبل هيدور أو مرجاجو كما شاعت تسميته، بهرت بهذا المعلم الأثري الذي عرفت من المعلمة أنه إرث اسباني منذ القرن السادس عشر، بحثت عن الموضوع أكثر لأكتشف أننا والاسبان عائلة واحدة نتوارث فيما بيننا، نحن العرب المسلمون أسسنا الأندلس، ثم هؤلاء الأندلسيون أسسوا وهران، وحين فروا إليها بسقوط إمارتهم، تبعتهم الجيوش الإسبانية واحتلوا وهران

والمرسى الكبير، وأخيرا نحن نهجر إليهم الآن عبر قوارب الموت، أتذكر هنا قول نزار قباني في قصيدته "غرناطة" حينما التقى بدليلة سياحية إسبانية بقلعة الحمراء.

قَالَتْ: هُنَا (الحَمْرَاءُ) زَهْوُ جُدُودِنَا
فَاقْرَأ عَلَى جُدْرَانِهَا أَمْجَادِي
أَمْجَادُهَا؟ وَمَسَحْتُ جُرْحَا نَازِفًا
وَمَسَحْتُ جُرْحًا ثَانِيًا بِفُؤَادِي
يَا لَيْتَ وَارِثَتِي الجَمِيلَةَ أَدْرَكَتْ
أَنَّ الذِينَ عَنَتْهُمُ أَجْدَادِي...
عَانَقْتُ فِيهَا عِنْدَمَا وَدَعْتُهَا
رَجُلًا يُسَمَّى (طَارِقَ بْنَ زِيَادِ).
في حقيقة الأمر أنا مولعة بالحضارة الأندلسية وليس الاسبانية، بموشحاتهم ك "جادك الغيث" "شمس العشية" "حنينايا" "أيها الساقي" وغيرها الكثير، وأيضا فن العمارة لديهم، الأرابيسك الذي يزين المساجد والقصور الأثرية ولأني أعشق الرسم والفن كنت أنتشي حد الثمالة بموروثهم، وكل ما يمت لهم بصلة، وأستشهد مرة أخرى هنا ب "غرناطة" حينما قال نزار:

وَمَشَيْتُ مِثْلَ الطِفْلِ خَلْفَ دَلِيلَتِي
وَوَرَائِي التَّارِيخُ كَوْمُ رَمَادِ
الزَخْرَفَاتُ، أَكَادُ أَسْمَعُ صَوْتُهَا

وَالزَرْكَشَاتُ، عَلَى السُقُوفِ تُنَادِي

من جهة أخرى، أُكِّن اشمئزازا باطنيا للإسبان، فقد جعل هؤلاء مدينتي الجميلة وهران فارغة على عروشها في يوم واحد أثناء الحروب الصليبية، وكان ذلك في 17 ماي 1509، حيث قتلوا أربعة آلاف شهيد وأسروا ضعف هذا العدد، وفر البقية من المدينة، ليقف الكاردينال غونزالو سيسنيروز في آخر اليوم ويقول "هذه أجمل مدينة في العالم".

-لم أتخيل أنه حب قديم عميق هكذا.

-عندما أحب شيئا أتغلغل به، ليس هذا فقط، فأجمل شواطئ وهران اسمه الأندلسيات، أشهر معالمها الأثرية سانتا كروز، حتى طبقها الشعبي الشهي كارانتيكا أخذناه منهم، كليانتي كما سماها الاسبان والتي تعني الساخن أو الحامي كما يسميها الوهرانيون القدامى، فقد حوصرت الجيوش الاسبانية في حصن سانتا كروز وعندما طال ذلك نفذت المؤونة ولم يجدوا إلا دقيق الحمص والماء والملح فكانت تلك الأكلة التي يحبها الجزائريون في كل مكان اليوم، حلبة مصارعة الثيران الوحيدة بالجزائر "لاكوريدا" متواجدة هنا بوهران في حي يحمل اسم الطورو (الثور)، وهذه الأخيرة لم يتم بناءها إبان الاستعمار الاسباني ولكن الفرنسي نزولا عند طلب الجالية الاسبانية الكبيرة التي بقيت تسكن هذه المدينة، والكثير من كلماتنا الدارجة تعود إليهم، البراكة (كوخ)، فالطة (نقص)، فيشطة (حفل)، ميزيرية (بؤس)، روينة (خراب)، سمانة (أسبوع)، سربيتة

(منديل)، طاسة (كوب أو وعاء) وغيرها الكثير، لا أخفيك سرا أشعر بالانتماء وليس الحب فقط.

-أثرتي فضولي وشهيتي لأعرف أكثر، وكأن ابن خلدون قد خرج من بين ضلوعك.

-هل تعرف زرياب؟

-الموسيقي الأندلسي والإسباني؟

-لا كان عربيا من بلاد الرافدين، واسمه الحقيقي أبو الحسن علي بن نافع الموصلي، لقب بزرياب لعذوبة صوته وفصاحة لسانه ولأنه كان ذا لون بشرة قاتم، فالزرياب هو طائر أسود حسن الصوت يقال له الشحرور أيضا، هذا الشخص لوحده كان من أهم حركات الوصل بين الحضارة الإسلامية الشرقية والأندلسية، فقد حمل الأولى بين جنباته بفنها وأقمشتها وموسيقاها ونشرها بالثانية، كان أول من أسس معهدا للموسيقى بقرطبة، وهو أول من وضع قوانين فن الذوق أو الايتيكيت كما يعرف الآن، وعلّم الأوربيين أن الوجبة تنقسم إلى حساء وطبق رئيسي ثم يختم بالفواكه أو المكسرات، حتى أنه قد علمهم صنوف طعام لم يكونوا قد سمعوا بها قبلا، وبما أنني مولعة بالموشحات فهذا الزرياب هو من اخترعها ووضع النوبات، وأضاف للعود وترا خامسا بعد أن كانت أربعة، وتلاوة الشعر قبل البدء في النقر على الآلات، تدين أوروبا عامة واسبانيا خاصة وأنا بصفة أكثر خصوصية لهذا الرجل بالكثير من الجمال

الذي تلمحه عيني، وبحبي الكبير للأندلس، والأكثر من ذلك تعلمت منه أن الفن يمكنه إسعاد البشر، يمكنه تغيير حياة، يمكنه نقل حضارة كاملة إلى أجيال أخرى، لذلك أردت أن أصبح رسامة.

كان يستمع إلى الرسائل التي تلقيها كأنها سلسلة غير منقطعة، كأنها في محاضرة عن الحضارة الإسلامية، كان يستمع إليها مرتين حتى يستطيع تذكر ما قالته، أخذ وقته في التفكير، وتفهم عشقها للرسم واسبانيا، يفكر كيف لكلمة واحدة أن تجعله يبحر في محيط تاريخي هكذا، بدآ باسبيريتو وانتهيا بزرياب، ثم تدارك نفسه وكتب.

-كنت أعرف فقط أنه موسيقي واتضح أنه بحر واسع، هل فكرت في زيارة اسبانيا؟

لكنها كانت قد سافرت إلى دنيا الأحلام، فيها كان زرياب يجلس في قاعة فاخرة بعباءته، يسدل الطيلسان المطوي بعناية على كتفه الأيسر، تقابله هي بفستان ملكي تتمايل الجواري حولهم يتراقصن على عزفه، يحمل عوده ويغني لها رائعة لسان الدين ابن الخطيب "جادك الغيث".

فِي لَيَالٍ كَتَمَتَ سِرَ الهَوَى بِالدُجَى لَوْلَا شُمُوسُ الغُرَرِ

مَالَ نَجْمُ الكَأْسِ فِيهِ وَهَوَى مُسْتَقِيمَ السَيْرِ سَعْدَ الأَثَرِ

حِينَ لَذَّ النَوْمُ شَيْئًا أَوْ كَمَا هَجَمَ الصُبْحُ هُجُومَ الحَرَسِ

غَارَتِ الشُهْبُ بِنَا أَوْ رُبَمَا أَثَرَتْ فِينَا عُيُونُ النَرْجِسِ

وصولا إلى قوله

أَحْوَرُ المُقْلَةِ مَعْسُولَ اللَمَى جَالَ فِي النَفْسِ مَجَالَ النَفَسِ

سَدَدَ السَهْمَ فَأَصْمَى إِذَ رَمَى بِفُؤَادِي نُبْلَهُ المُفْتَرِسِ

إِنْ يَكُنْ جَارَ وَخَابَ الأَمَلُ فَفُؤَادُ الصَبِّ بِالشَوْقِ يَذُوبْ

فَهُوَ لِلنَفْسِ حَبِيبٌ أَوَلٌ لَيْسَ فِي الحُبِ لِمَحْبُوبٍ ذُنُوبْ

-12-

استفاق علي على صوت المنبه، اعتدل قليلا في سريره، وراح يتفقد حسابه على الفايسبوك، كما هي عادته كل صباح قبل أن يقوم من فراشه، وجد هناك رسالة صوتية أخرى من عليا ترد فيها على سؤاله الأخير.

-طبعا أفكر في ذلك، التجول في شوارع قرطبة والمرور على كاتدرائية جامعها الذي بناه عبد الرحمان الداخل، النوم تحت أشجار حديقته، مولعة بقصر الحمراء في غرناطة والجلوس أمام نافورة الأسود، ثمّ أمر للاستلقاء في جنة العريف، لا أنسى قصر الجعفرية في سرقسطة بأبراجه الدائرية المرتفعة جدا كأحلامي، أيضا أفكر في زيارة مسجد المنستر لا ريال لأنه تقريبا المسجد الوحيد الذي حافظ على بنيته الأصلية، سأسافر عبر الزمن بين جدرانه، جدران هذه المعالم هي أهم ما فيها، كمية النقوش والرسومات الإسلامية، الأرابيسك، كلها تجعلني في حالة من السكر لا أصحو منها بطلوع شمس اليوم الآخر، ولكن حاليا علي أن أفكر كيف أزور معسكر...

ضحك على آخر ما قاله، يوما بعد يوم هو يتأكد أنها مجنونة، لكنه قد أُعجب بإلمامها بكل تفاصيل ما تحبه، فكر لوهلة أن الرجل الذي ستحبه هذه الفتاة كم سيكون محظوظا، ستحبه من جذوره، منذ أن كان فكرة في عقل والديه، لربما منذ أن فكر أبوه في خطبة أمه، لو أنها حكت له هكذا لأحب هو الحياة برمتها لأجلها، ثم كتب مجددا.

-اتصلي بوالده أولا، رقمه مسجل في الملف والعنوان أيضا.

في تلك الأثناء كانت عليا في طريقها إلى المكتب ساهمة تحاول ترتيب أفكارها، أغمضت عينيها وهي تتخيل عقلها عبارة عن غرفة تضم الكثير من الخزانات بالأدراج، في وسطها فوضى من الأفكار والذكريات، حملت تلك المتعلقة بمحمد كلها وفتحت درجا ورمتها بداخله ثم أقفلت عليها بالمفتاح، ثم لمحت هناك الأفكار المتعلقة بالمكتب والعمل وكل تلك القضايا، وضعتها في درج قريب دون إقفاله فهي تحتاجها، لديها أيضا المشاكل العائلية، ضغط كمال الدائم، صمت نجوى رغم تألمها، عبدو ومحاولة إظهاره أنه كبير، علاء المجنون فرحة البيت، قامت بفرزها، وضعت المشاكل بعيدا وتركت كل ما هو جميل مبعثرا حتى يمر على عقلها أحيانا فتبتسم، كان يوجد أيضا الرسم، آية، ثم لمحت هناك كومة من الذكريات الوردية الجميلة، اقتربت منها، وجدتها تحمل علي في طياتها، بقيت تفكر هل تخزنها هي الأخرى بعيدا لأنها تذكرت أن كل جميل اليوم هو ألم الغد، أم تدعها هكذا تسير على هواها...في تلك الأثناء وصلت إلى المكتب، دخلت والبسمة تملأ فمها وعيناها، ألقت التحية على سماح التي أبدت ملاحظتها أن عليا قد عادت لنشاطها السابق، فأخبرتها هذه الأخيرة أنها قد أخذت بنصيحتها وتوقفت عن السهر.

ظلت تعمل وعيونها معلقة على الساعة تنتظر حلول الساعة العاشرة حتى تستطيع الاتصال بوالد محمد، وخلال ذلك كانت تدور في دوامة من الأسئلة، تفكر فيما ستقوله له وكيف يمكن أن تطلب دفتر ابنه،

وكيف ستقول اسم محمد دون أن يحضر؟ كيف ستنجح في كل هذا دون أن تشعرهم بالقصة الحقيقية، دون أن يعلموا أنها تلتقي روحه، تفسير ذلك سيكون أصعب من النجاح في القضية.

بمجرد أن دقت الساعة العاشرة، حملت هاتفها واتصلت مقررة أن تترك الأمور تسير على ما كتبه الله لها.

-ألو صباح الخير عمي هواري.

-صباح الخير ابنتي.

-أتمنى أنك بخير؟

-نحمد الله على كل حال، من معي؟

-أنا...أنا...أنا صديقة منى، ضاع رقمها مني وأريد التحدث معها، كانت قد كلمتني يوما برقمك، هل هي معك؟

-لا، أنا بالحقل الآن، حالما أعود سأخبرها أن تتصل بك.

-شكرا عمي يوما موفق.

-لكن من أقول لها؟

وفور سماعها للجملة الأخيرة، أقفلت، لأنه إن عرفت منى اسمها ستدرك أنها ليست صديقتها، وستفشل في الوصول إليها.

هناك في معسكر كانت خديجة تشغل نفسها بأعمال البيت، تلك السيدة التي كانت قبل سنة من الآن عنوانا للتفاؤل والسعادة والرضا، ذات وجه دائري أبيض، به عيون سوداء واسعة، امرأة في الخمسينات من عمرها لكن تبدو أقل من عمرها بكثير، كان هذا قبل سنة، أما الناظر إليها الآن سيشعر أنها شاخت في مبكرا، تسرح بأفكارها كثيرا، تدمع أعينها فجأة عندما تتذكر ابنها محمد، في إحدى غرف البيت نفسه كانت تجلس منى، ولأن لا شيء لتفعله تشغل نفسها بالطرز، تحمل الإطار وتجسد تلك الوردة على قماشها الأبيض، كانت تتفنن في الرسومات، تجسد أحلامها هناك، في أقمشة تصبح صورا تعلقها فيما بعد على الجدران، تلحظ الذوق والموهبة في عملها، كما تلمح الحزن في الألوان التي تختارها، كلها قاتمة... ظلت منكبة على عملها حتى سمعت صوت هواري ينادي عليها من باب البيت، عندما وصلت إليه أخبرها بما حدث مع عليا وترك لها رقم الهاتف، ثم طلب منها أن تحضر له الماء فعليه العودة إلى الحقل.

ظلت منى تفكر من هي صديقتها هذه، فهي تقريبا قد قطعت كل علاقاتها بعد ما حدث قبل سنة...فكرت قليلا ثم قررت أن تتصل وتعرف مباشرة بدل جلسة التخمين هذه، جاء الرد سريعا من عليا، حتى أنها شكت أنه قد رن حتى.

-ألو...

-ألو، أنا منى كنت قد اتصلتِ بوالدي قبل قليل.

-آه منى، كيف حالك؟

-بخير الحمد لله، لكنني لم أتعرف على صوتك مع أنك أخبرت والدي أنك صديقتي.

-أنا لا أعرفك مباشرة ولكن عن طريق أخيك.

سماع آخر كلمة جعل منى تتجمد في مكانها، لم تعرف بما يمكن أن ترد عليها، موضوع أخيها قد أُقْفِل ومنعوا من ذكره في البيت، فكرت لوهلة أن تقفل الخط، ولكن شيئا من الفضول دفعها لتسمع تتمة الكلام.

-ألو؟ منى هل تسمعينني؟

-نعم، نعم أكملي ما تريدين قوله.

-أخوك كان قد أخبرني عنك، أخبرني أنه ترك دفترا أسودا، يجب أن أحصل عليه الآن.

-أخي؟ الآن تذكرتي أخي؟ أظنه أخطأ في الاختيار، آسفة لا شيء لدي لأقدمه لك ولا لغيرك.

وقبل أن ترد عليا كانت منى قد أقفلت الخط، شعرت بانقباض مفاجئ في قلبها، فتح هذا الاتصال الباب للهم أن يستولي على تفكيرها، قامت بتثاقل تبحث بين ثيابها في الخزانة، حتى وجدته، كانت مذكرة عادية، حضنتها وعادت لجلستها.

-آه يا محمد، آه يا أخي الحبيب ماذا حلّ بنا من بعدك، أتعلم لقد اتصلت، بعد سنة اتصلت تريدك، أظنها لا تستحق أن تعرف شيئا، أ بعد كل هذا الوقت تذكرت أن تبحث عنك؟ لابد أنك أسأت الاختيار، هي حتى لم تذكر اسمك بل قالت أخوك...كأنها غريبة عنك.

ظلت كذلك تتحدث مع الدفتر كأنما تحدث أخاها، حتى دخلت خديجة الغرفة، وقتها سكتت منى بسرعة لا تريد لشريط الذكرى أن يحط الرحال مجددا على أمها، حاولت أن تبتسم كأن لا شيء قد حدث، حتى بادرتها خديجة بالكلام.

-من صديقتك التي تحدث عنها هواري؟

-من أيام الدراسة، تذكرتني فقط أرادت أن تسأل عن أحوالي.

-لو أنك قمت بدعوتها إلى هنا، حتى أنني يمكن أن أحضر لكن المسمن.

ابتسمت ابتسامة باهتة خالية من أين شعور بالفرح، هزت منى رأسها نفيا، وأخبرتها أنها لا تستطيع القدوم فهي الآن تدرس بولاية أخرى، ثم لاحظت أن أمها قد شردت وهي تنظر إلى الدفتر في يدها، وضعته جانبا سريعا ثم قالت.

-شعرت ببعض الحنين للدراسة بعدما تحدثت معها فأحضرت أحد دفاتري...

وغيرت الموضوع وهي تسألها عن ماذا حضرت للغداء وقامت معها إلى المطبخ لتساعدها فيما بقي من أعمال منزلية.

شعرت عليا بالاستياء، وضعت رأسها بين يدها علها تجد طريقة أخرى لتصل إلى ذلك الدفتر، في نفس الوقت رن هاتفها، كان آية هي المتصلة.

-في وقتك تماما، أنا الآن ورطة.

طالت المحادثة ولا حل لاح في الأفق سوى معاودة الاتصال مرة أخرى، أو إرسال الرسائل باستمرار حتى تستطيع إقناعها، وفي أسوأ الأحوال أن تسافر إليها لتقنعها وجها لوجه، فهي تملك العنوان.

أقفلت الخط، ثم قررت أن تكتب رسالة تشرح فيها قدر الإمكان الوضع لمنى.

"لا أعلم لما غضبت مني، لكن أظن أن ما في ذلك الدفتر يخصني، وأخوك رحمه الله أرادني أن أحصل عليه، سأقرؤه ثم أعيده لك، لا أفكر في الاستيلاء على ذكريات أخيك، ليكن في علمك أنني لن أتركك وشأنك حتى تسمحي لي بالحصول عليه، إن طال عنادك قد أكون مزعجة، أرجو أن تصل موافقتك قريبا"

قرأت منى الرسالة، ثم مسحتها مباشرة، لم تكن تريد أن تفكر في الموضوع حتى، ثم عادت إلى الأواني التي كانت تغسلها، لا تنوي على منح الدفتر لها.

بينما انتظرت عليا الرد، ذلك الرد الذي لم يصل أبدا، فكرت في معاودة الاتصال، أو إرسال رسالة أخرى، لكنها تراجعت وقررت أن تترك لها بعض الوقت للتفكير.

-13-

تجلس عليا تمسك بهاتفها، تنتظر أن يراسلها علي، تحاول أن تتمالك نفسها حتى لا تفعل هي، بدأت تشعر أنها تخنقه بوجودها، أرادت له أن يختار أن يكلمها بإرادته لا مرغما هذه المرة، تشغل نفسها بالتجول بين حسابات الفايسبوك، رغم أنه لا يقدم جديدا يذكر، أصبحت تزوره لأنها تمل من الواقع، وتتركه لأنها تمل فيه أكثر، نفس المواضيع، نفس الشائعات، حتى وصلت الرسالة التي انتظرتها وانتشلتها من ضياعها بين المنشورات.

-كيف حال الغجرية؟

-بخير، مشغولة البال بدفتر اسبيريتو فقط وأنت.

-مشغولة البال بي؟ جميل.

شعرت بالإحراج لما فهمه من رسالتها فقد نسيت أن تفصل بين الجملتين ووضع علامة استفهام آخرها فبدت جملة واحدة، وقبل أن توضح له ما قصدته أرسل مرة أخرى.

-أمزح، أنا مع روتيني الجميل، ماذا فعلت من أجل دفتر اسبيريتو؟

حكت له بالمختصر ما حدث مع منى، وفشلها في الوصول إلى منطقة وسط للتفاهم معها، كان الإحباط يغلف كلماتها، شعر هو بذلك، فحاول أن يبسط الموضوع ويجد الحل لأجلها كما يفعل دائما.

-ماذا لديك يوم السبت؟

-يوم زيارة آية صديقتي.

-حلت إذا، الهواتف لا تقدم شيئا، نذهب سويا إلى منى ونقنعها.

-أنا وأنت؟ إلى معسكر؟

-أولا يا سيدتي معسكر تبعد عن وهران حوالي الساعة أو أكثر قليلا، ثانيا أنا مفتش، يستنجد الناس بي لحمايتهم لا داعي للخوف مني، ثالثا وهو الأهم، الحصول على هذا الدفتر.

-أفكر وأخبرك...

-دعينا من هذا الآن، كلميني قليلا عن صديقتك آية، أشعر أنها مميزة من حديثك عنها.

شعرت بمغص مفاجئ لم تعرف له سببا، استغربت هذا الاهتمام بصديقتها فجأة، لاحظ هو أنها قرأت الرسالة لكنها لم تجب.

-أحاول أن أجد موضوعا تحبينه للحديث من جهة، ومن جهة أخرى أحببت كلامك عما تحبين، هذا فقط.

ابتسمت أنه حتى وإن لم يرها فقد فهم اضطرابها، غطت وجهها بيديها وهي تضحك خجلة من نفسها عن تفكيرها الغريب ثم كتبت.

-آية أقرب شخص لي بعد أمي، تعرفت عليها في نادي ثقافي يهتم بالمواهب نجتمع به مرة كل أسبوع لمناقشة الكتب وأعمال بعضنا، عرفت أنها تدرس الفنون الجميلة، فتقربت منها لأستفيد مما تعرفه في هذا المجال، وأغذي حلمي في أن أدرسه عبرها، اكتشفت مع الوقت أنها شخص رائع، شخص أضاف لحياتي كل جميل، كانت تقدم لي كل دروسها وحتى أنها تشرحها لي، ولأن والدي كان رافضا لفكرة أن أصبح رسامة، لم أجد غيرها، أتصدق أن لي ركنا خاصا في غرفتها، فيه كل رسوماتي وأدواتي، وكأنه مرسمي، تحفظ القرآن كاملا، تتقن الطبخ بحكم أنها تبقى وحدها بالبيت كثيرا بسبب عمل خالتي فاطمة، أمها، مرحة تعرف كيف تضحكني في أكثر الأوقات حزنا، تفعل ما يناسبها وإن لم يكن يروق لغيرها، فمثلا ترتدي الحجاب الشرعي وهذا غريب وسط كليتها، تستطيع أن تقول أنها مثالية في نظري، رغم أنها كثيرة الكلام ومتسرعة نوعا ما، لكنني أجد بها ملجأ عندما تخنقني الحياة، ومن يفرح معي بصدق عندما تضحك لي.

-ممتاز، إذا تستطيع أن تكون زوجة جيدة، تبقى مشكلة الشكل، يحلها اللقاء.

-زواج؟ زواج من بمن؟

-دعينا من ذلك، عندما أرتب كل شيء أخبرك.

تذكرت يوم رسمته، كيف أن آية أعجبت به، شعرت بنفس المغص مرة أخرى، غضبت كثيرا منه حتى أنها لم تدرك لماذا، في النهاية هو ليس من بقية ممتلكاتها حتى تختار له زوجته، أغمضت عيناها قليلا، تخيلته بالبذلة السوداء وأمامه آية بالثوب الأبيض، رأت نفسها في الركن تنظر إليهما في عرس كبير، هزت رأسها لتطرد الصورة من رأسها، عادت لتقرأ ما كتب مجددا.

-ألم تفكري في ارتداء الحجاب؟

-الحجاب؟ بلى...كنت في الثامنة من عمري.

-جميل إذا لدينا قصة اليوم أيضا، كلي عيون تقرأ تفضلي.

-نعم هناك قصة، كنت في الثامنة، أرتاد الجامع من أجل حفظ القرآن، كان يطلب منا الشيخ أن نلبس الخمار، نضعه عند دخول المسجد، ننزعه عند الخروج ، كنت أشعر بالغرابة فسألت أمي عن ذلك، فقالت أن المسجد هو بيت الله، ونحن نلبسه احتراما له، سألت مرة أخرى هل الله موجود في المساجد فقط؟ قالت لا، الله في كل مكان، وقتها خالجني إحساس كأنني أنافق الله، أعترف بوجوده في المسجد وأنكره خارجه، ذهبت إلى والدي وطلبت منه أن ألبس الحجاب دائما، وقتها أخبرني أن الحجاب ليس مجرد قطعة قماش نضعها على الرأس، الحجاب

سلوك، وقار، ضحكة مؤدبة، جسم لا يتمايل، الحجاب عفة، وأنت ما زلت طفلة، عندما تجدين نفسك أهلا له ستلبسينه لوحدك، اقتنعت بحديثه وتنازلت عن ارتدائه ووجدت حلا للمشكلة وتخلصت من الخمار وقتها، ثم لم أفتح الموضوع مجددا حتى مع نفسي.

-تخلصت من الخمار؟ كيف؟

-ببساطة مثلت أنني قد مرضت بعد نزع الخمار، لأنني كنت قد تعرقت داخل المسجد، ظللت أتظاهر بالسعال ليلة كاملة، في الغد ذهب أبي إلى الشيخ أخبره أنني قد مرضت من وضع الخمار ونزعه فالمسجد ساخن بينما الخارج بارد، وبصعوبة بالغة وافق ألا أرتديه.

-مجنونة من صغرك، لكنها حركة تنم عن ذكاء بالغ، وبالمناسبة ما قاله والدك صحيح بخصوص الحجاب، لكن كان ذلك وأنت في الثامنة، أما وأنت في الخامسة والعشرين الموضوع مختلف، الحجاب الآن فرض عليك لا تملكين الخيار في وضعه أم لا، لست هنا لأفرض عليك شيئا من نفسي، لكن فقط أناقشك بما يقوله الدين.

-وماذا يقول الدين؟

في حقيقة الأمر كانت تعلم ما يقوله الدين، لكن أرادت ما سيقوله هو، الموضوع كان مفتوحا داخلها وكأنه فقط انتظر من ينبش فيه، بعض القرارات داخلنا تقف على الحافة، تنتظر فقط دفعة جيدة نقتنع بها لنغوص

في الهاوية برمتنا، ربما كانت تبحث فيما سيقوله عن هذه الدفعة، وقتها وصلت رسالته.

-سأستعمل طريقتك وأرسل رسائل صوتية، جهزي سماعتك، ولنتفق سأقول كل ما يجول في خاطري عن الموضوع ولا تعتبريه شخصيا وتغضبي.

-طيب تفضل.

-دعينا نتفق من الأول أن النظرة إلى الحجاب لم تعد دينية تماما، الغرب مثلا يراه مظهرا من مظاهر الإرهاب مثله مثل اللحية، رغم أن الأتراك منذ فترة قد جعلوا من هذه الأخيرة موضة تبعها الجميع ولم يكن في الموضوع أي إشكال، وترتدي الراهبات لباسا ليس بعيدا كثيرا عن الحجاب لكنهن رمز للحب والطمأنينة، وهذا أمر يزعجني كثيرا وأردت فقط قوله، أتفهمه لأنهم غرب غرباء عن ثقافتنا، لكن أغضب عندما أنظر للموضوع من وجهة نظرنا، فبالنسبة لنا الإسلام وكل مظاهره أصبح مجرد موروث ثقافي، نصلي ونصوم ونلبس نساءنا الحجاب، ورجالنا الأقمصة لأنهم وجدوا أباءهم كذلك يفعلون، دون أي قناعة أو عقيدة صحيحة كما فعل عبدة الأصنام قديما، لذلك عندما تلتفتين حولك اليوم تجدين ارتفاعا ملاحظا بين صفوف الملحدين مثلا.

-ما علاقة هذا بما كنا نتكلم فيه؟

-كل العلاقة، أنت مثلا فرضوا عليك ارتداءه في الثامنة دون أي شرح أو تمهيد، والكثيرات فعلن معهن ذلك، لا أذكر أن هناك درسا مخصصا للحجاب طوال سنوات دراستنا؟ كأنه أمر بديهي، لذلك نجد أن الحجاب في أوطاننا ليس كما وجب أن يكون، لو سألتهن ما شروط الحجاب، ليس كلهن سيحسن الإجابة، أغلبهن وضعنه لأن والدتها، خالتها، أختها، عمتها تلبسه، بعضهن لأنها لا تجد الوقت لتصفيف شعرها، وفي أول فرصة تصففه، تضع صورها بدون حجاب هنا وهناك في مواقع التواصل، والبعض منهن تراه غطاء لخطاياها، تبدو به تلك الفتاة التقية، وليس خطأها بل خطأ المجتمع الذي يحكم على البنت من شكلها، صاحبة الجلباب تملك مفتاح الجنة بينما المتبرجة تقف على باب جهنم، متناسين قوله عليه الصلاة والسلام عن أبي هريرة عبد الرحمان بن صخر "إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُم وَلَا إِلَى صُوَرِكُم وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُم وَأَعْمَالِكُم"، أنا لا أطعن فيمن ترتدي الجلباب ولا أبرر للمتبرجة ولكن المظهر ليس إلا مظهرا بالنسبة لي حتى أعاشر الجوهر، فئة قليلة جدا من الفتيات تلك التي تدرك قيمته ولما فرض وكيف تحترمه.

-هنا النقطة الأهم، ما هو الحجاب؟ لماذا فرض؟ وما هي شروطه؟ شيخنا المبجل علي.

-تسخرين مني؟ لن أرد على سخريتك هذه وسأكمل طرحي للفكرة، ولنتفق أنني لا أحاول إقناعك، أي قرار في الكون إن لم يأتي من داخلك، وتقتنع به بمفردك، سيكون من السيئ أن تمشي في طريقه، لأنه

كما أفلح أحدهم بإقناعك بالشمال، سيقنعك آخر باليمين، وستجدين نفسك في مفترق طرق أيهما أصدق، لذلك سأقول ما استنتجته من قراءاتي فقط دون أي نية أخرى، هل أكمل؟

-قراءاتك؟ لماذا قد يبحث رجل عن موضوع الحجاب؟

-ليس لأرتديه طبعا أيتها الغجرية، ولكن يوما ما ستكون لي زوجة، ستكون أمانة أهلها لدي، ستكون لي طفلة إن شاء الله وإن ربيتها كما يجب ستدخلني الجنة، ألا يستحق الأمر عناء البحث؟

-بلى، لم أفكر في ذلك، هاه أكمل.

-نحن البشر عندما نشتري شيئا غاليا، دائما ما نفكر في حمايته، إما بالتغليف أو الإخفاء، كتابا كان أم هاتفا، مثلما خلق الله اللؤلؤة في الصدفة، لا يراها إلى من ستكون له، كان الغرض نفسه من فرض الحجاب على المرأة، بهدف حمايتها، فإبراز مفاتنها سبب في إلحاق الضرر بها ممن لا يخافون الله في خلقه، وهذا الغرض واضح جدا في الآية التي تبين فرض الحجاب، سأحضر المصحف وأعود لا تنامي.

قام مسرعا وأنار الغرفة، فتح مصحفه الذي كان أمام سريره، بحث عن سورة الأحزاب، الآية 59، وهي في الطرف الآخر تنتظر إكماله لدرسه المفصل، شعرت أنه خبأ الكلام كثيرا داخله منتظرا أن يسأله أحد عن هذا الموضوع، ثم وصلت رسالته الصوتية بعد فترة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمان الرحيم: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا"

-لم أكن أعلم أنك تحسن أحكام التجويد ولك صوت يليق بذلك.

-وماذا تعرفين عني؟ دعينا مني ولنكمل موضوعنا قبل أن تنامي، إذا هدفه ليس تغليفك ومضايقتك ولكن الحفاظ عليك، كما أن الله حيي ستير يحب الحياء، والحجاب دلالة على الإيمان، فالخطاب في الآية كان لنساء المؤمنين، بالمقابل هناك صنف معلوم من داخلي جهنم، هن الكاسيات العاريات المميلات المائلات، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ولا أدري كيف ستتحمل النساء ذلك وهن يعلمن، سنأتي الآن على شروطه، في رأيي هي بسيطة، ما يليق للصلاة يليق للحجاب، من الرأس للقدمين للروح الخاشعة، ساتر للجسم عدا الوجه والكفين ففيهما خلاف، أهم ما فيه أن لا يصف ولا يشف، لا يكون قماشا يغطي فقط لون البشرة، ولا يمكن الناظر من معرفة تفاصيلك، هناك تفاصيل أخرى كالعطر وتشبهه بلباس الرجال والكافرات مثلا، لكن تلك على من تريد ارتداءه الإلمام بكل تفاصيله، أن تبحث أكثر، هذا وفقط قد تبدو كثيرة لكنها مجتمعة في ثوب واحد يليق، أفضل من تجميع ألف قطعة في طلة واحدة.

-في حقيقة الأمر لم تقل كلاما جديدا، لكن أشعر بكمية الحب والاحترام اللذان تكنهما للحجاب من طريقة حديثك ونبرتك المتحمسة، في

الوقت الذي أصبحنا نرى الجميع يفر منه ناظرا إليه أنه من علامات التخلف.

-التخلف؟ سأخبرك شيئا، سئلت إحدى النساء المؤثرات لا أذكر اسمها، أن كيف تلبس لباس التخلف وقد وصلت إلى تلك المكانة من العلم، هل تعلمين ماذا أجابت؟ قالت أن الإنسان البدائي كان يستر جزء بسيطا من جسمه، وكلما تقدم وتطور كان يستر أكثر، ثم فجأة أصبح يعود إلى الخلف ويتعرى، إذا لا أعلم من منا متخلف ومن غير ذلك، كما أنه يضفي جمالا ونورا مميزين على الفتاة على عكس ما يشاع أنه يجعلهن بشعات.

-إجابة مثالية، ينتابني النعاس أردت أن أقول لك ليلة سعيدة قبل أن أغفو بشكل مفاجئ كالعادة.

-لابد أن الحديث عن التطور والحداثة قد أثر بك، ارتقيت ما شاء الله، تصبحين على خير أيتها الغجرية.

كان ينتظر منها أن ترد على مزحته الثقيلة لكنها لم تفعل، هي حتى لم تقرأ الرسالة الأخيرة، نظر إلى الساعة التي كانت تشير إلى الواحدة صباحا، سجل خروجه من الفايسبوك، ثم وضع هاتفه جانبا وأسلم نفسه إلى النوم كطفل لا يشغله شيء في هذه الحياة.

في المقابل عليا لم تكن تريد النوم كما أخبرته، قامت إلى خزانتها وأخرجت شالا كانت تزين به رقبتها أحيانا، ثم وقفت أمام المرآة تحاول

وضعه عليها، تريد أن ترى ما الذي ستغيره قطعة القماش هذه، لم تكن تعرف الطريقة الصحيحة لوضعه، لفته فقط وبقيت تنظر إلى نفسها، كانت تبدو أكثر لطافة، لكن أقل جمالا في نظرها، الشعر كان يزيد من فتنتها، تذكرت كلام علي قبل قليل، الهدف من الحجاب ستر المفاتن لأن الله يود الحفاظ عليها.

جلست بشالها ذلك على سريرها، أغمضت عينيها لفترة من الزمن كأنها تفكر في شيء ما يشغلها، وفجأة قالت بسرعة كبيرة **"محمد أريد التواصل معك عن طريق الإشارة"** سكتت قليلا ثم أضافت **"إذا كنت هنا أطرق على النافذة مرة واحدة".**

خافت لو أنها قالت اسمه ببطء أن يظهر أمامها، وهي لا تريد أن تراه، وجوده يشعرها بالخوف مهما حاولت تمالك نفسها، شحوبه، النسيم البارد الذي يحيط به، نظراته التي لا تحيد عنها، كلها أشياء تخيفها، اختارت الطرق على النافذة لأنها بعيدة عن سريرها بما يكفي لألا تشعر بقربه منها، وبعد بعض الوقت سمعت الطرقة التي تنتظرها على زجاج النافذة، فقالت.

-سأحضر لوحة الحروف، ورقة وقلم ونواصل التواصل عبر النقر على الزجاج.

أنارت أباجورة الغرفة حتى لا يكون الضوء كثيرا فتلفت الانتباه، وأحضرت مستلزماتها، ثم وجهت سؤالها الذي استحضرته من أجله.

-لقد طلبت مني أن أحضر دفترك من منى، لكن أختك ترفض التخلي عنه، عليك أن تخبرني الطريقة التي توافق منى على التخلي عن هذا الدفتر، فلنحل أول خيط في قضيتك.

ثم بدأت تمرر القلم على الحروف، وفي كل مرة تسمع نقرا على النافذة كانت تسجل الحرف، تحاول فهم ما يود قوله...

ق و ل ي ل ه ا أ ن ك س ت ف ي ن ب و ع د ي ل ه ا.

قولي لها أنك ستفين بوعدي لها...

-عن أي وعد تتحدث؟ كيف أخبرها بوعد وأنا لا أعرف ما يترتب عنه؟

انتظرت أن يتم النقر على النافذة وهي تجهز قلمها لتدون حروف إجابته لكن الصمت ظل مسيطرا على الموقف، عرفت وقتها أنه لن يجيبها، أطفأت الأباجورة، ثم وضعت سماعاتها تستمع إلى سورة البقرة ولم تدرك بعدها في أي عالم غاصت.

-14-

الكل على طاولة غداء يوم الجمعة، طاولة يتربع عليها الكسكس كالعادة، يلتف حولها الجميع كل وما يشغله، كانت ملعقة عليا تائهة في صحنها، لاحظت نجوى بطبيعة الحال ذلك، فسألتها عما يمكن أن يكون قد عكر مزاجها هكذا، لا يمكن أن يكون التعب، ففي يوم الجمعة تستيقظ في وقت متأخر، كما أنها دخلت غرفتها مبكرا، وكأن عليا كانت تنتظر من يسألها، فلم تتهرب ودخلت الموضوع مباشرة كما حضرت له بعقلها منذ يومين

-أفكر كيف أطلب من أبي أن يدعني أذهب إلى معسكر غدا...

كادت حبات الكسكس أن تتناثر من فم كمال لولا أنه تمالك نفسه، بلعها بسرعة لينقض عليها.

-ما الذي تقولينه؟ عن أي معسكر تتحدثين؟ ولما قد تذهبين إلى هناك؟

توقف الجميع عن الأكل ليشاهدوا المعركة الجديدة، توجهت كل الأعين إلى عليا، ينتظرون ما الذي ستقوله، وهي بدورها لم تتركهم ينتظرون كثيرا فقالت.

-أرسلني الأستاذ ياسين إلى هناك، للقاء عائلة من أجل قضية لدينا، معسكر ليس بعيدة، ساعة فقط وأكون

هناك.

سكت كمال قليلا محاولا أن يفكر بعض الشيء وإعطاء رأي صائب فهو قد ملّ من الشجارات مع عليا، ولم يرد إفساد غذاءهم الأسري المقدس.

-لم يخبرني ياسين بشيء كهذا، ولما تذهبين أنت؟ ألا يوجد غيرك؟

-لما قد يخبرك أبي؟ أنا كبرت وهذا عملي، لست في مدرسة يطلب فيها المدير موافقتك للخروج في رحلة، طبعا يوجد غيري لكنني المكلفة عن هذه القضية.

-يعني حسمت أمرك بالذهاب ورأيي ليس مهما.

-ليس كذلك أبي، لكن الموضوع بسيط، لن أكون وحدي، وسيكون برفقتنا مفتش شرطة يعمل على نفس القضية.

وقبل أن ينفجر كمال في وجهها تداركت الموقف فقالت.

-وسآخذ علاء معنا.

أراد علاء الاعتراض لكنها كادت تخترقه بنظراتها، سكت مرغما، بينما تنفس عبدو الصعداء أنه نجا من مهمة مراقبة عليا، فهو يعلم أنه كما فعل لن يسلم من والده، إن أخطأت وأخبر عنها، سيقلب البيت على

رؤوسهم، وإن قال أنها كانت منضبطة فكمال لن يصدقه، توجهت الأنظار مرة أخرى إلى كمال الذي رد عليها قائلا.

-سأفكر، أكملوا غذاءكم هيا.

-أرجوا ألا تطيل التفكير، علي إخبار علي مبكرا.

وهنا تكلمت العائلة كلها بصوت واحد.

-من علي؟

ارتبكت عليا، تداخلت الحروف في فمها وحاولت تدارك الوضع سريعا وإلا ستفقد فرصتها في السفر.

-كنت أقصد المفتش علي، لأنه غير موجود ألغيت الرسميات، المفتش الذي سيصحبنا إلى معسكر، كما أخبرتك أنه يعمل على نفس القضية وهو صديق ياسين يعني هو من اقترح ذهابنا سوية.

عادت القلوب إلى أماكنها وتنفست عليا الصعداء بعد أن انتبهت أن نظرات والدها عادت طبيعية وأنه واصل طعامه بكل هدوء، انسحبت وقتها من الطاولة بعد أن تمنت لهم الصحة والعافية، حملت صحنها وما أصبح إضافيا لأخذه إلى المطبخ وبعد أن ابتعدت خطوتين، سمعت كمال يخبرها بموافقته، أسرعت الخطى لتضع ما بيدها ودخلت إلى غرفتها لتخبر علي فورا، نظرت نجوى إلى كمال نظرات استغراب، محتواها كيف وافقت هكذا سريعا؟ وقد فهم هو مقصدها فقال:

-بما أن المفتش سيكون معهم فقد اطمئن قلبي، خاصة أنه صديق ياسين، يعني أنه بعمرنا، بمقام والدها.

على طاولة أخرى كان يجلس علي يمدح طبخ أمين، الذي ارتفع كتفاه مفتخرا بنفسه أنه الرائع في الطبخ في هذا البيت كالعادة، وهو يعرف بداخله أن صديقه يفعل ذلك فقط للتخلص من المطبخ، صديقه الذي قام باتجاه غرفته وهو يكمل جمل المديح، حتى سمع أمين وهو يقول:

-كل كلماتك الجميلة لن تنقذك من غسل الصحون فليكن في علمك.

حك علي رأسه بعد أن كُشف أمره، وقبل أن يعود أدراجه إلى المطبخ، سمع رنة هاتفه معلنا وصول رسالة، أكمل طريقه إلى غرفته ليقرأها.

"لقد وافق أبي جهز نفسك لمغامرتنا القادمة شريك..."

ابتسم وهو يقرأ آخر كلمة، كان يجد كلمة صديقي غريبة، كما أننا بطريقة أو بأخرى مجتمع لا يتقبل هذا النوع من الصداقات مرتكزا أولا على الموروث الديني، ثم على عاداتنا وتقاليدنا، فكانت كلمة شريك مخرجا جميلا، شريكا مغامرات يتقاسمان النتائج كلها، كما يتشاركان العمل. كتب بدوره رسالة مختصرة ردا عليها.

"حسنا شريكتي"

ثم قام إلى صحونه المتراكمة في المطبخ، فرغم أن أمين جيد في الطبخ لكنه يقلب المطبخ رأسا على عقب.

-15-

الصباح دائما يخبرنا أنه هناك أمل جديد، أنه بعد الظلام الشديد لابد أن تشرق الشمس، وكما أن أقرب الدقائق إلى الفجر هي أشدها ظلمة، فإن أشد الطرق ضيقا أقربها إلى الانفراج، وكما ننام وكلنا ثقة أن الصبح سيأتي يجب علينا أن ننتظر الفرج من رب يرسل كوكبا بحجم الشمس مشتعلة من ملايين السنين لتضيء يومك، ثقة كهذه تكفيك ليكون الصباح حربك الجديدة لأجل نصر محقق، مؤجل فقط.

قامت عليا على صوت المنبه الذي رن كثيرا، وبعد أن غسلت وجهها واستفاقت جيدا وقفت أمام خزانتها الوقفة الأسطورية، دون أن تنسى قول الجملة الشهيرة لدى كل النساء.

"ماذا سألبس؟ لا يوجد شيء يليق، يجب أن أتسوق في وقت لاحق رفقة آية"

وكما هو الحال دائما فرت إلى سروال جينز وأضافت له قميصا أبيضا طويلا، تركت شعرها دون جمعه، لم تنسى اكسسواراتها، وضعت هاتفها في حقيبتها وتأكدت من مفاتيحها ونقودها، ثم وضعت أيضا رواية لتشغل بها نفسها في الطريق، أيقظت علاء ليجهز نفسه هو الآخر، جلست أخيرا تنتظر أن يعلمها علي بوصوله، راحت وقتها تتصفح الفايسبوك، وما كادت تفعل حتى راسلتها آية.

-صباح النور حلوتي، خرجت من البيت أم لا؟

-صباح الفل، ما الذي أيقظك باكرا هكذا؟

-تعلمين أنني في فترة امتحانات حبيبتي، يعني فترة بقائي بعيدا عن النوم، هاه لم تجيبي على سؤالي.

-لا لازلت في البيت أنتظر علي.

-تمام، رحلة موفقة أخبريني بكل التفاصيل فيما بعد.

وصلتها رسالة من علي وقتها

"أنتظرك عند صخرتنا"

الأشخاص المهووسين بالتفاصيل لا يمكنهم تجاوز الكلمات كأنها لم تقل، إن تلك "نا" التي أضافها على الصخرة حركت شيئا داخلها جعلها سعيدة، وهي حتى لا تدرك لما هي كذلك، من يقول أن الكلمات شيء إضافي وأن الثقل كله يقع على الأفعال هو شخص مخطئ، فالكلمات تلعب بالروح، تزرع بها السعادة ولو كانت بسيطة يكفي أن ندرك أنها من القلب، حتى رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام قال: " إِذَا أَحَبَ الرَجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبه". خاصة الأنثى فهي تتغذى على الكلمات، الالتفاتات والمديح، طبيعتها تتطلب ذلك.

خرجت من غرفتها ونادت علاء ليخرجا سويا باتجاه الشاطئ، كان هو يجلس هناك يراقب هذا العملاق الصامت، يتأمل هدوءه ربما كان يكلمه

هو الآخر بصمت، وقبل أن ينتبه لهما، ضربه علاء على ظهره وهو يقول.

-لا أظن أن أبي كان سيوافق على هذه الرحلة لو رآك.

وقبل أن يسأله عن السبب، تدخلت عليا لغلق الموضوع متحججة أنه عليهم أن يسرعوا حتى يعودوا باكرا، ركبوا السيارة، أخذ علاء مكانه في الخلف وقد فهمت عليا ما يريده، فهو عادة ما ينام مباشرة إذا كان على طريق سفر، وذلك ما حدث فعلا، مدد جسمه بشكل كامل واتكأ على ذراعه معلنا بدء الرحلة إلى كوكب الأحلام، عم الصمت قليلا، كأنهما كانا ينتظران أن يصل إلى نومته السابعة، ثم تحدث علي.

-أرى أن فارسك الحامي قد تخلى عن مهمته سريعا.

-ما الذي تقصده؟

-أقصد السيد علاء.

-نومه خفيف لا تقلق، كما أنه يحب الملاكمة ويمارسها بين الفينة والأخرى.

ثم انتبهت أنه كان يكابد ضحكته، شعرت أنه يسخر منها، عاودت التفكير فيما قالته هي، وقتها عرفت أنها لو كانت مكانه لضحكت من نفسها بعلو صوتها، هل تخيف مفتشا في الشرطة بمراهق؟ حتى وإن كان بطلا في الملاكمة في عمره هذا فلن يفعل شيئا، وأصلا لما تخيفه؟ فضلت أن

تغلق الموضوع وتسكت، أخرجت سماعات الأذن وربطتها بهاتفها، ثم أضافت للجلسة روايتها التي أحضرتها معها، رحلة السفر بدأت...

الموسيقى أكثر الأصدقاء أنسا في السفر، خاصة وأنت تستعمل السماعات، تنفصل عن هذا العالم كله، مجرد طرقات فارغة، والكثير من الروحانية، ستختفي الأفكار السوداء وستركز فقط على جمال اللحظة، في المقعد المجاور كان علي يوفق ببراعة بين متابعة عليا والانتباه للطريق.

وصلا إلى وجهتهما في معسكر، أوقف السيارة أمام محل صغير ليسأل عن بيت عمي هواري، استمع إلى توجيه التاجر، وأعاد تشغيل السيارة، لم يكن بعيدا، أوقف سيارته مجددا، ترجلت عليا وبعد خطوات قليلة، كانت تقف أمام الباب وهي تفكر فيما ستقوله، وقبل أن تلملم شتات عقلها فتِح ذلك الباب ووقفت أمامه سيدة طيبة الملامح، تضع خمارا على رأسها، بدت عليها المفاجأة برؤيتها لعليا.

-أهلا يا بنتي عمن تبحثين.

تلعثمت عليا قليلا وهي تحاول تدارك الموقف.

-أهلا يا خالة، آسفة إن كنت أزعجتك، أنا عليا وأريد رؤية منى، هل هي هنا؟

-نعم هنا، تفضلي معي لآخذك إليها.

في طريقهما إلى غرفة منى، أخبرتها أنها لم ترها من قبل هنا، فهم في القرية الكل يعرف الكل، لم تجد عليا بما تجيبها، ومن حسن حظها أو من سوئه في نفس الوقت خرجت منى من غرفتها في تلك اللحظة، نظرت إليها باستغراب، وقبل أن تسأل الخالة خديجة من هذه الفتاة، تكلمت هذه الأخيرة لتخبرها أنها عليا صديقتها أتت لزيارتها، فلامتها أمها أنها لم تخبرها من قبل لتجهز ما يليق بها، أما منى فقد عبس وجهها بمجرد رؤية عليا، لم تكن تتوقع أن تزورها، أخذت بعض الوقت وهي تفكر بينها وبين نفسها، ثم رجعت خطوة إلى الخلف وأفسحت لها المجال لتدخل إلى الغرفة، قررت أن تسمع منها.

جلستا تنظران إلى بعضهما وكأنهما لا تجدان ما تقولانه لبعضهما، إلى أن كسرت منى حاجز الصمت وقالت

-إذا أنت عليا... لم أكن أتوقع قدومك.

-أردت التعرف عليك والحديث معك.

-التعرف علي أم الحصول على الدفتر؟

-كلاهما، أولا أريدك أن تحكي لي عن أخوك، أعرف أنه طلب غريب، لكنني سأشرح لك كل شيء، أولا أنا لم أتعرف على أخيك حيا...

جال ببالها أن تخبرها كل الحقيقة، أن تخبرها أن أخوها قد تحول إلى اسبيريتو وأنه قد يكون متواجدا الآن بينهما، أن تخبرها أنها تحتاج الدفتر لتحل القضية وتتخلص من طيفه، قطع صوت منى هذيانها.

-هل تسخرين مني؟ كيف لا تعرفينه حيا؟ هل زارتك روحه مثلا.

قالت ذلك وضحكت بطريقة مستهزئة، كانت كلمة نعم ترقص على طرف لسان عليا لكنها أعدمتها بسرعة ثم ابتلعت ريقها وقررت أن بعض الكذب لن يضر هنا.

-لا طبعا، لكن أحد أصدقاءه من الجامعة قد تواصل معي وأخبرني بعض الأشياء التي بقيت ناقصة، من بينها الدفتر الأسود، أنا محامية وأردت أن أعرف أكثر عن أخيك.

-تواصلين قول أخيك، أخيك وكأنك تخافين ذكر اسمه، أخي كان ملاكي، لا أعلم لما لكن انتابني شعور قوي أن أحكي عنه بعد أن دفنت سيرته منذ سنة تماما، من أين أبدأ، محمد لم يكن يشبه شباب هذه القرية، لا أعلم من أين استقى حبه للكتب والتعليم، وجد من أبي كل الدعم، لم يتركه يصبح فلاحا كالبقية، كنا ننظر له بكل فخر، ورغم المعاناة التي كان يواجهها لم يفكر يوما أن يتخلى عن دراسته، كان يعاملني كأني أميرة، عندما يعود من المدينة يحضر لي مستلزمات الرسم والطرز، يحكي لي قصص العظماء منذ صغري ويخبرني أنه علينا أن نقاتل مثلهم لنغير واقعنا، فوحدهم المتمردون على واقعهم يصنعون واقعا جديدا، يكونون مميزين ولا يموت ذكرهم على الأقل بين عائلاتهم، كرس حياته ليسعدني وأبوي، يوم أخبرني عنك فرحت كثيرا...

ثم نظرت إلى وجهها بحدة تحمل بين طياتها لوما كبيرا ثم أكملت

-والآن تنكرين معرفتك به، سأخبرك شيئا إن كان مجيئك إلى هنا لأجل الدفتر فقط، فلن أعطيك إياه، يمكنك المغادرة.

دخلت في هذه الأثناء خالتي خديجة تحمل سينية بها أكواب القهوة وصحن من المبسس، وقد استنكرت جملة ابنتها الأخيرة، فوجهت كلماتها إلى عليا.

-أهلا وسهلا بك بنيتي، منذ زمن لم يزرها صديقاتها لذلك أصبحت حادة الطباع لا عليك منها.

ثم التفتت إلى منى وخاطبتها قائلة:

-لم تعرفيني على صديقتك، ليست من قريتنا أليست كذلك؟

أجابتها منى وكأنها تتخلص منها.

-لا تعرفينها يا أمي، إنها من وهران

وقبل أن تكمل جملتها قاطعتها خديجة بلهفة كبيرة

-أم أنها تعرف محمد؟

-أمي... لا علاقة لها به، تعرفت عليها من الفايسبوك وجاءت لرؤية عملي ولوحاتي، أمي حبيبتي لا نريد حربا اليوم أرجوك لا تعيد ذكره أمام أبي، أتوسل إليك.

طاطأت خديجة رأسها بكثير من خيبة الأمل ثم التفتت إلى عليا وهي تتحدث إليها

-أنت لا تعرفين محمد، لقد ضيعت الكثير، لو كان بيننا لكنت تليقين به كعروس، جمالك، طولك، أدبك وخاصة ابتسامتك، تشبه ابتسامة ابني، تحمل الكثير من البراءة.

حاولت منى أن تقاطع والدتها لكن عليا سبقتها

-إذا كنت سترتاحين حدثيني عنه يا خالة.

-لا أعلم إن كنت أرتاح يا ابنتي أم أني أحترق، لا أعلم إن كنت أفرغ ذكرياته أم أحفظها، لكن سأخبرك عنه وابحثي لنفسك عن رجل مثله، رجلي الصغير كان ملاكا، يحفظ القرآن ويعرف حلال ربه من حرامه، دائم الابتسام كأن لا هم لديه، رغم أن العالم كان يصر على دعسه في كل مرة، أنت لأنك من المدينة لا تدركين معنى أن تولد في قرية كهذه، معنى أن يرى الجميع أن التعليم غير مهم بينما أنت تتنفسينه، أن ترثي إسلاما غريبا معجونا بالعادات والتقاليد، فتجلسين وتفكين العقد وتنظفين إسلامك من الشوائب، ابني كان منية كل البنات هنا، وصديق كل الشباب، ابن كل عجوز، وأخا لمن شاء أخوته، يقولون أن البعض يعيشون قليلا لأنهم ينجحون في الامتحان سريعا، هكذا كان محمدي، يوم ولدته طلبت من ربي أن يسقيه قليلا من سيد الخلق محمد

عليه الصلاة والسلام، وفي كل يوم كان يكبر فيه فلذة كبدي كنت أشعر أن ربي قد تقبل مني...

سكتت ثم قامت وخرجت من الغرفة سريعا، وقتها وجدتها منى فرصة لتتخلص من هذه الضيفة الثقيلة في نظرها، بينما كانت عليا قد تأثرت بشكل واضح، حتى أن الدموع قد تجمعت في عينيها، أمسكتها منى من ذراعها بقسوة ثم قالت

-غادري البيت فورا، أمي ستدخل في أزمة مجددا اليوم، وسيصرخ أبي بأن لا ابن له بهذا الاسم، إن واصلت الحديث سنعود إلى فترة لا أريد عيشها، سمعت ما أردت عن أخي يمكنك الذهاب.

وقبل أن تغادر عليا الغرفة وهي تشعر بالأسى على هذه العائلة والحزن الذي تغلغل فيها، عادت خديجة تحمل صورة بيدها، كانت لمحمد، تجمدت الفتاتان مكانهما، نظرت عليا إلى منى وكأنها تسألها عما يجب أن تفعله، أشارت لها هذه بأن تجلس، فقد أشفقت على والدتها المحرومة عن الحديث عن طفلها وفجعتها.

-هذا هو طيري...

وأكملت قصصها عنه كأنها تجدد العهد معه، فكرت عليا أن تذكر اسمه عله يحس بوالدته قليلا، لكن الخوف تملكها وتجاوزت الفكرة، بينما استولت فكرة أخرى على عقلها، كيف لملاك كهذا أن يموت بجرعة زائدة من المخدرات؟

هناك في السيارة كان علي قد بدأ يشعر بالضجر لولا أن جملة من علاء قد أشعلت الموقف لحوار جميل.

-يمكنك الانضمام إلى عائلتنا بسهولة أنت.

-كيف؟

-اسمك يسمح لك بذلك، لا تقل لي أنك لم تلاحظ أن اسم أختي عليا، أخي عبد العلّي وأنا علاء، ثلاثتنا نبدأ بالعين كما أن لنا تقريبا نفس المعنى الذي يؤول إلى العلو والرفعة، وحضرتك أيضا تنطبق عليك الشروط سيد علي.

-بدون سيد لست كبيرا لهذه الدرجة، هل لأسمائكم هذه قصة أو سبب؟

-يبدو أنك تعودت على القصص من عليا.

-لا... لا فقط بدا الأمر كأنه يحمل سببا، هل تحكي أختك قصصا عادة للجميع؟

-لا هي لا تفعل، لكنها عادة لديها تشاركها من ترتاح لهم فقط، إذا لم تشاركك أحدها يعني أنها تضع مسافة بينكما، لا تغضب ستفعل ربما يوما ما، خاصة القصص هذه أخذناها من أمي، تقول أحبوا الأشياء بتفاصيلها لا عمومياتها، وكما قلت فلأسمائنا قصة وسبب، سأخبرك بها

لكن فلتبقى بيننا، إلى أن تخبرك بها عليا يوما إن أصبحتما صديقين، اتفقنا؟

-نعم، أسمعك

شعر علي بشيء من الغبطة لم يعرف لها سببا معينا، هل لأن عليا قد شاركته قصصها مما يعني أنها ترتاح له وتعتبره صديقا، أم فكرة أنه يمكن أن ينظم لهذه العائلة، أو لعلها بسبب معرفة قصة الأسماء...

-فلتعلم بادئ الأمر أن والدي، يعني كمال ونجوى قد تزوجا بعد قصة حب، وبعد حمل الوالدة جاءت فكرة أن يكون أول حرف من اسم كل أولادهم القادمين هو نفسه، لكن ماذا سيكون هذا الحرف؟ فكرا مليا ثم لاحظا، أن العشق جمعهما أولا، ثم العائلة والكثير من العهود في الميثاق الغليظ أي الزواج، العدل، العفو، العطف، حتى أن أول شهر به اسمه شهر العسل، ألم تلاحظ شيئا؟

-بلى كلها تبدأ بحرف العين.

-ذكي ما شاء الله، نعم هو كذلك، وأما المعنى الذي هو العلو، أرادوا أن نكون في أعلى المراتب بين البشر كما هي أمنية كل أب وأم، فكانت عليا وتبعناها نحن بعدها، وأنت لما اسمك علي؟

-نحن لا نملك فكرة القصص خلف الأشياء مثلكم، أسماني والدي على والده بكل بساطة، رغم أنها فكرة غبية وكأننا نستنسخ البشر، فتولد

بمخلفات من سبقك، تسمى على أحدهم، يشبهون ملامحك لخالك أو عمك، يقررون عملك حسب رغباتهم...

قاطعه علاء هنا فقال

-لم نختلف هنا كثيرا، عليا أصبحت محامية لأنه حلم أبي مثلا.

ثم سكت وكأنه تذكر شيئا مهما فاستدرك

-أرجو أن لا تخبر عليا بحديثنا هذا، هي لا تحب أن يعرف الناس عن خصوصياتها.

ابتسم علي بخبث ثم أخبره أنه موافق على إبقاء هذا سرا بينهما، وأنه يمكنه إخباره بكل ما يحلو له فهو لن يخرج من جوفه طالما دخله، متعود على حفظ الأسرار في إطار عمله، وكأنه غرس الطمأنينة في قلب ذلك الفتى الذي تحدث كثيرا بعدها وفي الكثير من المواضيع.

في غرفة منى تحولت الجلسة إلى عزاء، كانت الدموع سيدة الموقف، وكأن محمد قد مات البارحة، حرقة أمه لم تخف أبدا، أما منى فكانت ترقب الباب حتى لا يدخل والدها فجأة، تنفست خديجة بعمق ثم قالت.

-آسفة يا بنتي، لكنني شعرت برائحة ابني بك، سأترككما الآن ولي رجاء أن تزورينا دائما، أحسست بعد الحديث معك أن جبلا قد أزيح عن صدري.

-سأحاول أن أفعل يا خالة، الحمد لله أنك ارتحت، هذا يسعدني.

قامت متثاقلة الخطوات، منهكة لكن ببسمة لم تفارقها وهي تنظر إلى وجه عليا، يقولون أن الأمهات أفضل من يشعر بأولادهم، وها هي قد شعرت أن روح ولدها تحوم حول هذه الفتاة التائهة في كل ما يحدث.

-ما كان اسم صديق محمد الذي أخبرك بهذه الأشياء.

كان هذا السؤال غير متوقع بالنسبة لشخص اخترع كذبة في وقت ضيق، حاولت عليا إيجاد اسم تقوله من جهة وإلهاء منى من جهة أخرى فقالت

-هل تعرفين كل أصدقاءه؟

ووقتها خطر على بالها ملاحظة كتبتها على هاتفها، كانت قد دونت فيها أهم المعلومات الموجودة في ملف القضية، وقد ذكر اسم صديقه الذي بلّغ عن اختفاءه. بينما أجابت منى على سؤالها بنرفزة واضحة من نبرة صوتها.

-إن كنت أعرفك أنت شخصيا فكيف لا أعرف البقية.

-إلياس...

أثار الاسم رجفة في قلب الصبية، ركزت عيناها على شفتي عليا علها تقول أشياء أخرى، كأنها اشتاقت لسماعه، أو السماع عنه،

-هل تلتقين معه؟ هل مازال يتحدث عن أخي؟ أكمل دراسته؟

وقتها عرفت عليا أنها اختارت الاسم الصحيح، فمن جهة واضح أنه مقرب منهم، ومن جهة أخرى العلاقة بينهم منقطة أي احتمال اكتشاف كذبتها ضئيل.

-لا نلتقي، مجرد صداقة الكترونية نشأت بالصدفة، ومن حديث إلى آخر تحدث عن أخيك وعن دفتره وأنه بحث عني بعد موته ولكنه لم يوفق في ايجادي، كما أنه أكمل دراسته نعم.

كانت تحاول الكذب في الإطار المسموح دون أن تفضح نفسها، وقد قررت أخيرا أن ترمي بالقنبلة الأخيرة علها تفيد في شيء.

-إن منحتني دفتر أخيك، سأفي بوعده لك.

-لم ينس إلياس الوعد إذا، وهل تستطيعين فعلا أن تضعي معرضا للوحاتي؟ يبدو الموضوع مستحيلا.

انفرجت أسارير عليا، بعد أن عرفت ما هو الوعد، ثم قالت بكثير من الحماس.

-طبعا أستطيع، يمكننا أولا إقامة معرض الكتروني، صفحة نقوم بدعوة الكثيرين لها، ونضع بعض أعمالك بها، ثم أنا لي معارف في كلية الفنون، أي نستطيع تنظيم معرض داخلها، وقتها ستكونين علاقات من الوسط، وحتى سيكون لك عملك الخاص، بصمتك الخاصة، حتى أنني

أعجبت كثيرا بطريقتك في طرز اللوحات، نسيت أن أخبرك أنا أيضا رسامة.

-تواصلين التعريف عن نفسك، محامية، رسامة، أعلم كل ذلك، (تذكرت ما كان مكتوبا على الدفتر وكأنها صدقت أن هذه الفتاة فعلا لا تعرف أخاها**) لا أود قطع حماسك، طريقتك في الكلام حفزتني، لكن من المستحيل أن يقبل أبي على أن أغادر القرية.**

-أتركي لي الموضوع وأنا سأجد حلا، وعد مني فوق وعد أخيك.

-كل هذا من أجل الدفتر؟

بقيت عليا صامتة، هي حتى لا تعرف ما كتب داخل هذا الدفتر، وقتها أكملت منى.

-سماعك لكل حكايات أمي، حماسك للوحاتي، صدق دموعك، وإحساس داخلي يخبرني أنك إنسانة جيدة، ولذلك سأعطيك الدفتر، أصلا هو كان لك منذ البداية.

استغربت عليا من آخر جملة لكن فرحتها بأنها نجحت في الحصول على الدفتر جعلتها تتغاضى عن الموضوع، ثم قالت

-هل لي أن أسألك شيئا أخيرا؟

هزت منى رأسها علامة الموافقة، فأكملت عليا كلامها.

-هل تصدقين أن أخوك قد توفي بجرعة زائدة من المخدرات؟

-يستطيع أخي أن يموت بجرعة زائدة من الأمل، من الحب، من الأمان لكن لا مكان له بين تلك الأشياء.

ابتسمت عليا وقتها شعرت أنها إلى جانب الحق من القضية، حمدت الله داخلها، فسرت بها طمأنينة، أخذت الدفتر وغادرت البيت وشيء من الارتباط الروحي قد جمعها بأهله.

-هل حصلت على اسبيريتو؟

-نعم.

نظر علاء إليهما باستغراب، وسؤال واحد يدور بعقله، هل قطعوا كل هذه الطريق ليحصلوا على قهوة اسبريسو في منزل بقرية؟ ضاحكا أن علي قد أخطأ نطقها، لكنه فضل في الأخير بداية رحلته بالنوم على إزعاج نفسه بالسؤال.

ظل الصمت يخيم على السيارة طول الطريق، علي كان قد شعر بالإعياء ورغبة عارمة في النوم، حمد الله داخله أن معسكر ليست بعيدة عن وهران كثيرا، بينما كانت عليا عالقة في سلسلة غير منتهية من الأفكار، ينتابها فضول كبير حول ما يحتويه هذا الدفتر، وضعت سماعاتها وسافرت إلى العالم الروحي مع الموسيقى الصوفية مجددا...

بمجرد أن لاحت لافتة وهران، عدلت عليا من جلستها التي كانت أقرب للنائمة، وانشرحت ملامحها، لاحظ علي ذلك التغيير، ولم يجد بدا من أن يسأل عنه.

-أخيرا ضحك وجهك، خيرا؟

-وهران هذه يا علي، حتى هواءها مختلف.

-كل هواء العالم نفسه، متكون من نفس الغازات، هواء تلك القرية أنقى حتى، ما خاصية وهران إذا؟

-وهران ليست مدينة فقط، وهران بالنسبة لي صديقة تمتص همومي وتزيد أفراحي غبطة.

-كيف؟

التفت بجسدها متجهة إليه ثم قالت وضاقت عيناها كأنها تعرف الجواب مسبقا.

-عندما أقول وهران ماذا يخطر على بالك؟

-واه، كارانتيكا، السبوعا تاع لاميري، سانتا كروز، الزهو، الراي، وقليل من الأحاديث عن سلبياتها كأنها بؤرة للفساد الأخلاقي.

عادت وألقت بنفسها على الكرسي وهي تقول:

-اربط الأحزمة إذا، سأدور بك وهران الآن من وجهة نظري، وهران الصديقة.

أغمضت عيناها وبدأت تسرد له ما تتخيله كأنها تتجول في تلك الأماكن التي تذكرها

-الآن أقف وسط ساحة أول نوفمبر، قلب وهران، بلاس دارم أو ساحة السلاح، خلفي تمثال المجد حيث يظهر به رجل بجناحين، وكأنه يخبرك

أنه في هذه المدينة يمكنك أن تحلق وتعيش الحرية كما يجب، قبالتي بلدية وهران والأسدين على طرفي مدخلها، على يميني المسرح الوطني والذي هو بحد ذاته تحفة فنية عليك أن تقف مطولا أمامه و تتأمله، وحتى أن تدخله ليكتمل الانبهار، على أطراف هذا المكان الذي يبدو راقيا أثريا جدا ستجد أكثر الأحياء شعبية، سيدي لهواري والدرب، كأن وهران تخبرك بطريقتها أنها لا تفصل بين الرقي والشعبية، أنها خلاصة الاثنين معا، ستسير قليلا باتجاه شارع معطى، ستجد مسجد عبد الله بن سلام، والذي يعتبر إرثا دينيا لا يخلو من الجمال الفني، بني سنة 1880 على ما أتذكر وقد كان عبارة عن معبد يهودي لذلك يسمونه هنا جامع الشنوغا، طريقته العمرانية مبهرة حتى أنه مزيج كهذه المدينة، حيث جلب رخام الأعمدة من إيطاليا، وخشب بوابته من الأندلس، أما حجارته فمن القدس الشريف، تحول إلى مسجد سنة 1974، ولم يكن اختيار اسمه عبثيا، فالصحابي الجليل عبد الله بن سلام كان يهوديا وأسلم، تماما كما هو مسجدنا، شامخ، مرتفع المآذن يصرخ أنك في مدينة إسلامية، سنعود الآن إلى الساحة، سنمشي مع طريق الترامواي، إلى أن تصل إلى الصيدلية الوهرانية في الركن على اليمين، ستدور مع ذلك الشارع، شارع الثقافة كما أحب أن أسميه، الملكة هنا هي المكتبة الكاتدرائية، والتي كانت عبارة عن كنيسة هي الأخرى، عالية الجدران، ذات درج طويل يمتلئ بالجالسين عليه عندما يكون الجو جميلا، داخلها ما زال يحتفظ بمعالم الكنيسة، ورغم أن الكلام داخلها يجب أن يكون قليلا فهي مكتبة، إلا أنك تشعر بجدرانها تكلمك، إنه صدى السقف العالي كما هي

عادة الكنائس لتضفي على الطقس الديني شيئا من الروحانية، في قبالتها ستجد مكتبة الفتح، على يمينها مكتبة مريامة، أما يسارها فهو عبق الماضي حيث تجد بسطات للكتب القديمة، وليس بعيدا عنها هناك وفي آخر هذا الشارع تجلس دار الثقافة. عد أدراجك إلى الصيدلية، سيقابلك شارع الموضة، أو شارع العربي بن مهيدي، الثياب، الأحذية، الإكسسوارات، المجوهرات والعطور كلها تنفجر هناك، وعلى سيرة العطور فإن لم تكن سريعا، سيختطفك الباعة الذين يقفون على أبواب محلاتهم لسرقة المارة إلى الداخل، اختر زقاقا على يسارك وادخل، بعد قطعه ستجد نفسك في لاباستي، تصغير آخر لواقع وهران، شيء من عيشة الأغنياء معجون بالفقر، فعلى سبيل المثال، الأسماك التي تجدها في هذا الشارع لا يمكن لفقير أن يشتريها بصفة عادية لكنه يجدها قبالته على طاولات متناثرة كأنها ربطات من النعناع، وبعد أن تمل من رائحة الحوت والخضر، من الشعبية بصفة عامة، عد أدراجك من زقاق آخر لتجد نفسك في شارع الأقواس، ثم في قطعة من الجنة تسمى لابلاس أوش، هنا حيث يصطف باعة الورود، ينتظرون من سيفرح قلبا ببنات الجنة تلك، وأنا أمر على تلك المتاجر المفتوحة، أستمتع بألوان وعطور متنوعة للورد الجوري تجعلني أشعر بالحب، كل هذا وأنت في قلب وهران، لم تغادره بعد، حتى لمن يحبون حياة الليل، فيسجدون في هذه البقعة مكانا لهم، لا يمكن أن أنسى، شارع خميستي، شارع تلمسان، شارع معسكر، وغير بعيد عنهم شارع مستغانم، كأنها جزائر صغيرة، وهران للجميع بدون استثناء، تستطيع أن تشبع بطنك وبلذة فائقة فقط ب

50دينارا جزائريا، كارنتيكا أو الكبدة البيضاء كما يسميها من يعشقون هذه الأكلة وكأس من العصير، هكذا يمكنك أن ترى كل أوجه الحياة هنا، عندما يخنقك الهم، اصعد إلى سانتا كروز، سترى المباني كلها صغيرة جدا، أما البشر فلن تستطيع تمييزهم، ستشعر تلقائيا أن همك اضمحل هناك، قف على حافة البحر في واجهة البحر (فروندمار) أو الحديقة المتوسطية، أو على أحد شواطئها الكثيرة، كريشتل، ماداغ او كابلو، وسيمتص البحر ألمك، ستعود إلى حضن الطبيعة في غابة المسيلة أو الغابة العذراء، ستتوه في زحام المدينة الجديدة، وسيكون أكبر همك كيف تتخطى عجوزتين بدينيتين تغلقان الطريق تحاولان تخفيض سعر بدعيتان، والبائعان مصران أنه غير ممكن ويقول "السومة التالية الحاجة، سلعة اليوم ماشي كل يوم"، تعود إلى طفولتك في مدينة الملاهي بالحمري، وهران لا تسمح لسكانها بالحزن، لذلك ننجح في سكاتشات الكوميديا، بلا حدود، ثلاثي الأمجاد، وأكثر ما تعلمه لنا هذه المدينة هو الحب، صحيح أن الراي بدأ في سيدي بلعباس لكنه نجح فيها، لأنه انغمس بالحب، حسني، نصرو، خالد ومامي جميعهم غنوا بشاعرية وصلت بأغنية الراي إلى العالمية، وهران تعلمنا أن نضحك رغم كل شيء أن نعيش وتقول لنا أنا هنا لأسعدكم. هذا نهارا، أما ليلا فلا يمكن شرحه هكذا في كلمات، عليك أن تتجول بنفسك وتحاورها، ستخبرك بكل شيء، هذا ليس شيئا أمام ماهية وهران الحقيقية، المزارع في الكرمة، تليلات، وقديل، كما أنها مدينة اقتصادية، يقال أن الجميع يستطيع كسب قوته هنا، هذا ما تختلف به وهران عن بقية المدن، الحميمية والدفء،

يقول أحدهم لا نولد وهرانيين لكننا نصبح كذلك، وهران ليست لمن يسكنها ولكن لمن تسكنه.

كان يستمع إليها وقلبه منتش، يعيش في هذه المدينة منذ سنين، يحبها ويشعر بالانتماء لها، ولكن وهي تعرج به إلى خباياها وقع في الحب...

-حديثك عن الأشياء يجعلها عظيمة في عين المستمع، ينتابني الفضول ماذا لو أنك تتحدثين عني يوما ما...

-سيبقى مجرد حلم، أختي علاقتها بالأماكن والأشياء أقوى منها مع البشر.

كان هذا علاء الذي نسوا وجوده من الأصل، احمرت وجنتا عليا بعد أن كانت نظرات علي تشعرها بالخجل، أنقذها أنهم قد وصلوا أخيرا إلى بلقايد، طلب علاء من علي التوقف فهما سيكملان مشيا، يريد تجنب لقاءه بوالده، يعلم أن هذا الأخير سيحدث مشكلة عظيمة، وهو متعب لا طاقة له لذلك، وقد وافقته عليا على ذلك.

بمجرد دخولهم وجدوا الصالون ممتلئا بخالاتهما وبناتهن، إنها العطلة المدرسية حيث أنها الفرصة المثالية لمثل هذه اللقاءات العائلية، سلّم علاء من بعيد وتحجج بالتعب ودخل إلى الغرفة لينام، بينما استأذنت عليا أن تغير ثيابها وتعود، ولجت غرفتها، أخرجت الدفتر الأسود وأخذت تكلمه

-يبدو أن سفري بين طياتك سيتأخر ليلة أخرى.

وضعته في خزانتها، لبست منامتها وعادت إليهن، لم يأخذ الأمر خمس دقائق حتى بدأ الحوار يدور حول الزواج، أخبرتهم خالتها الكبرى أن أحد جيرانهم قد تقدم لخطبة ابنتها، ابنتها التي انكمشت على نفسها في خجل، بينما انقضت عليها باقي البنات لتبارك لها، قالت نجوى وقتها.

-أليست صغيرة؟

لترد الخالة بكل حدة

-عن أي صغيرة تتحدثين؟ لقد تجاوزت العشرين، وأنا في عمرها كانت هي بين يدي ألا تذكرين، أتريدينها أن تعنس.

رمت بكلماتها وهي تنظر إلى عليا وكأنها تقصدها بآخر جملة، وقبل أن ترد نجوى، أكملت

-وأنت يا عليا متى سنفرح بك؟ ألا تظنين أن الوقت قد حان؟

-خالتي حبيبتي، فأما الفرح فهو متاح في كل وقت، فرحتم يوم ولادتي، نجاحاتي، تخرجي، عملي وقريبا ستفرحون بأول قضية أربحها إن شاء الله، يعني أشياء كثيرة في حياتي تستحق الفرح يمكنك أن تفرحي معي بها، وإن كان العرس هو ما تريدينه، فسنقيم لسامية عرسا أسطوريا (تقصد ابنة خالتها) **بسبعة أيام وليال، وأما الوقت، فليس هناك وقت مناسب للزواج بل شخص يجعل كل شيء مناسب في عينيك معه، وسأعلق على كلمة عانس، ماذا تقصدين بها؟**

ضحكت سهام الخالة الأصغر ثم وجهت كلامها لأختها.

-رديها إن استطعت، تعبثين مع محامية قد الدنيا.

-محامية أمام القاضي وليس معي، (ثم عادت إلى عليا لتنقض عليها) **العانس هي من بقيت في بيت أهلها كالأرض البور.**

-أرض بور؟ ما هذا التشبيه يا خالتي؟ هذا وقت كانت مهمة المرأة إنجاب الأولاد فقط، كأنها آلة للإنتاج، يزوجونها مبكرا لتنتج أكثر، ليستفيدوا من بويضاتها قدر الإمكان، أما اليوم فالمرأة شيء آخر، في مجلسنا هذا فقط، هناك محامية، وطبيبة الغد، لدينا معلمة صغيرة هناك، ربما صيدلانية، النساء اليوم منتجات بطرق كثيرة لا علاقة لها بالزواج، أخرجن من هذه الصناديق المغلقة قليلا.

لم يرق كلامها لخالتها، لكنها لمحت ابتسامة الرضا على ثغر نجوى، فنظرت إلى بنات خالاتها وواصلت كلامها لهن.

-حققن أحلامكن وانجحن في حياتكن جميلاتي، أما الزواج فهو رزق ونصيب، لا نجتهد لنصل إليه، يضعه الله في طريقنا حينما يشاء هو.

ولأن الحديث أخذ مسارا غير الذي كان مقررا له، عرجن للكلام عن شيء آخر، إحداهن عن وصفة جديدة، وأخرى عما تعانيه مع أهل زوجها، أحاديث النساء للناظر من خارج الدائرة لا تشبه شيئا سوى فوضى كبيرة، لكن هن في الوسط يستطعن معرفة من تتكلم مع من، وعما تتكلم كل اثنتين، بعض الإناث ذات المهارات العالية تستطيع المشاركة في كل

المواضيع المتحدث فيها، تشبه لاعبا محترفا يراقب كل الثنائيات ولا يمكن للكرة أن تفلت منه.

رن إشعار الرسائل من هاتف عليا، قامت إلى المطبخ بحجة شرب الماء، وتفقد الرسالة التي كانت من علي.

"هل عرفت شيئا من ذلك الدفتر؟"

استاءت قليلا وقالت لنفسها أنه حتى لم يسأل إن كانت قد ارتاحت أم لا، وكأنه سينقص من طوله لو فعل، وقتها وصلت رسالة أخرى.

"أتمنى أن قيادتي للسيارة كانت جيدة ولم أجعلك تتعبين؟"

جال ببالها سؤال غريب، هل أصبح هو أيضا شبحا يحوم حولها ويعرف فيما تفكر؟ ابتسمت من سخافة وجنون فكرتها ثم كتبت له أن لديهم ضيوفا ولا يمكنها قراءة ما فيه الليلة.

وقبل أن تعود إلى الجلسة النسائية، رن هاتفها مجددا، كانت آية هذه المرة، هي الأخرى نفذ صبرها لتعرف ما حدث في هذا اليوم، وقتها ردت لتخبرها أيضا بالوضع وصعوبة أن تحكي لها التفاصيل ولكنها أخبرتها أنها حصلت على الدفتر رغم أنها لا تعلم ما فيه حتى الآن.

استمرت سهرة الثرثرة إلى ساعات متأخر من الليل، استمرت القهقهة والأحاديث الكثيرة، استأنست عليا بالجميع ولم تشعر بحاجتها لتكلم علي الليلة، فكرت أنها قد تمنحه وقتا ليرتاح منها.

علي هناك في غرفته كان قد فهم أنها لن تتصل بحسابها الليلة، لكنه انتظر قليلا علها ترسل شيئا، ثم غاص في نوم عميق من التعب، فالبيت فارغ، لدى أمين مناوبة في المستشفى، مما يعني أن الجو كان جاهزا للدخول في سبات عميق.

قضت عليا يوم الأحد بين التفكير بعملها والتفكير في دفتر اسبيريتو، ثم قررت أن تدسه بين الملفات وتقرأ منه في بين الحين والآخر...

الرسائل

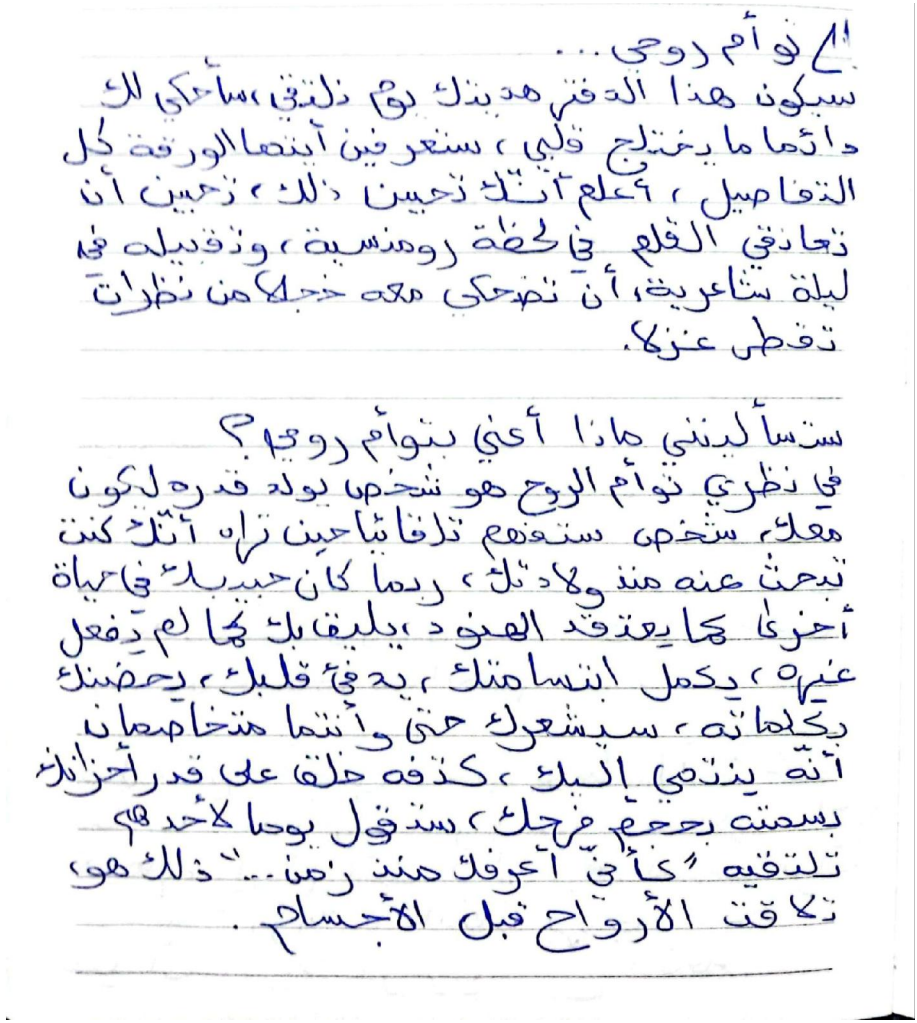

إلى توأم روحي...
سيكون هذا الدفتر هديتك يوم تلتقي، سأحكي لك
دائما ما يختلج قلبي، ستعرفين أيتها الورقة كل
التفاصيل، وأعلم أنك تحبين ذلك، تحبين أن
تعانقي القلم في لحظة رومنسية، وتقبليه في
ليلة شاعرية، أن تضحكي معه خجلا من نظرات
تقطر غزلا.

ستسألينني ماذا أعني بتوأم روحي؟
في نظري توأم الروح هو شخص يولد قدره ليكون
معك، شخص ستفهم تلقائيا حين تراه أنك كنت
تبحث عنه منذ ولادتك، ربما كان حبيبك في حياة
أخرى كما يعتقد الهنود، يليق بك كما لم تفعل
غيره، يكمل ابتسامتك، يدفئ قلبك، يحضنك
بكلماته، سيشعرك حتى وأنتما متخاصمان
أنه ينتمي إليك، كتفه خلقا على قدر أحزانك
بسمته بحجم فرحك، ستقول يوما لأحدهم
تلتقيه "كأني أعرفك منذ زمن.." ذلك هو
تلاقي الأرواح قبل الأجساد.

نادرا ما تحدث ويلتقي الناس هذا الشخص ولكن من يحصلون عليه يعيشون ما بقي من أعمارهم سعداء، سأبحث كثيرا، سأقلب الوجوه، أنبش القلوب، أغوص في العيون حتى أجدك، أريد أن أكمل حياتي معك، فقط بين يديك وبجانبك.

لم أفكر يوما كيف سيكون شكلك، يكفي أن تكون لك ابتسامة تجعلني أنسى من أكون، صدر يذيب همومي فتحضنني، أن يكون لك ساق لا تمشي بنا إلا إلى كل فرح في هذا العالم، بشرة شفافة أرى بها قلبك، يدان حين تمسكان وجهي أشعر بالأمان، عينان أرى من خلالهما هذا العالم جنة.

هل أبالغ؟ أخبرني صديقا يوما كما أبحث عنه، فقال أني سأموت أعزبا. هل تعتقدين ذلك؟ لا يهم، إن لم أجدك لن أرضى بنصف امرأة، بجسد وروح لا تليقان بروحي...

علي أن أتركك عزيزتي، إلى اللقاء.

مرّ زمنا طويل على آخر مرة كتبت لك فيها. هل تصدقين أنني وجدتك اليوم؟ نعم قد حدث أخيرا، عانقتك روحيا كما لم تفعل مع غيرك قبلا.

هناك على شاطئ البحر، على صخرة منزوية، كنت تجلسين وكأنك تحاورين هذا العملاق، شعرك المموج الذي يلعب به الهواء، بشرتك السمراء، سكونك، كنت ساحرة، تبدين كأنك الأميرة ياسمين، تمنيت وقتها لو كنت كعلاء الدين، فتحبينني من أول نظرة كما تحدث في القصص.

لم أتجرأ على الاقتراب منك، سأبدو كمتحرش وهو ما لا أراه لائقا بي، حتى أنني حاولت جاهدا غض بصري، لكن صورتك حفرت منا تلقاء نفسها داخل قلبي، حتى بعينين مغمضتين كنت أراك...

يا ترى ماذا يمكن أن يكون اسمك أيتها الملاك؟ هل اسمك ياسمين؟ أم أميرة؟

لم أقرر بعد، لكن أظن أن حورية البحر يليق بك أكثر، لا أستطيع قول حوريتي فأنت لست كذلك بعد ولكن سأفعل ما يليق بك لتصبح لي وأضيف باء الملكية.

الآن السؤال الوحيد الذي يسيطر علي، هل سأراك ثانية؟ هل سيضحك قدري فعلا معي؟

لا أعلم، لكن كل ما أعلمه أني وجدتك، هذا الشعور بالسعادة يتفجر داخل عروقي، لم أكن يوما كاتبا لكن هذا الاحساس يجعل الكلمات تنساب لوحدها، أود قول الكثير ولكن لا شيء يستطيع شرح مشاعري وفرحتي بك، لكن سأكتفي بتلك الصورة، شيء كحضن أم، كأن يحبك طفل صغير دون الجميع، كحلم لا تريدين الاستيقاظ منه، عندما تبتسمين ببلاهة ولا تجدين ما تقولينه.
أنا كذلك الآن...
ولذلك سأترك هذا الدفتر لأعيش سعادتي.
إلى اللقاء مع الكثير من الشوق.

عزيزتي حورية البحر

أرتاد نفس الشاطئ منذ أسبوع، لكنك لم تأتي، هل أنت من ولاية أخرى؟ أم أنك غير موجودة أصلا؟ هل كنت فقط أحلم؟.

مئات الأسئلة تدور بعقلي، ولا جواب لها، أشعر بخيبة أمل كبيرة لا أستطيع جعلها كلمات هنا، هي كعبرة تخنقني ليس إلا، كنت تائها في صحراء قاحلة ثم وجدت الواحة، لكن اكتشفت أنها مجرد سراب...

هل أعود إلى الشاطئ غدا؟ هل ستأتين؟ يبدو الأمر مبالغا فيه اشتقت لهدوئك والشعور الجميل الذي غمرني ونحن نشغل نفس البقعة من الكرة الأرضية.
في كل مرة أجلس فيها لانتظارك، كنت أفكر مثلا لو أنك ملك لشخص آخر، مثلا لو أن أحدهم سبقني إلى قلبك، وقتها أفضل غيابك هذا على هذا الجواب...

خطرت ببالي نظرية غريبة، إذا كنت أعتبرك
توأم روحي ومن أبحث عنها منذ زمن، ألا
يجدر بك أن تعتبريني كذلك، ماذا لو كنت
قد وجدت توأمك في شخص آخر ولم
أكن أنا المفروض أننا كقطبي المغناطيس،
نتجاذب تلقائيا، لا يمكن أن تنجذبي
لشمال آخر وأنا موجود يا جنوبي...

هذه الأخيرة جعلتني أشعر بتشويش
كبير، كأن عاصفة هوجاء مرت بعقلي،
سأذهب إلى قاعة الرياضة لتفريغ هذه
الطاقة السلبية..

إلى اللقاء ياحورية البحر الساحرة، فهي
رسالة أخرى قد أكون وجدت تلك وفقدتها.

أيتها الجميلة

ما زال انتظاري قائما، لكن لا أخفيك سرا، شعلة الأمل بدأت تخفت، بدأت أقتنع بعدم وجودك، وأنها كانت مجرد مصادفة غريبة لن تتكرر.

أواجه مشكلة كبيرة، تذكر أمي أن تخطب لي احدى بنات أختها، أعلم ستقولين أني لا زلت صغيرا على الزواج، لكن نحن أبناء القرى نتزوج مبكرا، ونتزوج من أقاربنا، وهو الشيء الذي لا أريده، ناهيك عن الجانب العلمي الذي يجعل هذا النوع من الزواج سلبيا بسبب الأمراض التي يورثها أرضية خصبة للظهور، فتاة قريبتي مهما لا تستطيع أن تكون ملفتة لك في نظري، عشت معها ما يوفق العشرين سنة، ثم ستكمل معها ما بقي من عمرك، حتى عندما تقرر أن تحكي لها عن نفسك، ستجدها تعرف كل شيء، لا مجال لتلك البطولات، أن تتزوج غريبة لك هو أن تكمل روتين حياتك دون أي تجديد، نفس العادات، نفس الأكلات،

نفس اللهجة حتى، لا جديد يذكر، خصوصا إن كانت قريبتك هذه جارتك كما هو الحال معي.

على أن أقنع أمي بشكل أو بآخر أن تصرف النظر عنها، على فكرة أمي اسمها خديجة، طيبة جدا، لا أقول هذا لأنها أمي، ولكن كل سكان القرية يقولون ذلك ويحبونها جدا، وتريد كل البنات أن تصبح هي عجوزتهن، ليس لأنهن يردنني، ولكن لأنهن يردن عجوزة مثلها، يوم يستعرفن عليها ستحبينها وستحبك، متأكد من ذلك وسأعيش سعيدا بينكما وسيدخل البيت الجنة أخيرا.

سأخبرك لاحقا كيف انتهى الموضوع، إلى رسالة أخرى أيتها الحورية.

لا وقت لدي لكل عبارات التحية، أكتب لك اليوم وأنا على بعد مترين على الأكثر منك..

نعم وجدتك مجدداً، على نفس الشاطئ ونفس الصخرة، لكنك لست بمفردك اليوم، معك فتى صغير، ربّما هو أخوك الصغير، كان يشبهك قليلاً، اقتربت قليلاً وجلست على مقربة منكما، لا أنوي أن أثني على شكلك الذي هو لن أجيد وصفه مهما حاولت، لكن ابتسامتك لا يمكن تفويتها، تملكين تلك الابتسامة التي تشعر المرء أن العالم كله يبتسم، وأنّ كل مخلوقات العالم سعيدة، تلك العصافير تغني فرحاً والحيتان ترقص في قاع المحيطات، الأشجار تستند على الرياح لتبدي فرحها، أما نحن البشر فنبتسم لك ببلاهة تلقائياً، هل تشعرين أني أبالغ؟ أبداً، كلما ينقص أن تصبحي يوماً ما شخصاً آخر لا أنت لتفهمي ما أقول...

حدثني آخر رائع اليوم، عرفت اسمك، عليا...

Member:

هو اسم نادر قليلا في بلدي، لكني أحببته
وجدته في ١٨ تشرين عن صفات حاملته فضولا
لا أكثر رغم معرفتي أنه مجرد كلام بنشر،
لكن عطشي للتعرف عليك لم يعد يكتفي بشيء،
قالوا أن عليا تتمتع بالرقة والهدوء وهذا
واضح جدا لي، وهذا أول ما أحببته فيك،
متمسكة بالحق وهذا أمر أريده حقا، قيادية
ومتصالحة مع ذاتها، بدأت أشعر أنهم
يعرفونك ويصفونك شخصيا، إضافة إلى
أنك تجد في نظرتها الحياة، تعشق الفن
وتحب تعلم اللغات..... رائعة أنت إذا.

أشعر برغبة كبيرة لافتعال أمر ما للتحدث معك
لكن لم أجد شيئا مقنعا، ليت الفتى الذي معك
كان طفلا، لكان حجة رائعة.
سأكتفي بمرا قبتك.
إلى رسالة أخرى عليا.

مرحبا فنانتي ، ها نحن نلتقي مجددا في رسالة جديدة ستستغربين كما قلت فنانتي، ببساطة لقد التقينا مجددا ، على نفس الشاطئ، لكن هذه المرة هناك غير ذلك الفتى من يشاركك الجلسة ، أوراق، أقلام وألوان، رسامة أنت إذا، لم يخطر تخليل اسمك إلى الآن يا أيا شئ، أظن أنا حظي بك أعظم مما كنت أتخيل ، الفنانون عادة هم استمرارية الأنبياء، لهم وحيهم ورسالتهم التي يناضلون لأجلها، لهم أنصارهم ومن يؤمنون بهم، لذلك فأنا أكن لهم احتراما خاصا، الكتاب، العازفون، الرسامون، الملهمون، كلهم على قدر عال من الإحساس، مرهفون كالنسيم، يتأثرون سريعا، غالبا ما يكونون مزاجيين، أصحاب أذواق خاصة، الجلوس معهم راجع إلى درجة ارتياحهم لك، بالنسبة لي هم ووجودهم في هذه الدنيا نعمة عظيمة من الله، يجب أن نشكرهم ونشكر الله قبلهم وأن نخبرهم كما يليق بهم.

ستتساءلين من أين أعرف كل هذا؟ من أختي طبعا، منى هي أيضا تحب الرسم، لكنها تفعله بطريقتها هنا في قريتنا تتعلم البنات الحرف اليدوية كل حسب ميولها، الخياطة، التطريز وغيرها، منا صغرها منى تعلمت التطريز، ثم دمجته بحبها للرسم، أصبحت ترسم لوحات أو حتى تعيد أخرى، ثم ترتبها في إطار لتصبح لوحة جديدة، وليس لأنها أختي أقول هذا ولكنها فعلا مبدعة، لم يسمح لها والدي بالانخراط في مدرسة للفنون لكنها كونت نفسها من دروس على اليوتوب، أشعر أنكما ستصبحان صديقتين،

هل تعلمين ماذا خطر ببالي؟ ربما تستطيعين أن تساعديني في الإيفاء بوعدي لها بتحقيق حلمها وتقديم فنها إلى الناس، ستفعل ذلك نحن الثلاثة يوما ما.

بدأت ألاحظ أن أحلامي معك تكبر كل يوم كطفل صغير، أصبحت أغذيه وأعتني به، التفكير في أني قد أفقده يوما ما بلا

رجعة يؤرقني، ليتني أنهي هذه السنة سريعا،
ومنا ثم أجد عملا مباشرة، تضحكين الآن
أعلم فهذا أبدا لا يحدث في وطني هذا
لكن لا قيد للأحلام...

دائما عندما أصل إلى مقطع الأحلام أحب
العوم فيها معك و أغادرك هنا.
إلى اللقاء أيتها الملهمة.

إلى عليا...
ركزت في يديك اليوم، لا خاتم فيهما، رقصا قلبي لذلك، هذا يعني أن أحدهم لم يسبقني إليك...
وأنا أقلب نظري بين أصابعك، خمنت قليلا، ربما ذكّرني تحبين أحدا آخر، ففزت فكرة أخرى إلى عقلي، ماذا لو كان للمحبين علامة مميزة مثلها مثل الخطيب أو الزوج، مثلا ورد في جيب على صدرنا، شريط أحمر على معصمنا، أو حتى خاتم يحمل قلبا مثل ذلك الذي يحمل حجرا واحدا.
لو كان ذلك ممكنا لما عشت كل هذا الضياع، كنت عرفت في أي خانة أضع نفسي، هل أواصل السير إليك أم أقتل هذا الحب في قلبي قبل أن يقتلني أعزبا.

لكنا لو طبقت هذه الفكرة هنا، لقتل الآباء بناتهن، ولما بقي حب منا أصله، فالفكرة المكونة عن الحب وكيف أصبح يُمارس شوهته كثيرا، لا يوجد أب سيقبل أن يسمع سيرة ابنته

تتناقلها الألسنة، وبدل قطع هذه الأخيرة فهو يقطع وريد ابنته، هذا على الأقل في قريتنا، اتذكرت ذكرة الحب العذري وما كانت مع جميل بن معمر وبثينة،
على سيرة جميل تذكرت قوله

إني لأنظر في الوجود بأسره
لأرى الوجوه فلا أرى إلاك
قالوا ويخلق أربعين مشابها
من أربعينك لا أريد سواك.

لا أدري إن كنت تعرفين معنى أن تحبي من طرف واحد، هكذا من بعيد فقط، بدون أي أمل، سأصف لك ما أشعر به علك تفهمين، كأنك في صحراء بدون حدود، ترين أحيانا واحة فيها كل ما يجول بخاطرك، واحة تحمل أحلامك، تهيمين بها لكن لا تعرفين إن كان لها صاحب، لا تعرفين إن كان يجوز لك تملكها، تخافين الاقتراب منها، تجلسين هكذا كما اجلس الآن وتراقبينها بفم مفتوح

مبهورة بجمالها ليس إلا، حب يغلفه الخوف
والألم، تيه كبير بين الأمل وفقدانه

سأتركك الآن إلى رسالة أخرى، لأواصل
عيش أحلامي معك فالواقع مؤلم.

مرحبا بك.

كيف حالك؟ أشعر اليوم أني أكثر اشتياقا من ذي قبل، ذلك المكان الذي تشغلينه في قلبي يكبر دون إذن مني، حتى أني لم أكتب لك كثيرا في آخر فترة، لأني بذلك أشعل لهيب خيالك بعقلي، أحرق نفسي به، وذلك أصبح متعبا، لا تفهميني خطأ أنا أبدا لا أشتكي من هذا الحب لكن أريد أن نحترق سويا به.

اكتب لك اليوم لأني جد سعيد، اليوم بعد اسمك وأنك رسامة، عرفت أنك تدرسين الحقوق، وهذا فوق حلمي بكثير، أنت لا تدركين معنى أن تكوني في هذا المجال، عندما نتحدث وجها لوجه سأخبرك عن قضية عمري، أعلم أنك ستحبين أن تكونين قضيتك، على فكرة أحسدكم أنتم المحامون كثيرا، فأنتم وحدكم تستطيعون نصرة المظلوم وإحقاق الحق.

كالعادة ستسألين كيف عرفت أنك ستصبحين محامية، ألم تشاركي اليوم في تجمع لنادي

خاص بالمطالعة؟ كنت أنا أيضا بيذكم أو بالأحرى أتى انضممت لأجلك، كان كلما اقترب دورك للتعريف عن نفسك، يخفق قلبي بسرعة أكبر إلى أن ذكرت صوتك من حنجرتك، "عليا، طالبة سنة ثالثة حقوق، أقرأ الآن "قواعد العشق الأربعون لإليف شافاق...
وأنت تتحدثين عن الكتاب وكيف أصبح صديقك، شعرت بقليل من الغيرة من شمس التبريزي الذي أبهرك، وكثير من الفرحة، فطريقتك في الكلام عنه وعن روحانيته جعلني أرى جانبا آخر من شخصيتك.

مشاعري اليوم كانت جد مختلطة، فبعد فرحي بتخصصك وسماع صوتك ومشاركتك نفس الجلسة، خطر ببالي قولك أنك في السنة الثالثة، مما يعني أنك أكبر مني سنا،
فهل سيشكل هذا عائقا لنا مستقبلا؟
أنت النساء حتى من يكونا في نفس سنكن تجدنه غير لائق، رغم أن السن مجرد رقم، الأهم هو الروح، العقل، الأخلاق وليست

أذكر دفئ ولكني أجد بي نا منجا بها يكفي، لا يخفى عنك أننا من ذكور في الدشرة نصبح رجالا سريعا، سنواصل نقاشنا هذا يوما ما....

سأسألك يوم أفض بما يجول بخاطري عن الحجاب، لن أكذب عليك، اليوم وهم ينظرون إليك وشعرك الجعد يتطاير اعتصر قلبي لذلك مع علمي أن لا حق لي في ذلك، لن أناقشه معك من الناحية الدينية فتلك لا كلام لي فيها بعد كلام الله تعالى، ولكن سأحدثك عن تلك النظرات التي توجه إليك، كيف تطعن قلبي.

تحدثت كثيرا اليوم على غير العادة، كأنه إحساس أنها ستكون آخر رسالة، هل سنتكلم في لقائنا القادم؟ ربما...

سأصمت الآن وأغمض عيني وأكمل حديثي معه دون شهود، لا ورقة ولا قلم، إلى رسالة أخرى إن كان في العمر بقية.

-18-

كانت فعلا تلك رسالته الأخيرة، قلبت الصفحات بعدها كثيرا لكنها لم تجد شيئا، الصدمة التي تملكت عليا لم تجد لها بابا للخروج منها، كانت تراجع الأحداث من وجهة نظرها، فعلا ما قاله حدث، تجلس عادة على نفس المكان في الشاطئ، عبارة عن صخرة منعزلة قليلا، تأخذ علاء معها أحيانا خاصة إذا كان الوقت متأخرا أو طلب هو مرافقتها، كما أنها عضو غير دائم في نادي القراءة بوهران، لقد قرأت قواعد العشق من قبل وتحدثت عنه في إحدى الجلسات وقد هامت بشمس التبريزي وتمنت لو أنها التقته لربما كان قد أخبرها عن هالاتها المحيطة بها، فتحت الفايسبوك، وبحثت في صور النادي الذي تشارك به علّها تجده هناك، لم تعرف بالضبط ما الذي تريد اثباته لنفسها، هل حقيقته؟ أم أنه لم يكن شبحا منذ البداية؟ وبعد بحث طويل وجدت الصور، وفعلا ما قاله صحيح كان واحدا من الحضور، حتى أنه كان يقف قريبا منها، بينهما شخص واحد، لكنها لم تنتبه لوجوده ولا بأي شكل ولم تستطع تذكره، ربما لأنها أصلا عادة لا تنتبه للآخرين، ومما بقي عالقا بعقلها من الرسائل أيضا أنه شغف بها حبا، كان فقط ينتظر تخرجه لخطبتها، وأخيرا فعلا كانت هناك قضية لتساعده في حلها وهي لا تعرفها لحد الآن.

انتظرت نهاية الدوام بصعوبة، ثم حملت حقيبتها وقصدت بيت آية، عقلان ربما سيتحملان هذه الحادثة، هي لم تعد تعرف أين ستذهب، ماذا سيحدث مستقبلا، هي حتى لا تدرك كيف تهضم الماضي.

إحساس غريب أن تعرف أن أحدهم كان يراقبك طول الوقت وأنت لم تلاحظه، فكرة المعجب السري هذه مخيفة، لو كان على قيد الحياة واستطاعت التعرف عليه لكان الأمر أقل هولا، أو ربما حتى كان الأمر رائعا.

كانت تقف أمام الباب تنتظر بصبر نافذ أن تفتحه آية، تريد أن تفرغ ما بجعبتها بسرعة، وما كادت هذه الأخيرة تفعل حتى مالت عليا عليها بكل جسدها تعانقها، وكأنها تتخلص من توترها بذلك وهي على ثقة أنها بالعناق سترتاح.

وهذا ليس أمرا نفسيا فقط بل وقد أثبته العلم أيضا، فالعناق يساعد الجسم على إفراز هرمون السعادة (الأوكسيتوسين) خاصة لدى النساء، كما أنه يخفف الألم، الإرهاق والقلق، هو بالمختصر كأن شخصا يخبرك أنه مهما حدث هو بجانبك، لذلك يترك جسمك نفسه لهذا الشخص، وهذا بالفعل ما كانت تبحث عنه عليا. بكثير من الدهشة بادرت آية بالسؤال.

-ماذا حدث عليا؟ أخبريني.

-هل خالتي فاطمة هنا؟

هزت آية رأسها نافية، فأمسكتها عليا من يدها مباشرة وسحبتها إلى الغرفة، توجهت آية مباشرة إلى حيث أغراض الرسم الخاصة بصديقتها، فقد خمنت أنها تحتاج أولا لترتيب أفكارها على الورق كما هي عادتها، لكنها تفاجأت بها تسحبها من ذراعها إلى السرير.

-لا وقت لدي ولا طاقة، هذه المرة أريد أن أحكي.

هزت أية رأسها مجددا لكن هذه المرة موافقة وأخبرتها أنها كلها آذان صاغية، أخذت عليا نفسا عميقا ثم قالت:

-كان يحبني

-من؟ علي؟

-لا، بل اسبيريتو، كتب كل ذلك في دفتره الذي طلب مني إحضاره من منى، هل تتخيلين؟، كتب عن كل تلك المرات التي تقاطعت فيها طرقنا، تلك الصدف التي لم أنتبه لوجوده فيها أبدا، شعرت أنني أشاهد حياتي من كاميرا أخرى، كأنه تصوير لمسلسل ما، حيث هناك من ينقل لنا الوقائع من وجهة نظر ثانية، الأهم من ذلك كان يحبني كثيرا، آه لو تقرئين كلماته، جعلت مشاعري تختلط ببعضها، لم أتوقع يوما أن يكون هناك شخص يبني حياته معي في أحلامه، شخص يكتب لي بكل ذلك الصدق، للحظة تمنيت لو أنه لم يمت، أو أنه تحلى بالشجاعة في أحد تلك اللقاءات وكلمني، حتى وإن كنت أعلم أن ما منعه ليس الشجاعة وإنما مبادئه الدينية، آه لو تعلمين كمية الأسئلة والكلمات التي بداخلي، إنها لا تنتهي...

قامت آية من مكانها وعانقت صديقتها وحاولت التخفيف عنها ببعض الكلمات

-كل ما يدور بعقلك الآن لا فائدة منه، فهو قد انتقل إلى رحمة الله، كنت تودين أن تعرفي لماذا اختارك أنت وها قد عرفت وهذا يكفي، ستتعبين نفسك بالتفكير ليس إلا، لو وليت لا يفيدان في شيء سوى تمزيق القلوب، قولي الحمد لله على كل حال وابدئي التفكير في الخطوة القادمة، كلما أسرعت في الخطوات كلما تخلصت من هذه القصة سريعا.

كانت كلماتها دليل عليا لمعرفة الراحة النفسية، ما تقوله آية منطقي جدا، لكن ذلك لم يمنعها من البكاء قليلا، لم يكن حزنا ولكن ضغطا، تذكرت أن عليها أن تقابله مجددا لمعرفة ما القضية، كما عليها أن تحادث علي، عليها أيضا ألا تهمل عملها بالمكتب، ثم أنها وعدت منى بمساعدتها، شعرت أن هذا الكون يطبق الخناق عليها، طلبت من آية أن تحضنها لوقت أطول علها ترتاح.

في مكان آخر من وهران الجميلة، كان علي يفكر في كلام علاء، ثم يتذكر ردة فعله يوم التقى عليا لأول مرة، تذكر كيف كان يفكر وهو صغير، أنه على أمين أن يتزوج أمينة، وجميل من جميلة، أن ياسمين مثلا يجب أن تتزوج برجل يدعى ياسين لأنه الأقرب إليها، كان يتعب نفسه لإيجاد الأسماء المتقاربة، ولطالما اعتقد أن أولئك الذين لا يجدون أسماء مطابقة يتزوجون بدون حب أو يبقون وحيدين، كما هو الحال مع اسمه، فماذا يمكن أن يكون مؤنث علي؟ كبر بعدها وفهم أن الموضوع مجرد سذاجة طفل ليس إلا نسيها مع الوقت، لكن يوم عرفه المحامي ياسين على عليا تذكر أفكاره الطفولية، ضحك داخله، ثم نظر إليها فأعجبه ما رأى رغم

تظاهره الدائم أنه لم ينتبه لها قبلا وأنه ليس مهتما بها ولكنه بينه وبين نفسه يدرك إعجابه بها منذ أول يوم جمعتهما فيه الحياة، وبينما هو يقفز بين طفولته وشبابه، رن هاتفه، كانت الساعة تشير إلى العاشرة ليلا...

-هل حدث شيء لتتصلي بهذا الوقت؟

ردت عليا من الطرف الآخر بصوت متعب

-لا، لا شيء، آسفة على إزعاجك، نتكلم غدا إن لم تكن متفرغا.

-كنت مستلقيا أفكر قليلا ليس إلا، قلقت عليك لأنه ليس من عادتك محادثتي في هذا الوقت، هل قرأت الدفتر المقدس؟

-نعم قرأته.

-ما سره الخطير إذا، لماذا أنت؟

-لا شيء مهم، كان يحبني من طرف واحد وقد علم بطريقة ما أنني أدرس في كلية الحقوق ووقتها قرر أن أكون أنا محاميته.

-هاه يحبك إذا، سأقول لك شيئا، ولكن لا تخافي اتفقنا؟

-لم يبق شيء لم أسمعه في آخر فترة، فقل كل ما تريده لم تعد تفرق.

-أنت تسرعين لحل المشكلة لأجل التخلص منه، لكن في هذه الحالة، أقصد وهو يحبك سيكون صعبا.

حل الصمت على الوضع لوقت من الزمن حتى قرر علي قطعه.

-أمزح علوش أمزح.

ابتسمت خجلا وسعادة عندما قال علوش، ثم عادت إلى جدية الموقف.

فعلا تظن أنه لن يكف عن ملاحقتي؟

-لا، كنت أريد مضايقتك ليس إلا، ماذا سيفعل بك اسبيريتو بعد أن تفك قضيته؟ لا شيء طبعا، ربما سيراقبك من بعيد، أو يرسل لك إشارات لن تنتبهي لها حتى، كأغنية مثلا توضع بمجرد أن تدخلي مكانا ما، أو ربما يشد انتباهك إلى جملة هنا أو هناك ولكنك ستقولين صدفة ولن يخطر هو على بالك أبدا، ارتاحي الآن ولا تفكري في كل هذا.

تنحنح قليلا وكأنه يتحضر لحديث مهم ثم أكمل.

-سأتقمص شخصية الحكيم في المسلسلات الآن ولا تضحكي اتفقنا؟ التفكير والخوف من القادم من حياتنا يفقدنا لذة اللحظة، ولا يغير من هذا المستقبل شيئا، فالصباح سيأتي إن نمت قريرة العين أو سهرت حتى تشرق الشمس، لذلك توكلي على الحي الذي لا يموت ومن لا تأخذه سنة ولا نوم ونامي.

-معك حق، متعبة أنا أصلا، تصبح على خير.

-نوم العافية علوش.

كرر الاسم لأنها لم تعلق باستغرابها له في أول مرة وكأنه أخذ بذلك الموافقة، وابتسمت هي هذه المرة أيضا موقنة أنه أصبح اسمها من اليوم فصاعدا، وضع هاتفه جانبا وترك نفسه لموته الصغير، بينما لم تقصد هي ما قالته آخر الأمر، وقررت أن تستدعي محمد لتعرف ما هي الخطوة القادمة، كما يحدث في كل مرة كان الخوف يغطي كل المشاعر الأخرى، لكنها لا تملك حلا آخر، أحضرت الورقة ولوحة الحروف وقلما ثم نادت

باسمه مسرعة وأتبعته بطلبها أن يكون الحوار كما المرة السابقة، سمعت الدقة لتي تخبرها بقدومه.

-ما هي القضية؟

-س ت ع ر ي ف ي ن م ن ص د ي ق ي إ ل ي ا س

-ستعر فين من صديقي إلياس، ومن صديقك هذا؟ اختصر الطريق وأخبرني أنت.

- ق ص ة ط و ي ل ة و قد ا ن ت ه ت ب ق ت

-قصة طويلة وقد انتهت بق... بماذا انتهت؟

انتظرت أن يكمل ما بدأه لكن دون جدوى اختفى مجددا، قامت إلى حيث تركت ملف قضية موته تبحث عن معلومات عن صديقه هذا، فكرت في أن تعاود الاتصال بعلي، لكنها أجلت الموضوع إلى الصباح فالوقت فعلا تأخر وستصبح مزعجة هكذا.

داخل مطعم في شارع العربي بن مهيدي، وعلى طاولة بعيدة عن عيون المارة، كانت عليا وعلي ينظران إلى بعضهما في شيء من الشعور بالانزعاج، هذه الحكاية تتجه إلى أناس آخرين، تجاوزوا منى بصعوبة بالغة، وحتى لا يمكنهما القول أنهما تجاوزاها كلية، والآن عليهما أن يجدا إلياس.

-سأتكلف أنا بالحديث معه، لا بد أنه يذكرني من وقت وفاة صديقه.

هذا ما قاله علي حاسما الموضوع من وجهة نظره، حمل هاتفه وشكل الرقم ثم وضع سماعات الأذن، واحد له والآخر لعليا، عليا التي كانت تدعوا الله كثيرا حتى لا يكون قد غير رقمه، وكأن الله لم يشأ أن يردها خائبة خاوية اليدين.

-ألو السلام عليكم

-وعليكم السلام، هل أتكلم مع السيد إلياس؟

-نعم، تفضل.

-أنا المفتش زيتوني، لا أعلم إن كنت تذكرني لكن تصادفنا وقت موت صديقك محمد.

-مفتش؟ آه نعم ربما لا أذكر بالتحديد الأسماء فقد مر وقت طويل، تفضل بماذا أستطيع خدمتك سيدي؟

-أظن أن الموضوع يحتاج أن نلتقي.

-هل علي القدوم إلى مركز الشرطة؟

-لا، لا إذا كنت هنا في وهران يمكننا أن نلتقي في أي مقهى.

استغرب إلياس المحادثة كلها لكنه لم يجد طريقة للتهرب منه، كما أن الفضول كان قد لعب بعقله قليلا، نظر حوله قليلا ثم أجابه.

-أنا الآن في ساحة (بلاص دارم)، ولدي متسع من الوقت هل يساعدك الوضع؟

-رائع، انتظرني هناك في الحديقة، خلال عشر دقائق على الأكثر سأصل إليك.

أقفل الخط وطلب من عليا أن تعود إلى عملها وهو سيهتم بالموضوع، ويخبرها فيما بعد كل ما تمكن من معرفته، هزت رأسها موافقة وغادرا المطعم معا، أسرع علي الخطوات إلى إلياس، وصل الحديقة التي لا تبعد عنهما إلا قيلا، وأخذ يقلب بصره هنا وهناك، لكنه لا يذكر شكل هذا الشاب بالتحديد، أخرج هاتفه ليعاود الاتصال، حتى سمع أحدهم يلقي عليه التحية، كان شابا ذو لحية مهذبة، يرتدي عباءة بيضاء، ورغم وجهه الأسمر فقد اعتلاه النور، من أولئك الذين يرتاح لهم الخاطر عند رؤيتهم.

-المفتش زيتوني أليس كذلك؟

-صح، مرحبا بك سيد إلياس، أرى أن ذاكرتك جيدة.

-نعم، ورغم أنك تختلف قليلا عن شكلك أثناء الدوام.

-هل نجلس هنا أم ندخل إلى أي مقهى قريب؟

-بل نحضر قهوتنا إلى هنا.

جلبا كوبا قهوة وجلسا في أحد كراسي الحديقة، يفكر علي كيف يفتح الموضوع، ويفكر إلياس فيما قد يحتاجه مفتش شرطة، قرر وقتها علي أن يبادر بالكلام ويحاول سحبه منه دون أن يحكي له شيئا بخصوص اسبيريتو.

-لابد أنك استغربت من طلب لقاءك، في اليومين الماضيين وأنا أدقق بعض الملفات القديمة، مر بين يدي ملف صديقك، وقد كانت شهادتك بأن سبب الموت مستحيل أن يكون كما ذكر، وقد انتابني الفضول وأردت معرفة المزيد.

-قضيته انتهت وقد ذهب كل إلى طريقه، لا أظن أن الكلام عنها...

وقبل أن يكمل إلياس إجابته قاطعه علي.

-هل تظن أنه قُتِل؟

بدا التوتر على إلياس وكأنه وقع في الشيء الذي تهرب منه، وقد لاحظ علي ذلك.

-ما ستقوله لي سيبقى بيننا، لا علاقة له بعملي وإنما أمر شخصي وهذه ليست مراوغة شرطي لأخذ اعترافك.

-أنا لا أظن وإنما متأكد.

عدّل علي من جلسته ليركز مع ما سيقوله هذا الشاب، ثم خطر بباله أن يسجل كلامه لتسمعه عليا، وكان هاتفه جاهزا للقيام بالمهمة.

-ما سأقوله الآن هو ما كان يجب أن أقوله قبل سنة لكن... ستفهمني بعد سماعك الموضوع، أنا ومحمد كنا زميليْ غرفة في الإقامة الجامعية، وكما هي العادة في هذه الأماكن، في أول سنة لك تبدأ في اكتشاف الأشياء هناك، النظر إليها من الخارج، مجرد غرف كثيرة يأوي إليها الطلبة من عدة ولايات ليتناولوا عشاءهم، يناموا ويدرسوا، لكن بمجرد أن تبدأ في التوغل فيها يختلف الأمر، خلف تلك الجدران هناك منظمات، مافيا، تجار مخدرات وحتى المخنثون أو الأصح من يتحولون إلى مخنثين بفعل عوامل كثيرة هناك، حتى أنه قد تحدث جرائم قتل ويتم التستر عنها بطرق كثيرة غالبا يكون المال أهمها، بالمختصر تجد نفسك في مفترق

طرق، وأنت وحدك من يقرر أي طريق تسلك، يتحكم في ذلك شخصيتك ومدى قوتها، مبادئك ومتانتها وتربيتك وعمق تغلغلها.

-هذا تقريبا كلنا نعلمه، لكننا لا نملك الدلائل، كل الإقامات الجامعية تحتوي كاميرات مراقبة ولكنها مجرد ديكور على ما أعتقد، ونحن كشرطة لا نستطيع مراقبة الوضع من الداخل، على مدراء الإقامات ضبط الوضع والاستنجاد بنا في الحالات التي تستوجب ذلك، ولكن ما علاقة هذا بصديقك؟

-الدليل الذي تبحث أنت عنه هو سبب قتل محمد.

-كيف يعني؟ هل وجده فقتلوه حتى لا يكشفهم؟

-نعم بالضبط، كانت هناك منظمة أو سأقول مافيا، تبيع المخدرات إلى الشباب، تسهل ممارسة الجنس، توفر كل ما يخطر بعقلك، وكل شيء له ثمن، بالمقابل كنا نحن شبه نادي مهتمين بالثقافة والكتب، حفظ القرآن وما إلى ذلك، وقد قرر محمد محاربتهم، وكلنا انضممنا إلى فكرته، في بادئ الأمر كانت حركتنا سرية، نقوم بجمع عدد أكبر من الشباب وتوعيتهم، ضمهم ضمن حلقات الحفظ، حتى فكر محمد أنه وجب اجتثاثهم من الجذور، جمعنا بعض الصور، وعزمنا على تقديمها إلى الشرطة، وقبل أن يحدث ذلك، وفي إحدى جلسات تحفيظ القرآن بغرفتنا دخل زعيم التنظيم وطلب منا أن نكف عن هذه التجمعات بالحسنى لأنها تعيق عمله وإلا فإنه سيجد طريقة لإيقافها، غضب محمد وأخبره أنه هو من سيسجنهم وأنه يملك صورا وفيديوهات تدينه ومن معه، وبعدها بيومين اختفى صديقي والباقي تعرفه.

-لماذا لم تكن شهادتك هكذا وقتها؟ لماذا لم تعترف بأسماءهم؟

-أولا لأن هاتفي قد سرق، وأنا ومحمد الوحيدان اللذان نملك الدليل، وها قد فقدته، وثانيا فإن موته كان رسالة مباشرة لي بأني التالي.

-أقوياء لهذه الدرجة إذا؟

-الموضوع ليس بالقوة بقدر ما هو بالعدد والقلب الميت، لقد قتلوه بكل برودة، فقدت صديق عمري لأجل كم صورة ولم تكن لي أي نية بفقد نفسي.

-أفهمك طبعا لكن لو أنك بلغت لكانت الشرطة تكفلت بحمايتك.

-هل أقول شيئا ولا تعتبره شخصيا؟

-الظاهر أنك ستهين الشرطة، تفضل.

-من يضمن لي أنه ليس هناك من الشرطة من يعمل معهم؟ من يضمن بقاء المعلومات سرية؟ من يضمن أنكم ستنجحون في إثبات التهمة؟ الموضوع ليس بسيطا أبدا، نحن شباب عشنا بعيدا عن كل هذه الحسابات حتى تغلغلت لوحدها فينا، وقتها كان مستحيلا أن أغامر دون أن أحسب للقادم.

-والآن؟

-لا أعلم، لم أكن لأخمن أن هذه القضية ستفتح مجددا.

-لا يمكننا فتح أي قضية دون وجود دليل جديد أو شهادة، يعني أن وجودك مهم، تكفي شهادة تتضمن أسماءهم.

كان واضحا أن إلياس لم يكن جاهزا للإجابة، التردد كان يقفز من عينيه، يرقص على شفتيه، ولم يكن ممكنا ألا يلاحظ علي ذلك، وقد قدر كم أن هذا الموضوع صعب عليه، لك يحتاجه لفتح القضية، إذا بطريقة أو بأخرى عليه أن يقنعه.

-ليس مطلوبا منك أن تقرر الآن، أترك لك وقتا للتفكير، لكن فكر في سمعة صديقك، فكر في كل أولئك الشباب الذين يتم تسميمهم، في الحق الذي أصبح يضيع لأن من يعرفونه يخافون، يترددون...

سكت قليلا ثم أضاف

-علي المغادرة الآن، رقمي أصبح عندك، في أي وقت قررت ما عليك فعله، اتصل بي، تذكر قوله تعالى: "ولاَ تَلْبِسُوا الحَقَ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ".

ودّع إلياس علي بابتسامة بها شيء من الانكسار، فقد كان اختيار الآية القرآنية يضرب القلب في المنتصف، تخاطبه هو بالذات دون الجميع، بينما انسحب علي وهو مدرك لما فعله، شخص مثل إلياس لا يمكن إيلامه إلا بدينه وضميره.

أرسل التسجيل إلى عليا التي كانت كمن يجلس على جمر في المكتب، مباشرة تركت ما كانت تفعله ووضعت سماعاتها وكلها شغف لفك لغز جديد في حكاية اسبيريتو.

-20-

تجلس في غرفتها يعتليها الحزن والكثير من خيبة الأمل، فقد مر يومان منذ لقاء علي وإلياس ولم يتصل هذا الأخير، أرادت أن تستدعي اسبيريتو عله يدلها على دليل آخر لكن تراجعت في اللحظة الأخيرة بعد وصول رسالة علي.

-هل من غجر على هذه الجزيرة؟

-أتساءل كيف يبقى مزاجك دائما صالحا للمزاح؟

-من قوله تعالى: "وَلاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ" وقوله "وَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا" وغيرها الكثير، ما دام هذا الكون بيد الله فلا تتعبي نفسك بشيء فهو بيد الجبّار الذي لا يترك قلبا مكسورا إلا جبره، اللطيف بنا، الرحمان الرحيم، توكلي عليه وفقط.

-كلماتك جميلة حقا، هل يمكن شكرك على وجودك؟

-وجودي يفوق الشكر علوش، لكن يمكنني التوسط لك عند نفسي وقبول الشكر جافا.

-كنت سأسألك متى تعقل، ثم فكرت أن جنونك ما يجعلني أبتسم وسط كل هذه الفوضى، هل من خبر وارد من إلياس؟

-لا، ربما أتصل به غدا إن لم يفعل هو.

-هل أتحدث مع اسبيريتو؟

-انتظري إلى الغد.

ثم أضاف

-هاه بماذا سنتحدث اليوم لتستطيع هذه الخجرية النوم؟

-لا فكرة لدي...

-فلنتحدث عن الزواج.

قطّبت عليا حاجبيها استغرابا وهي تقرأ رسالته، مستغربة الموضوع الذي اختاره، لكنها لم ترد بشيء تركته هو يبدأ الموضوع، حتى لا يحدث أي سوء فهم لن تستطيع تخليص نفسه منه.

-لقد حدثتني مرة عن صديقتك آية، وبدت لي أنها عروسة جيدة جدا.

امتعضت من رسالته، وفكرت أن تخرج من المحادثة كلها، لكنه وقتها سيفسر الموضوع على أنها غارت عليه من صديقتها، ثم وضعت يدها على خدها وهي تفكر، هل فعلا هي تغار عليه؟، هل تحبه؟ ما هذا الجنون، لا يمكن أن تكون تحبه، هو التعود ليس إلا، ولأنها لم تكن تعرف أنه يبحث عن زوجة، قررت أن تكتب له أن آية أكثر من رائعة ويمكنه أن يبشر بمستقبل جميل معها، لكنها قبل أن تفعل وصلتها رسالة صوتية.

-لدي صديق رائع هو الآخر، يبحث حاليا عن فتاة طيبة بغرض الزواج، طلب من والدته ذلك لكنها رفضت أن تختارها، شيء من التهرب من مسؤولية ما تؤول له العلاقة مستقبلا، ما رأيك أن نجمعهما؟

تنفست الصعداء أولا أنها لم تكتب الرسالة وثانيا أنه لا يريدها له، لا تعلم لما لكنها ارتاحت بشكل كبير، حتى أنها ضحكت بطريقة مليئة بالسعادة.

-هل ما زلت هنا؟

تداركت وقتها أنه عليها أن ترد على رسائله.

-هنا نعم، أخبرني قليلا عن صديقك وسأرى إن كان يليق بآية.

-اسمه أمين، مثلي من مستغانم، يبلغ من العمر 33سنة، مختص في الطب الشرعي، على قدر كبير من التدين كما أنه طباخ جيد، أو ربما

الجوع من يجعلني أعتقد ذلك، شخص طريف يحب المزاح كثيرا، يسكن معي بالشقة نفسها، ماذا تريدين أن تعرفي أكثر؟

-شكله...

-هل هو مهم بعد كل ما قلته؟

-طبعا ما قلته مهم، لكن الشكل أيضا له أهميته.

-ربما لهذا لا توجد من انتبهت إلي رغم صفاتي الكثيرة، إنه الشكل إذا.

همت بأن تكتب له أنه وسيم، وأنه يكفي أن يبتسم ليجد الكثيرات يسرن خلفه، أو كما تقول جميع الأمهات، ألف واحدة تتمناه، لكنها تراجعت ولم تعلق على ذلك أبدا، بل أخبرته أنها تنتظر أن يصف صديقه.

-لا يمكنني وصفه، يبدو الأمر غريبا بالنسبة لي، لكن سأرسل لك صورته.

بعد بعض الوقت وصلت الصورة، كانت لعلي وأمين معا، أخذت وقتا كافيا وهي تتأمل علي، ثم ألقت نظرة خاطفة على أمين، كان وسيما، مهتما أكثر من صديقه بتصفيف شعره ولبسه، له عينان تبدوان ضاحكتين، وغمازة على خده الأيسر خلقتها ابتسامته.

-هل انتهى الفحص؟

-وسيم، لكن كيف سنجمعهما؟

-يجب أن تبدو صدفة، فكرة اللقاء المدبر ستكون محرجة للاثنين معا، كما أنهما لن يكونا على طبيعتهما.

-معك حق، كما أنه يمكن أن تفقدني بطعنة من سكين آية فهي لا تحب هذه الأشياء.

سكت كلاهما وهما يفكران في طريقة يجتمع بها هذان الاثنين وكأنه لقاء طبيعي، وكأن عليا كانت أسرع في هذه المواضيع من علي.

-حلها عندي، سأرتب الموضوع في رأسي ثم ننفذه سويا.

في تلك الأثناء رن هاتف علي، وكان المتصل هو إلياس، أخبره أنه قد وافق على أن يساهم في فتح القضية، شريطة أن يجد له مخرجا من شهادته السابقة، أخبره علي وقتها أن شهادته الحالية ستكمل شهادته السابقة وانتهى الأمر، ودون أي تأخير نقل الخبر إلى عليا التي كادت أن تطير من الفرح.

قررت أن تقابل محمد لكن هذه المرة وجها لوجه، لملمت شجاعتها من زوايا الروح وأعماق القلب وقالت اسمه وهي مغمضة العينين، شعرت بنسمة باردة قد سارت بالغرفة، رافقتها قشعريرة بجسدها، خفق قلبها بسرعة لذلك، شعرت أنه هناك، كانت تردد داخلها بأنها قادرة على فعلها، بأنها تستطيع، الخطوة الأولى فقط صعبة ثم سيكون كل شيء على خير، ثم فتحت عيناها لتجده يقف بالقرب من النافذة هناك بعيدا عنها، بنظراته الموجهة إليها ووجهه الرخامي، عدل نظارة بحركة يبدو أنها لا إرادية التصقت به منذ كان حيا، ثم قال أخير بعد وقت تقاسما الصمت فيه.

-ها قد عرفت القضية، أريد منك إثبات أنهم تجار مخدرات وتخليص المجتمع منهم، ونشر الموضوع على مستوى الرأي العام لأجل أن تقوم الإقامات الأخرى بإجراءات للحد من الظاهرة.

-علينا إثبات أنهم قاموا بقتلك.

-ليس مهما، فوزي بالقضية ولا يهم الباقي.

-بل يهم، هل لديك دليل على قتلك، أي طرف خيط أبدأ القضية منه.

-هناك شاهد...

وقبل أن تسأله من هو اختفى من أمام ناظريها كما يفعل دائما، وبهذا زادت فرحتها، ستفتح القضية تجار المخدرات بشهادة إلياس، وقضية مقتل اسبيريتو بشاهده هذا، أي أن الموضوع لن يطول كثيرا، أو أنها هكذا تمنت...

حملت مصحفها لتقرأ ما تيسر من القرآن لتهدأ روحها، فبعد كل هذه اللقاءات لم تتعود على الوضع بعد، هل يمكن أن يتعود أحد على لقاء الموتى؟

ماذا لو أن الأحبة هناك في القبور يأتون ويجلسون بالقرب ممن يحبونهم، يقبلون الجبين، يمسحون الدمعة، يضمون الروح التي أنهكها التعب، هل سيخاف؟ من سينسى أنها مجرد روح ويذوب فيها؟ هذا ما كانت تفكر به عليا، فمثلا بدلا عن اسبيريتو كانت جدتها هي الزائرة، كيف كانت ستتعامل مع الموقف، لكنها خلصت أن الموضوع ليس له علاقة بماهية الشخص وإنما هي هيبة الموت، برودة الروح ووحشة القبور التي يفر منها الجميع.

-21-

إنه السبت أهلّ أخيرا، حيث تتنفس عليا وآية في شوارع هذه المدينة كعادتهما، كانت معنويات عليا مرتفعة مقارنة بمجمل الفترة الأخيرة التي عاشتها، تراقب هاتفها بين الفينة والأخرى.

-هل تريدين شيئا معينا أم نستمر في السؤال عن الأسعار فقط؟

هذا ما قالته آية وهي مستغربة من حالة صديقتها، وقبل أن تجيبها عليا رن هاتفها.

-ألو، صباح الخير علي...

ثم انسحبت قليلا لتكلمه دون أن تسمعها آية،

-آية، لقد كان علي هو المتصل يقول أنه هناك أمور علينا مناقشتها بخصوص القضية، هو في أحد المطاعم هنا، هل يمكننا قطع التسوق والذهاب إليه؟

-طبعا، فرصة أن نلتقي هذا العلي.

على بعد بضع أمتار منهما، داخل المطعم يجلس علي رفقة صديقه أمين على طاولة تطل على الشارع، لمحتهما عليا فأشارت إليهما بيدها وقد رد عليها علي بنفس الطريقة، بينما جذبتها آية من كمها وهي تقول

-من هذا الذي معه؟

-أمين صديقه، تعالي لن نمكث طويلا.

-يبدو أن علي يحب أن يحيطه الوسيمون من كل جانب.

ابتسمت عليا فأول بوادر القبول قد لاحت في الأفق، وكان نفس الحوار يدور على الطاولة هناك، بمجرد وصولهما وقف علي ورحب بهما ثم

عرفهما على أمين، وقدم هذا الأخير إليهما، وقد فعلت عليا نفس الشيء مع آية، التي جلست بكثير من الخجل، في حين أن عليا تظاهرت بالجلوس منتظرة أن يقوم علي بما اتفقا عليه.

-من فضلك عليا هل يمكننا الجلوس على طاولة أخرى، هناك ما أريد مناقشته معي بخصوص القضية.

ثم نظر إلى أمين وآية وأكمل كلامه.

-لا مشكلة لديكما، صحيح؟

قامت عليا معه وجلسا على طاولة بالقرب منهما لأجل المراقبة، ابتسم علي ثم قال

-السهل الممتنع، فكرة بسيطة لكن فعالة، علينا التظاهر بمناقشة أمر ما حتى لا نلفت الانتباه.

-حاليا أتحضر لكثير من الصراخ إذا لم يرق لها صديقك، لكن عن ماذا تريدنا أن نتناقش؟

-إلياس، علينا إيجاد طريقة لإثبات أنه كان مجبرا على إخفاء شهادته سابقا.

لم تستطع عليا التركيز فيما يقوله، كانت مشغولة بمراقبة آية.

-يبدو أن الأمور تسير على ما يرام، آية لا تجامل أحدا وبما أنها تجلس وتبتسم فهذا مؤشر جيد.

-بالمقابل أمين أيضا يبدو مرتاحا، الآن أصبح سهلا اقتراح خطبتهما أليس كذلك؟

-إذا ضحكت لصديقك فاعتبر الموضوع قد تم.

وقبل أن تكمل جملتها كانت آية تضحك من قلبها، نظرت وقتها عليا إلى علي ثم قالت.

-جهز نفسك لدينا عرس.

-تتحدثين وكأن رأي أمين غير مهم.

-ربما أنت لا ترى السرور الذي على وجهه، ثم إن صديقتي لا ترفض.

-قومي لنعود إليهم قبل أن يكشف أمرنا كما أنني أشعر بالجوع.

بمجرد أن جلست عليا قرصتها آية، ثم حملت هاتفها وكتبت لها رسالة، "أمرك مكشوف، لكن الشاب ظريف"

أثناء تناول الغذاء خطر على عليا أن تتحدث مع أمين في قضية التشريح

-سيد أمين هل كل ملفات التشريح تحفظ لديكم؟

-أولا أنا شخص لا يحب الرسميات ما عدى كلمة دكتور في المستشفى فلها طعم آخر، ثانيا نعم، كل المعلومات التي تسجل بعد تشريح الجثة تحفظ في ملف خاص، ثالثا هل هناك ما يمكن أن أساعدك به؟

-ربما يشرح لك علي لاحقا القضية وأنت من ستقرر كيف يمكنك المساعدة

تدخل علي قاطعا الحوار

-اقتراح جيد، دعونا الآن نستمتع بهذه الجلسة الجميلة

تدخلت آية التي طال سكوتها مقترحة أن تغادر هي وعليا ليكملا جولتهما شاكرة للصديقين هذه الدعوة، بمجرد أن خرجتا من المطعم، أمطرت عليا بالأسئلة، تريد أن تعرف كل شيء، أما هذه الأخيرة رفضت أن تقول كلمة

واحدة حتى تعرف رأيها به، على تلك الطاولة سرى الصمت بين الشابين، كل ينتظر الآخر ليبدأ الحديث،

-هاه ما رأيك بآية؟

-هل خططت لهذا اللقاء؟

-تجيب على سؤال بسؤال، تعرفني لا أحب الكذب، أجل فعلت، ما رأيك؟

-الفتاة تبدو ظريفة، ضحكتها حلوة تجعل وجهها طفولي، كما أن جلبابها أعطاها من الوقار الكثير، تحرجها من الجلوس معنا دليل على حياءها وتربيتها، عندما فهمت لعبتك وعليا، ركزت جيدا.

-أي بقي لنا أخذ موعد، باقة زهور وقالب حلوى جميل فقط.

-أقم العرس وارتح، انتظر حتى تعطيك التقرير عليا مساء ثم لكل حادث حديث.

-أخبرتني علوش أن علامات القبول كانت واضحة على ملامح صديقتها.

نظر أمين إلى صديقه وقد ابتسم بخبث، وكأنه أمسك به متلبسا.

-علوش إذا، هل أصبحت أنت عليلو أم ليس بعد؟

-مجرد اسم لا يخبئ وراءه أي نوايا، نحن صديقان فقط.

-على الأقل هذه المرة اعترفت بصداقتكما.

ثم وضع يده على قلبه وكأن هذا الأخير يؤلمه وهو يقول.

-أخذت على خاطري منك، صديقك منذ سنوات ولا أذكر أنك استعملت اسما دلع لي.

-كفاك سخافة ودعنا نعود إلى بيتنا، أرغب في قيلولة تليق بسهري كل هذه الأيام الأخيرة.

-علوش يا أخي، علوش هي السبب.

لم يجد علي ما يضيفه، قام ودفع الحساب وكما وعد أوفى، كانت سباتا لا قيلولة.

أكملت الفتاتان جلستهما في بيت آية، فبينما اشتاقت عليا للرسم مندمجة معه، كانت تجيب على أسئلة صديقتها.

-إذا هو طبيب متخصص في الطب الشرعي، يبدو الموضوع مخيفا.

لترد عليا عليها.

-لماذا؟

-شخص يقضي طول الوقت بين الأموات، شخص يفتح أحشاءهم، تخيلي مثلا كيف سيكون.

-تهولين الموضوع عزيزتي، فلو كان طبيبا جراحا لما قلت شيئا، رغم أنه أيضا يفتح بطون وصدور البشر، دعك من عمله وكلميني ما انطباعك عنه؟

-أما وأنه وسيم فقد اعترفت بها حتى قبل إدراكي لمخططك، ونحن نجلس وحدنا لاحظ إحراجي من الوقف، كان لطيفا لم يزد منه، حتى أنه اقترح أن يقوم وينتظركما خارج المطعم، أظنه قد سجل أهدافا كثيرة في جلسة واحدة.

-سأخبر علي أن هناك موافقة أولية.

وقبل أن تعترض آية كانت الرسالة وصلت، فقامت وأحضرت الشاي مع بعض الحلوى، يتكلمان في كل ما يخطر على بالهما، حتى أن آية حاولت سحب الكلام من عليا حول علاقتها بعلي، لكنها لم تفلح في ذلك، فهذه الأخيرة مصرة على أن ما بينهما شراكة عمل، أو ربما صداقة لا أكثر من ذلك.

-لا أتحدث عن العلاقة، أتحدث عن مشاعرك، هل تكونين سعيدة بالحديث أو التواجد معه؟ هل يخفق قلبك عندما يقول اسمك؟ إذا حدثك عن فتاة أخرى هل تنزعجين؟ هل يخطر على بالك طوال الوقت؟

أخذت عليا تجيب على تلك الأسئلة بداخلها، الراحة التي تزورها وهي معه، فرحتها عندما يقول علوش أو الغجرية، تذكرت عندما تحدث عن موضوع الزواج وهو يتحدث عن آية كيف غضبت هكذا من تلقاء نفسها، وفي الأخير بقي سؤال واحد عالق، هل هي تحبه فعلا؟ ظلت ساهمة إلى أن قطعت آية حبل أفكارها.

-تحبينه أكيد.

-كيف أكيد؟

-الرفض يكون دائما هو الأسهل عندما نكون لا نحب أحدا، بينما عندما نحبه نجد أنفسنا في هذه الحيرة الواضحة عليك.

-لا، فقط أفكر في مدى تعودي عليه،

-تعود؟ تمام موضوعك سهل إذا، بعد انتهاء القضية ستتعودين غيابه، فالإنسان يتعود بسهولة ويغير عاداته حين يشاء، ألا يقولون الإنسان ابن بيئته، أما إن كنت تحبينه فلن تتمكني من الخروج من دائرة اهتمامك به وبحثك عنه.

-تجعلين عقلي يتشوش.

وبينما هما كذلك، وصلت رسالة من علي يريد فيها حساب آية على الفايسبوك ليقدمه إلى أمين فالقبول موجود من طرفه أيضا، انتبهت إلى الساعة وقتها كانت الخامسة مساء، فإذا عليها الذهاب قبل أن يتأخر الوقت أكثر وتدخل في مشكلة مع والدها، أرسلت إلى علي ما طلب بعد أخذ الإذن من صديقتها وحملت أشياءها وعادت إلى منزلها.

-22-

يجلس علي، عليا وإلياس في مكتبة الكاتدرائية يحاولون التخطيط للمرحلة القادمة دون أن يلحقوا الضرر بأحد غير المذنبين، كان السؤال الذي يشغل بال إلياس، أن كيف سيخرج هو من الموضوع دون أن تتم معاقبته بتهمة التستر على الجريمة أو تظليل العدالة، حاولت عليا طمأنته.

-سيتم تقدير حالتك على أنها شهادة تحت التهديد، وهنا نأمل أن يتفهم القاضي الوضع وتكون عقوبة مخففة.

أكمل علي مهمتها وقال

-واضح أصلا من أحداث القصة أنك كنت خائفا، لكن إن سألك لماذا الآن؟

-سأقول الحقيقة.

نظر علي إليه في محاولة لفهم ما يريد قوله، هو لا يريد أن يبدو كأنه طرف في القضية ولا حتى عليا، فلاحظ إلياس ذلك فأكمل كلامه.

-ضميري هو السبب، منذ وفاة محمد وأنا لا أشعر بالراحة، لدي إحساس دائم أنه يجلس في مكان ما ينظر إلي بحسرة، وهذا الأمر متعب، محزن وثقيل جدا لتحمله عمرا كاملا.

ثم قال علي معقبا على كلام عليا الأول موجها كلامه إلى إلياس.

-قالت الأستاذة عليا أنه ستكون هناك عقوبة ستحاول هي جعلها مخففة مع مراعاة ظروف القضية، فهل أنت جاهز لأجل تحملها؟

كانت غيمة الحزن قد اعتلت إلياس، وكادت أن تمطر من عيناه لكنه تمالك نفسه وقال

-كان لدي أمل كبير أن أخرج من الموضوع بدون خسائر، لكن سأمضي قدما وأتحمل مسؤوليتي فأنتما لا تعرفان ثقل تأنيب الضمير، أنا السبب في حالتي الآن ولا يمكنني التراجع بعد أن بدأ انفراج الضيق داخلي، وقد فكرت في هذا الأمر أيضا وقد جهزت نفسي له، كنت أفكر في أن ما قمت به هو شهادة زور وهي من الكبائر، كيف سأقابل ربي بذنب كهذا؟ حرمني النوم لأيام وشهور، ولكن لأنه الله الغفور الرحيم سآمل أن تشملني رحمته وكما قال رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام: "أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له".

ابتسم علي وعليا وداخلهما فخر وتقدير له على قوته معترفان بالجميل له، خطوته هذه ستجعل القضية تنتهي كما يشاء لها محمد وبالتالي راحتهما من هوسها. أخذ علي زمام الأمور مجددا وقال.

-إذا يا شباب فلنتفق على ما يجب فعله.

تقدمت عليا إلى الطاولة ثم قالت

-أولا علينا تقديم طلب إعادة النظر في القضية...

بعد مدة بدأت النتائج تظهر، وأخذت أطوار القضية تسري كما خططوا لها، لكنهم واجهوا صعوبات كثيرات لإثبات كلامهم، فمن جهة الهاتف قد اختفى ومعه إثبات كلام إلياس، لكن شهادته كانت كفيلة بفتح القضية، إلياس قدم شهادة وافية تتضمن أسماء كل من كان يعرفهم داخل الإقامة وقتها، وروى الأحداث كما جرت، إلى أن وصل إلى وفاة صديقه والتي يشك أنه عمل مدبر وليست كما أرادوا لها أن تبدو على أنها موت إثر جرعة زائدة من المخدرات.

في هذه النقطة كان قد اتفق علي وعليا أن يتقاسما المهمة، سيكون عليها هي أن تقابل ايسبيريتو مجددا ليخبرها عن الشاهد، وسيحاول هو إقناع

أمين أن يبحث له في الأرشيف على ملف تشريح محمد وتقديمه كدليل إن كان هناك ما يثبت أنه قد مات مقتولا.

ذات مساء، عادت عليا تظهر عليها علامات التعب، لتجد نجوى تجلس في ركنها تحمل رواية تمضي بها ساعات وحدتها في غياب الجميع، جلست أمامها دون أن تقول شيئا، تكلمت نجوى دون أن ترفع عيناها عن تلك الوريقات.

-ماذا هناك؟ ما الذي يشغل بالك؟

-كيف عرفت أنك تحبين والدي، أو كيف أحببته رغم كم الفوارق التي بينكما؟

-من أين قفز هذا الموضوع إلى عقلك؟

-موضوع جميل أشتت به القضايا التي تتربع على تفكيري.

-سأحاول ان أصدقك.

وضعت نجوى الرواية جانبا وأمسكت بدلا عنها يد عليا وابتسمت بحنو قبل أن تقول لها.

-مبدئيا إنه لخطأ كبير أن يعتقد المرء أنه بالضرورة سيحب شخصا يشبهه، نحن عادة نحب من يكملنا، من يتحملنا، من يهتم لتفاصيلنا، وهذا ما فعله والدك وقتها، والدك أحب طيشي وأحببت اتزانه، أحب ضحكتي وأكملت ابتسامته، والدك أكمل شخصيتي، سأخبرك سرا، لقد كان والدك يشتري يوميا وردة حمراء من كشك جدك، ثم يتركها في ركن منزو غير بعيد مع رسالة لي، والدك لم يولد كبيرا كما هو الآن واقعيا، كان شابا حالما رومنسيا، لقد كنا وجهان لعملة واحدة ومع الزمن والمسؤولية أصبحنا هكذا.

-يعني أنك فقط أحببت اهتمامه بك؟

-ليس تماما، تقول جدتك البنت يطلبوها مية ويديها واحد، بادئ الأمر اعتقدت أني قد تعودت فقط عليه، يمر كل يوم، يلقي نفس التحية الصباحية، ينظر إلي بخجل دون أن يلفت انتباه والدي، يطلب نفس الوردة الجورية الحمراء، ثم اتلقى خطابه معها، كان يخبرني الكثير عنه، يحكي عن أحلامه، يخبرني عن جمالي من منظوره، في مرة طلب مني أن أترك له ردا أو علامة إن كنت موافقة عليه، ولكنني جلست في حيرة من أمري، هل يمكن لتعودي هذا أن يكون حبا؟ هل يمكن لهذا الرجل أن ينير حياتي؟ وبعد تفكير طويل قررت ألا أرد...

-وماذا حدث بعد ذلك؟

-اختفى والدك (وضحكت كمن يسخر من الموقف) **وقتها فقط أدركت حجم وجوده في حياتي من الفراغ الذي خلفه بعده، تراكم الجوري الأحمر داخل دكان أبي، واشتعل ركن الرسائل غبارا، وخيم الحزن علي، كنت أعتقد أني فقط أتسلى على كلماتك ولكنني اكتشفت أن روحي كانت تتغذى عليها، هنا أدركت أن هذا الرجل قد بلغ من قلبي ما لم يبلغه رجل قبله.**

-وكيف عاد؟

-هو لم يعد، أنا أصبحت أترك رسائلا ووردا أبيضا في زاويته، كانت تختفي دون رد، بادئ الأمر اعتقدت أن شخصا آخر يأخذها وهنا بدأ بعض الخوف يتسلل إلى فلربما يصل الأمر إلى والدي، فتوقفت أن وضعها، ولم تمر يومان حتى جاء ذات يوم وقصد أبي مباشرة، كانت علاقة تفيض كلاما صامتا، مكتظة باللقاءات التي لم تحدث، غزيرة بتناغم روحين لم يجمعهما لحن يوما.

ابتسمت عليا وعانقت أمها، شعرت أنها لم تحصل على الجواب الذي تبحث عنه، لكنها سعيدة أن لها أما وأبا ككمال ونجوى، شخصان اختارا بعضهما من بين الآلاف عن قناعة وحب، حتى وإن كانت لم تفهم كيف

يكون الحب دون كلام، دون لقاء، هكذا بمجرد رسائل ونظرات، وقتها أكملت نجوى كلامها وكأنها عرفت ما يخالج عقل طفلتها.

-الحب يا علوشتي روح تناسب روحك، ضحكة على حجم فرحك، كتف على قدر حزنك، حضن يحتويك، ولن تدركي كل هذه الأشياء إلا مع الوقت، لكن يمكنك التعرف على الحب، بفرح بدون مبرر عندما ترين من تحبين، سيكون أول من تفكرين به عند حزنك أو فرحك، ستفتقدينه سريعا، تحفظين تصرفاته، ستأخذين منها أحيانا، بعد فترة ستجدان من بعضكما صورتان تكملان بعضهما. هاه أخبريني هل من خاطب على الباب.

ابتعدت عليا وهمت بالذهاب وهي تفند قول والدتها، مدعية أنه مجرد موضوع قد خطر على بالها، لكن بمجرد أن دخلت غرفتها أخذت تربط بين كلمات والدتها وبين ما يحدث بينها وبين علي، بعض ما ذُكر يحدث معها مع غياب البعض الآخر مما جعلها تبقى في شكها غير واثقة من مشاعرها، وقبل ان تفصل الموضوع مع قلبها، اتصلت آية لتخبرها أن خطتها كانت ناجحة، وأنها وأمين قد قررا أن يرتبطا رسميا حتى تكون علاقتهما تحت اسم، وأنه قرر زيارتهم نهاية الأسبوع مع والدته، طلبت منها أن تكون معها فهي بمثابة أختها وعرابة علاقتها.

كان أمين هو الآخر يطلع علي على هذه التطورات، وأراد منه أن يرافقه لطلب يدها، ولم يترك علي الموضوع يمر دون سخريته.

-هل تريد يدها فقط؟ ستشعر آية بخيبة أمل عظيمة يا طبيب التشريح، لقد أصبح كلامك بالأعضاء فقط.

وبدأ يضحك بعدها رغم أن أمين لم يستظرف المزحة، ولكنها فتحت له باب السؤال، لماذا نطلب اليد فقط؟

-يا دكتور إن سؤالك هذا يشبه تلك التي تأتي قبل أن ننام، لماذا لا يلتصق الغراء بأنبوبه ولماذا يخرج معجون الأسنان دون أن تختلط ألوانه.

-بعد تفكير قصير أظن أننا نضع الخاتم باليد وأننا أول ما نمسكه من الفتاة هو يدها فلذلك نطلبها أولا ثم نأخذ الجمل بما حمل.

أكملا حديثهما الذي لا فائدة منه سوى تمضية الوقت حتى يحين وقت العشاء، العشاء الذي سيطلبه أمين من المطعم بهذه المناسبة السعيدة.

السعادة كانت أيضا تختلج قلب عليا، فرأت أنه وقت مناسب لتتكلم مع اسبيريتو، أغلقت باب الغرفة وأحضرت مستلزماتها، وهي تشعر أن خوفها الذي كان يعتريها سابقا قد قل قليلا، قليلا ليس إلا ولكنها أصبحت أكثر شجاعة لتواجهه.

-محمد علينا أن تحدث بشأن الشاهد في قضيتك.

وقبل أن يظهر استدركت مسرعة.

-وكما هي العادة، عن طريق الإشارة.

وقتها سمعت طرقا خفيفا على النافذة معلننا بداية الجلسة، ثم تبعته طرقتان متقاربتان، استنتجت منها أنه يريد الحديث مباشرة، لكنها أكدت له أنها ليست جاهزة لذلك، والواضح أنه تقبل رفضها وظل مختفيا، فتحضرت هي لتبدأ تسجيل الحروف.

-غ د ا ع ن د ا ل ش ا ط ئ...

-غدا عند الشاطئ... ماذا سيحدث غدا.

-س أ خ ب ر ك ت ك م ل ة ا ل ق ص ة

ثم عم الصمت قليلا، كانت عليا على هيئتها الأولى معتكفة على ورقتها تنتظر أن تكتب المزيد من الحروف.

-ا ل س ا ع ة ا ل خ ا م س ة ب د و ن ذ ا ك ا ل ش ا ب.

-عن أي شاب تتحدث؟

ولكن كما هي عادته، مع نسمة خفيفة باردة قام بترك الغرفة تاركا أسئلتها تسبح في الهواء، قامت مباشرة لتتصل بعلي وتخبره بما حدث، وقد طرح هو السؤال نفسه وأسئلة كثيرة أخرى.

-عن أي شاب يتحدث؟ ولماذا لم يخبرك وقتها؟ لماذا غدا وتحديدا على الساعة الخامسة؟ أصبح هذا الفتى يتمادى في لعبه بنا.

-أظنه يقصدك بالشاب.

-أنا؟ لماذا أنا؟ فيما أزعجه وجودي.

-لا أعلم لكنني لا أملك سوى الالتزام بكلامه.

-هل ستذهبين وحدك؟

-مستحيل، أنا بدونك لا أستطيع أن أطأ الشاطئ أبدا.

شعر علي بنشوة داخله، صمت قليلا ثم قال متفاخرا.

-تأكدت أنني ذلك الشاب الذي كان يقصده، إنه يغار مني...

-يغار؟ توقف عن قول التفاهات، ستأتي معي أو لا؟

-هل تعتقدين أن لي خيارا فعلا؟ طبعا سآتي لكن سأبقى بعيدا حتى لا نجازف.

وقبل أن تقفل الخطأ جاء صوته مجددا يسألها إن كانت ستحضر خطبة آية وأمين؟

-هل لديك شك؟ إنها أختي.

-عادة ما تتخلى الفتاة عن صديقاتها بمجرد أن تخطب.

-أي كلام ساذج هذا، لا تتدخل فيما لا يعنيك، إلى لقاء الغد على الساعة الخامسة، ولقاء يوم الجمعة في بيت آية، وربما لقاء خطبتي قريبا.

ثم أقفلت الخط، استلقت على فراشها وهي تفكر في هذا الفتى كما تفعل في كل مرة، حملت هاتفها وأخذت تقرأ محادثاتهما السابقة، تستمع إلى رسائله الصوتية، بدأت وقتها ابتسامة بلهاء ترتسم على وجهها، وسعادة غريبة تتسلل إلى قلبها، تبادر إلى ذهنها كلام آية ونجوى فحاولت تشتيت عقلها وكانت قد وصلت إلى مناقشتهما موضوع الحجاب، استمعت مجددا إلى شروحه ثم دخلت إلى الانترنت لتبحث بنفسها أكثر، كانت روحها أقرب إلى الاقتناع، وظلت كذلك حتى غلبها النعاس، وغاصت روحها دنيا الأحلام.

-23-

لم يكن الشاطئ مكتظا، كما هي العادة أيام الربيع، للبحر علاقة متينة مع الصيف رغم أنه جميل على طول السنة، لكنها كالكثير من عادات البشر، حتى وإن كانت الأكثر منطقية، أخذ علي يقترب من الصخرة التي تعودت عليا الجلوس عليها، كان حذرا لأن المكان كانت تشغله فتاة أخرى، جلس غير بعيد عنها وعيناه تراقبان الطريق القادم من بيت عليا ناظرا إلى الساعة أحيانا، يتملكه بعض القلق، فهذه الأخيرة تشير إلى الخامسة وخمس دقائق وعليا لم تظهر بعد، التفت إلى الصخرة بعد أن لمح بطرف عينه الفتاة تلوح له، أمعن النظر، كانت عليا فعلا لكنه لم يتعرف عليها بسبب الحجاب، شعر بفرحة غامرة لرؤيتها كذلك، كانت تبدو أكثر نعومة من ذي قبل، رفع يده للتلويح لها مجددا غير أنها انشغلت بشيء آخر.

-أخبرتك ألا تحضري هذا الشاب معك.

-إنه يجلس بعيدا عنا، دعك من هذا وأخبرني عن الشاهد، ولأنني لا يمكنني القيام بالطقوس هنا، أرجوك أسرع في الكلام ولا تنظر إلي مباشرة كما سأفعل أنا.

-الشاهد قريب منك، ترينه كلما أتيت إلى الشاطئ يبيع شيئا تحبينه كثيرا.

-لماذا لا تقول اسمه مباشرة، هل عليك تعذيبي دائما؟

انتظرت جوابه لكنه فعلا لا يفكر في تغيير عاداته، التفت إلى علي لتناديه بما أن اسبيريتو اختفى، كانت ابتسامة خفيفة تظهر على وجهه، يبدو أنه سعيد لشيء ما وقبل أن تسأله عن ذلك بادر هو بالكلام.

-قبل أن ندخل في حوارك معه، أود أن أخبرك مدى سعادتي بوضعك الحجاب، لا أستطيع أن أعيرك عيني لتري الهالة التي تحيط بك، مبارك لك هذه الخطوة.

لم تجد بما ترد لأن الخجل كان قد تمكن منها، فرت إلى أقرب الأجوبة سهولة.

-شكرا، بارك الله فيك.

ظل علي ينظر إليها مرة ويشيح ببصره مرة أخرى حائر بين تأملها وغض البصر، تائها في جمالها، مفكرا فيمن يقولون أن الحجاب يقتل جمال المرأة، إذا لما تبدو له أحلى الآن؟ لماذا يشعر أن نور الكون يحوم حولها، إن هذا الخمار الذي ستر شعرها جعلها كلؤلؤة وسط محارتها، قطعت عليا سلسلة أفكاره.

-يقول أنه من باعة الشاطئ وأنه يبيع شيئا أحبه.

-يعرف ما تحبين أيضا؟ يبدو أن اسبيريتو لا ينوي انهاء هذه القضية، يريدك أن تبقى عالقة في ألغازه وأدلته.

-وهذا ما يبدو لي أيضا.

قالت ذلك وهي تقوم من مكانها ثم أضافت.

-علي الذهاب الأن، نتكلم ليلا لنجد الشاهد.

مشت خطوتين ثم استدارت إليه وابتسمت وقالت.

-شكرا لك

نظر إليها مستغربا فأكملت.

-على حديثك عن الحجاب، أو فلنقل على وجودك معي.

واصلت هي طريقها تاركة إياه غارقا في سحر جملتها، كان تأثيرها كأن ينابيعا من الفرح قد تفجرت في قلبه، شعر أنه قد جعلها ترتدي الحجاب،

وأنه مهم لدرجة أن تشكره على وجوده، التفت إلى البحر وراح كأنه يخبره عن إنجازاته وسعادته...

-24-

لم تكن الساعة قد أعلنت بلوغها التاسعة صباحا حتى رن جرس بيت آية، باب يقف علاء وعليا خلفه، فهي كما وعدتها ستساعدها في كل التحضيرات، أما وجود علاء فكان لمجرد المساندة أو لشراء ما يلزمهم.

كانت دهشة آية كبيرة عندما رأت صديقتها بالحجاب، فعليا

لم تلمح حتى لها بالموضوع كانت تريد أن تكون مفاجأة وقد لاحظ علاء ذلك فقال.

-الظاهر أنك أيضا لم تكوني تعلمين، وانا الذي ظن أنك من أثر عليها.

-للأسف لم أكن أنا، لكن شكرا له كائنا من كان.

-معك حق لقد اندهشنا كلنا عندما خرجت من غرفتها ترتدي الحجاب، لكننا كلنا سعدنا لذلك، أ لن تدعينا ندخل؟ أم علي الانتظار خارجا؟

انتبهت وقتها آية أنهم يقفون عند الباب إلى حد الآن، تركاه يجلس في غرفة التلفزيون، وعانقت آية عليا مخبرة إياها أنهما سيتحدثان في هذا مطولا، ثم توجهتا إلى المطبخ فرغم أن الموعد بعد صلاة الجمعة إلا أنهما عليهما تجهيز كل شيء مسبقا حتى يجدا الوقت الكافي لتتجهزا هما، تكفلت الخالة فاطمة بتحضير السفة، بينما عليا تكفلت بصينية القهوة والشاي، آية كان عليها ترتيب الصالون. يعملن بجد وهن يستمعن لسورة الكهف، علّ نورها يعم المكان والحدث، بينما استمر علاء في الذهاب والإياب مع طلباتهن، كطبع لا تغيره النساء بأن لا تطلب كل شيء دفعة واحدة، ولا حتى الرجال تعودوا على ذلك.

بعدها غيرت عليا حجابها بفستان واسع وردي اللون، ووضعت خمارا أبيضا ليناسبه، ثم بدأت تساعد آية في التزين، فقد لبست قفطانا رماديا

خفيفا، ووضعت لها عليا القليل من مساحيق التجميل، كان التوتر باديا عليها، حاولت عليا تهدئتها فقالت.

-صديقتي أصبحت عروس، ما شاء الله ما هذا الجمال كله.

-هل تعتقدين أن أمه ستحبني؟

-مؤكد لا، هل تريدين إدخال إبليس إلى الجنة؟

ضربتها آية على ذراعها ثم قالت.

-قليل من الجدية يا فتاة.

-عادة لا تحب الحماة كنتها وهذا ليس لعيب في الفتاة ولكنه شيء متوارث، تجهز نفسها مسبقا لذلك، ففي الأخير هذه الكنة ستأخذ طفلها، لكن صديقتي أنا لا يمكن ألا تحب، وحتى وإن لم تحبك الآن ستحبك كثيرا حين تعاشرك فلا تهتمي لهذا، كوني أنت كما تكونين عادة مع الجميع، بشوشة، سمحة الوجه وهي من الأكيد ستحبك، في رأيك ماذا سيلبس أمين؟

-لا أعلم لكن ربما طقم كما هي العادة.

-تبا لهذه العادات لم نعد نملك خيالا بسببها.

وبينما هن كذلك رن الجرس، خفق قلب آية بسرعة، تركتها عليا بعد أن نظرت للمرآة وتأكدت من أن خمارها مرتب فهي لم تتعود على وضعه بعد، بمجرد أن فتحت الباب كان علي هو من وقعت عينها عليه أولا، لم تره في هذا التأنق من قبل، يلبس قميصا أبيضا قد ظهرت عضلاته من خلاله على عكس تلك العريضة التي تعودت أن تراه بها، أتبع ذلك بسروال كلاسيكي أسود، لم تنتبه إلا وأم أمين تقترب منها لتقبلها، ارتبكت قليلا ثم رحبت بها وقادتها إلى الصالون، اقترب منها علي قليلا ثم همس.

-يبدو أن الغجرية قد اختفت.

أكملت الخالة فاطمة عنها المهمة وأدخلت الضيوف، جاء أمين ووالديه إضافة إلى علي، بينما كان في الصالون علاء وعم آية وخالها، ولأن الخطبة كانت مبنية على الموافقة المبدئية، فقد أصبحت كأنها جلسة تعارف للعائلتين، دخلت عليا إلى غرفة آية لتخبرها بآخر المستجدات.

-كان توقعك صحيحا فقد ارتدى طقما أسودا، كما أنه يبدو أن حماتك إنسانة طيبة، من تلك العجائز اللواتي يلبس أبيضا في أبيض فيحيطهن النور من كل جانب.

-ممتاز إذا، من جاء أيضا معهما؟

-والده أيضا حضر و....

-ومن تكلمي؟

-وعلي.

-قلتي علي، لذلك احمرت وجنتاك هكذا.

وقبل أن ترد عليا عليها أكملت آية.

-هيا إلى المطبخ ساعديني، مساء الجمعة قصير.

وفي جو ودي جميل مر الموضوع على أكمل ما يكون، انسجمت العائلتان كأنهما يعرفان بعضهما منذ زمن، ذلك لأن الطيب كان يجمعهما، بدت فرحة والدة أمين بعروستها واضحة، كما بدا الرضا على وجه الخالة فاطمة، بينما ظل علي وعليا ينظران لبعضهما طول الجلسة، أراد هو أن يراسلها عبر الهاتف لكنه لم يرد أن يبدو فظا، فجمع الكلمات منتظرا أن يفترق الجمع.

كان على أمين أن يعود بعائلته إلى غليزان، فاقترح علي أن يوصل عليا وعلاء، حاولت أن ترفض لكن علاء قد وافق وانتهى الأمر بها تجلس في سيارته، خيم الصمت عليهم لكن علي أراد التقرب من علاء قليلا فقال.

-هل سجلت لأجل تدرب الملاكمة؟

-نعم، أخيرا وبعد تعب كبير تحصلت على معدل جيد، فسجل لي أبي لكن شرط أن تبقى نقاطي جيدة دائما، مع أي علامة سيئة سيلغي الاشتراك.

-ان احتجت إلى مدرس خصوصي اتصلي بي.

-في أي مادة؟

-لا أقصد الدراسة، بينما أقصد الملاكمة.

تدخلت هنا عليا ووجهت سؤالها له.

-هل تمارس الملاكمة؟

-نعم في أوقات الفراغ، من الرياضات التي تعلمك التحمل، وتساعدك على بناء جسد متماسك قوي.

ابتسمت عليا ثم قالت لنفسها،

-هذا واضح جدا من جسدك.

ثم قالت له مغيرة الموضوع.

-هل فكرت فيما قاله اسبيريتو؟

-نعم وهل يمكن ألا أفعل، أولا علينا معرفة ما يباع على شاطئكم؟

تدخل علاء في الحوار.

-شاطئنا؟ لا يوجد به الكثير من الباعة، هناك متاجر بالقرب من المكان لبيع المواد الغذائية، الدجاج المحمر، البيتزا وبعض الأكلات الخفيفة، وغير بعيد تجد سوقا للخضر.

نظر علي إلى عليا موجها لها سؤاله.

-الآن ماذا تحبين من هذه الأشياء؟

وكما هي عادة علاء كثير التدخل، فقد أجاب في مكانها.

-علاقة أختي بالأكل سيئة، لكن سأساعدك، اشتري لها كوبا من الشاي من حسين.

صرخ كلاهما في نفس الوقت فعلاء قد وجد الشخص الصح على الأغلب.

-شاي؟

ثم سألته عليا.

-هل هناك بائع شاي لدينا؟

-نعم حسين، لديه شبه كشك هناك يبيع فيه الشاي والمكسرات.

-آه لقد عرفته.

أضاف علي

-لكن هل هو فعلا؟

-لا نملك حلا سوى أن نجرب.

-أتركيه علي إذا.

قال علاء وكأنه أحس بأهمية كلامه.

-حسين يخاف قليلا من الحديث مع الشرطة، فهو قد حاول الحرقة سابقا، لا بل نجح في ذلك ثم أعادته الدولة الاسبانية إلى هنا.

أراد علي أن يعرف المزيد فلربما تأكدوا أنه فعلا من يبحثون عنه.

-متى حاول الحرقة؟

-السنة الماضية...

فكر قليلا ثم أضاف وهو يكلم عليا.

-هل تذكرين الشاب الذي وجد مقتولا هنا؟ قبله بأيام فقط ذهب.

-شاب مقتول؟ (قال علي ذلك وهو يريد من علاء أن يضيف أي معلومة فقد تكون مفيدة)

قالت عليا مستغربة

-لا أذكر هذه الحادثة، لا أعلم أين كنت وقتها.

-رادارك لا يلتقط شيئا من الأحداث والحديث معك عما يجري في منطقتنا كقلته، (ثم وجه كلامه إلى علي**)، نعم شاب ظلت الشرطة تبحث عنه لمدة يومين ثم عثروا عليه، البعض يقول أنه غرق والبعض الآخر يقول أنه مات بجرعة زائدة من المخدرات، بينما هناك من قال أنه لم يتفق مع من يقود زورق الحراقة فرماه في البحر، لذلك تذكرت موعد ذهاب حسين، فهو قد خرج في ذلك القارب.**

ابتسم كلاهما فعلاء ودون أن يدري قد فك لغز محمد بسلاسة، فحتى لو لم يكن حسين هو الشاهد سيكون الحديث معه مفيدا بالتأكيد.

-25-

يجلس حسين داخل كشكه الصغير، هذا الأخير الذي يبيع فيه بعض المكسرات المملحة والشاي الذي يضعه على مجمر ليبقى ساخنا، اقتربت منه عليا وهي تفكر كيف تكلمه، فقد اتفقت مع علي أن تفاتحه هي بالموضوع حتى لا يشعر بالخوف ويخفي الحقيقة عنهما، وقفت قليلا هكذا متأملة هذا الفتى، كان نحيلا طويلا، يضع قبعة غطت نصف وجهه وهو منزل رأسه، رأسه الذي رفعه فجأة وهو يقول عبارة قد تعود لسانه عليها.

-تفضلي أختي ماذا أقدم لك؟

ارتبكت بعض الشيء فهي لم تكن قد قررت بعد كيف تسأله، فسايرته في الحديث حتى ينساق الكلام إلى حيث تريد.

-كوب شاي وقليل من الفول السوداني المحمص.

هز رأسه وابتسم وباشر في تجهيز الطلبية بينما طرحت هي سؤالها.

-أخبرني أخي أنك قد سافرت عبر قوارب الموت إلى اسبانيا، هل هذا صحيح.

امتعض وجهه واختفت ابتسامته وكأن الحديث في الموضوع لم يعجبه، وحتى أنه لم يجبها ببنت شفة، واصلت هي كلامها في شكل من التمويه.

-أخي علاء ربما تعرفه، نسكن هنا قريبا منكم، سألتك لأني أعشق اسبانيا وبما أنني هنا تذكرت ذلك قلت لربما أسألك كيف هي حقيقة.

-يا سيدتي أنا لم أذهب سائحا وإنما لاجئا فارا من بلدي، لم يهمني جمال اسبانيا بل الحياة التي تخيلتها هناك.

كان هناك كرسي صغير على مقربة من الكشك يستعمله من يريد شرب شايه هناك، سحبته عليا وجلست، وضعت كوبها وأخذت تشربه بهدوء،

يصحب ذلك حبات الفول السوداني. استغرب حسين من ذلك فالبنات عادة لا يجلسن على قارعة الطريق في الأكشاك.

-لدي اهتمام بالغ بموضوع الحرقة، إن وافقت احكي لي عن تجربتك، أفكر في القيام بحملة عما يعانيه الشباب ليفكروا في هكذا أمر.

-لا أريد.

-فكر في الأمر فقط الآن لست مجبرا أن تجيبني

ثم نظرت إلى كوب الشاي وأكملت

-لقد نفذ شايي سأعود غدا علك تغير رأيك، أو سأترك لك صفحتي على الفايسبوك يمكنك مراسلتي متى شئت

حملت ما تبقى من فولها السوداني وقصدت الصخرة، هناك حيث كان ينتظرها علي، ينظر إلى البحر ساهما به، يغوص بأفكار، جلست بروية لدرجة أنه لم ينتبه لها.

-السلام عليكم عليلو.

شعر ببعض الفزع وأخذ بعض الوقت حتى تعرف عليها، فهو لم يتعود عليها بعد بالحجاب.

-وعليكم السلام علوش، آسف كنت ساهما في التفكير.

-لا عليك، حسين لم يرد الحديث عن الموضوع.

-هل أكلمه أنا؟

-لا، تركت له صفحتي على الفايسبوك ولدي شعور أنه سيكلمني الليلة.

-هل صفحتك والحديث معك متاح للجميع هكذا دائما؟

استغربت عليا كيف وصل به الموضوع إلى هذا الاستنتاج، إنها مجرد صفحة فايسبوكية، ليست حياتها الخاصة، ثم أرادت أن تغيظه كما حاول أن يفعل فقالت.

-حتى من لن نتركها لهم وصلوا إلينا بسهولة، ليست بالأمر الخاص.

وكانت تقصده بحديثها مذكرة إياه أنه كان يلج إلى صفحتها حتى دون إذنها، ثم أضافت.

-دعنا من هذا الآن وأخبرني ماذا قال أمين هل سيساعدنا؟

-نعم سيفعل، أخبرني أنه سيبحث في سجل الأرشيف، فما يكتب هناك هو الحقيقة بعيدا عن التقارير التي قد تزيف لكن علينا أن ننتظر بعض الوقت، ربما يومان أو ما شابه.

ابتسمت لذلك ثم قامت ذاهبة متحججة أن الوقت قد تأخر، هز رأسه موافقا، ثم قام يمشي خلفها تاركا بعض المسافة حتى يتأكد أنها وصلت بيتها ثم ينسحب.

كانت العائلة كلها مجتمعة هذه المرة، تنقصهم عليا التي دخلت وقتها، كان علاء يرمقها بنظرات غريبة، بينما عبد العلي مشغول بهاتفه، يرتشف كمال قهوته متابعا الأخبار، نجوى تحيك شيئا ما بالكروشي، جلست عليا بالقرب من علاء لتفهم ما سر نظرته تلك.

-ما سر اجتماعكم؟

-لا شيء صادف أننا جميعا أردنا الجلوس هنا ليس إلا.

-لماذا كنت ترمقني هكذا أيها المجنون.

-إذا انتبهت... جميل كنت أظنك ما زلت متأثرة بالجو الخارجي ولن تنتبهي لشيء.

-أي جو؟ بدأت تخاريفك تزيد.

-رأيتك وأنت قادمة من الشرفة ورأيته وهو يتبعك.

تنحنحت ونظرت حولها حتى تتأكد ألا أحد قد سمع ما قاله، ثم قالت.

-ربما نسيت أننا نعمل على قضية واحدة، ومن باب الأدب رافقني.

-لم أقل شيئا ولكن أريد شراء قفاز للملاكمة للتدرب في البيت.

-أيها المستغل...

وقبل أن تكمل جملتها جاء سؤال كمال عن عملها وعن السيد ياسين، وانتقلت للحوار معه تاركة علاء وهو يشعر بالانتصار، ثم قامت لتغيير ثيابها ومساعدة نجوى لتحضير العشاء، وأثناء ذلك أرادت والدتها أن تسحب الكلام من فم ابنتها.

-لم أرك تصممين منذ مدة، ولا حتى أريتني رسوماتك التي ترسمينها في بيت آية، هل هناك ما يشغلك عن ذلك؟ كنت عازمة على ترك المحاماة وانشاء دار صغيرة للأزياء، ولكن أراك الآن منغمسة كلك في قضاياك.

-ما زال حلمي قائما لكن حاليا فعلا لدي قضية أخذت كل وقتي.

-هل لها علاقة بسؤالك عن الحب يومها؟

-لا طبعا، كان سؤالا عابرا ليس إلا، القضية معقدة قليلا لأنها قد أقفلت وإن لم تكن الأدلة الجديدة قوية ومقنعة سيرفض طلب إعادة النظر، صراحة لا أظنني أصلح للحب.

-ولما كل هذا؟ فنانة رقيقة مثلك إن لم تلق هي بالحب فمن يفعل؟ يا بنتي الحب ليس فستانا نرتديه ليليق بنا، ولكنه روح تسكننا دون شعور منا... حركي القدر أمامك سأكلم خالتك وأعود.

تعلم عليا أن حديث نجوى مع خالتها سيطول كثيرا، لذلك قامت بما طلبته منها ثم جلست وفتحت صفحتها ليمضي الوقت قليلا، وجدت رسالة غير مقروءة من شخص لا تعرفه.

"لقد زرت صفحتك، وعلمت أنك محامية كما أنك رسامة وتملكين الكثير من المتابعين، لذلك قلت أنه ربما أنفع شابا آخر بتجربتي، ربما تصل قصصنا إلى المسؤولين، ربما يتحسن وضعنا رغم أنه مجرد أمل لكن سأحاول..."

-26-

أسمي حسين شاب من شباب هذا الوطن الجميل، هذا الوطن الذي أغرقه الله بكل الخيرات ولكننا نحن شعبه لا يطولنا منها إلا القليل جدا، بلد كالجزائر اجتمعت فيه كل المناخات من الاستوائي للصحراوي، كل التضاريس، ساحل، سهول، غابات، صحاري، ترين فيه البحر والثلج والواحة، يضم كل مظاهر الجمال، البلد القارة، هذا على سطح أرضه ولا داعي لأكلمك عن باطنها، أعيش فيه أنا ابنه متسولا...

سأبدأ قصتي منذ كنت صغيرا، أعيش في الريف أنا وإخوتي الستة ووالداي، يكفينا ما يكسبه أبي من عمله في أرضه الصغيرة، أمي تغزل الصوف لتصنع ما نلبسه شتاء وتبيع أحيانا لجاراتها مقابل دريهمات قليلة، وأنا صغير لم أكن أرى أن الموضوع غريب، فقد كانت هذه الحالة العامة للجميع، نقطع مسافة طويلة لنصل إلى المدرسة لكي لا نتعلم شيئا، أقولها وأنا متحصر لكن فعلا لم نكن نتعلم شيئا، كنا نذهب لنتدفأ، لنلعب، لنتعارك مع من يتنمرون علينا نحن أبناء الأرياف وعلى ثيابنا الرثة، كنا نحاول جاهدا أن نثبت أننا رجال رغم صغر سننا، أما التعليم فكان مجرد تحصيل حاصل ليس إلا، لم نكن نملك الوقت حين العودة إلى البيت للمراجعة أو للتحضير للفروض والاختبارات.

لم يكن كل هذا يشغل بالي وأنا صغير، ما كان فعلا يملأ أيامنا هو الخوف من الإرهاب، كانت الأخبار تتناثر في كل مكان، مجازر هنا، قتيل هناك، وتفجير في مكان آخر، كلنا نخاف من "الكيس المشبوه"، في الطريق إلى المدرسة كنا نمشي في مجموعات يرافقنا كبار السن، ومع ذلك كان الموضوع مخيفا، فمن سيقف في وجه سيف أو بندقية ليحمينا، لكن بطريقة ما كنا ننجوا كل مرة ونعود لبيوتنا، لكن هناك فرق شاسع بين أن تسمع عن الشيء وأن تعيشه...

في ليلة لا يشبهها في السواد إلا نفسها، وكأن القمر والنجوم قد فروا فزعا مما سيحدث، داهمت مجموعة مسلحة قريتنا، لم يذروا حيا بها، ربما كان السبب ذهابنا إلى المدرسة أو ربما لم نرق لهم ليس إلا، ولحسن حظي أم لسوءه لا أعلم، كنت أنا وأمي وأخوي هنا بوهران عند خالي، أفقنا على الأخبار المروعة، حملتنا أمي وعادت بنا إلى القرية غير آبهة بالخطر، غير منتبهة لبعد المسافة، فقد تركت رفيق دربها هناك، تركت أبي...

أتذكر رائحة المكان إلى الآن، رائحة دم ممزوجة بالتراب قد خالطتها رائحة الموت، تشعرين وكأنك تختنقين هناك لا تتنفسين، أما المناظر فلا يمكن وصفها، حتى أكثر أفلام الرعب لم يكن بتلك القساوة، هناك عمي عند بابه جثة، وداخل بيته بقية العائلة، هنا ليس ببعيد صديق طفولتي وكأنه يبتسم غارقا في دمه، لم يكن بيتنا بعيدا، كنا نجري وقلوبنا تدعي أن أبي وبشكل ما قد نجا، ربما هرب إلى الحقل، ربما اختبأ في مكان ما، ربما تعاون معهم ومازال حيا، هل تعرفين معنى أن يصل بك التفكير إلى التعاون معهم؟ لا أعتقد أنك تخمنين حتى ربما أنت تقول أن يموت بشرف أهون من أن تساعد قاتلا...لكن الحياة بدون أب صعبة جدا.

لقد خاب أملنا ومات أبي، مات سندنا ومات من كانت الحياة سهلة بقربه، بعدها شعرت أني كبرت فجأة، ولأن المصائب لا تأتي فرادا، من هول الفاجعة فقدت أمي شيئا من عقلها، عاد عقلها إلى زمن لم تتزوج فيه حتى وحصر هناك، لم نعرف ماذا علينا أن نفعل أنا وأخواي، كنا صغارا أكبرنا لا يتجاوز 15 سنة، فجأة لمحت خالي قادما من بعيد، كان قد لحق بنا بعد أن سمع من زوجته أننا تركنا البيت.

أخذنا إلى بيته وقام بنقلنا إلى مدارس في المدينة ولكن كانت محاولة فاشلة، كيف لطفل عايش ما مر بنا أن يدرس ويركز، من هناك بدأت رحلة العمل، أستطيع أن أجزم أنني عملت كل الأعمال الوضيعة، فخالي لم يكن ميسور الحال، كما أنه له أسرته، عملنا أنا وأخوتي لنوفر على الأقل علاج أمي، وقليلا قليلا بدأنا نكبر وبدأ دخلنا وأعمالنا تكبر، اكترينا بيتا صغيرا

جدا، غرفة ومطبخ، وكانت سعادتنا به لا توصف، تشعر بطعم الاستقلال...

من هنا كبر الكره داخلي لهذا الوطن وللبقاء فيه، كمية العذاب التي عشتها على أرضه لا يمكن وصفها هكذا في مجرد كلمات، تكبرين وبداخلك أمل أن هذا الوطن سيأخذ حقك ممن فعل بك كل هذا، فتأتي المصالحة الوطنية، وأصبح أنا ومن قتل أبي وشردني إخوة، ربما سنسكن الحي نفسه ويصبح جاري لا ويصبح له علي حق الجار.

أتفهم مبدأ المصالحة وأنها كانت لأجل الحد منهم، لكن النار بداخلي لم تستطع أن تخمد، بعد معاناة مع المرض غادرتنا أمي، وهذه كانت القطرة التي أفاضت كأسي، ما الذي يمكن أن يربطني بهنا؟ سوى الألم، الحزن وذكريات لا أريد تذكرها، بدأت أبحث عن طرق الخروج من هنا وتكلفة ذلك، إلى أن انتهى بي الوضع واقفا في ليلة مظلمة أنتظر أن يجتمع البقية ليقلع القارب، ذهبت باكرا من شدة شغفي بالمغادرة، هناك في شاطئ كريشتل ودعت هذا الوطن وكلي إصرار ألا أعود إليه فقد رأيت ليلتها أمرا لا يقل رعبا عما عشته سابقا...

أقلع القارب، وقتها كنا أقرب إلى الموت منا إلى الحياة، لكن هناك أمل صغير أن الغد سيكون أحسن، كنا حوالي العشرين شخصا، لا أحد يثق في أحد، غلطة صغيرة تكلفك حياتك، ببساطة يلتف حولك الجميع ويرميك في البحر، الكل يفكر في نفسه ليس إلا، كان معنا نساء، وحتى أن أحد المهاجرين قد أحضر طفله الصغير معه، فكرت وقتها كم كانت حياته مظلمة حتى يسحب طفلا صغيرا إلى هكذا مصير، استمر الخوف يكبر ويكبحه الأمل، يتقاتلان داخلي، فمن يفوز منهما يحدد مصيرك. كما كان الصراع داخلنا كبيرا كانت الأمواج حولنا ترتفع وتلتطم بنا، بدأ الوضع يزداد خطورة، البعض يبكي، وآخر يفرغ ما كان داخل بطنه في كل مكان، صراخ ذلك الطفل ليزال داخل أذني، البعض الباقي كان قد أدرك أنه على مشارف الموت بدأ يكرر الشهادتين، وقتها كنا قد دخلنا الحدود البحرية

الاسبانية، كان القارب كله يصرخ، والرحلة التي كانت ستستغرق عشر ساعات ليس إلا، استغرقت في وسط ذلك الخوف والرعب سنوات لا تنقضي، ووسط كل هذا الوضع الكارثي كنت أقول داخلي يا ليتني لا أنجو، ربما ينتهي العذاب، ثم ينتابك شك بسيط فتقول هذا يعد انتحارا؟ جهنم هنا وجهنم عند رب العباد، صدقيني وقتها ستحلو في عينيك الحياة في الجزائر بكل شقاوتها، بدأنا نكافح الأمواج حتى لا تقلب القارب بنا، قليل منا من كان يحسن السباحة، ورغم أننا كنا في مارس إلا أن البرد كان قاسيا، لكنه أخذ في العطف علينا مع اقتراب ساعات الصباح، حتى ركلات البحر توقفت إلا من الخفيف منها...

وصلنا على مقربة من الشواطئ الاسبانية، وقتها كان النهار قد انتصف ربما، وهنا ألقي القبض علينا من خفر السواحل، ومع ذلك كنا سعداء لأننا بقينا أحياء، عندها فقط صدقت أنها قوارب الموت، وقتها أدركت معنى كلمة "الحرقة"، فأنت تحرق شجاعتك، مدخراتك، تحرق روحك بنفسك، ومع فرحة النجاة تحطمت كل الآمال التي بنيتها، انهار مستقبلي أمام عيني، احتجزونا في مكان كبير كالمستودع، كان كبيرا مظلما وباردا جدا، مليئا بالفارين من أقدارهم العائدين إليها، بعد فترة من الزمن أظنها كانت طويلة أو أن الحزن جعلها كذلك، حزني على حلمي الذي ضاع وقد ضاعت معه كل مدخراتي.

جاءنا طبيب بعدها قام بفحصنا جميعا، فصلوا المرضى، وأخذو القاصرين، علمت لاحقا أن هؤلاء –القاصرين- يمكنهم البقاء داخل الدير والدراسة إلى أن يبلغوا سن الرشد، بقينا في ضيافتهم لمدة شهر كامل ثم أعادونا إلى نقطة البداية، إلى هنا.

قرأت عليا ما أرسله حسين وقد تملكتها حالة من الحزن، رأت لرغبته في مغادرة هذا الوطن أسبابا مقنعة، لم تجد العبارات التي عليها أن ترد بها، فالمواساة أصعب المهارات التي قد يتعلمها المرء، ما قد تكون العبارة التي تجعل شخصا يصبر على فراق والديه، على ضياع حلمه وشبابه، ما الجملة التي تجعله يبتسم؟ ثم تشجعت وكتبت.

-حزينة لأجلك، إنا لله وإنا إليه راجعون.

-شكرا، حفظك الله أستاذة.

ورغم تعاطفها الكبير لكنها لم تستطع أن تصبر دون سؤاله عن إن كان قد رأى شيئا تلك الليلة، فهو قد ذكر في قصته ما يشير إلى ذلك.

-لقد قلت أنك في تلك الليلة رأيت ما جعلك مصرا على المغادرة أكثر، هل لي أن أعرف ماذا حدث تلك الليلة؟

-لا أعتقد أن الموضوع قد يهمك.

-هل له علاقة بالذين كانوا معك للحرقة؟

-لا ليس كذلك...

كانت عليا تبحث عن طريقة لإقناعه على أن يحكي لها ما حدث، لكنها لم تعرف ماذا يمكن أن تفعل، تركت رسالته هكذا بدون رد، ثم شكلت رقم علي تريد أن تطلعه على آخر ما عرفته، وقبل أن تضغط على زر الاتصال، وصلتها رسالة.

-الموضوع مخيف بعض الشيء... جريمة قتل شنيعة.

-كيف؟ ماذا حدث؟

-لما يهمك الأمر؟

-فضولية بعض الشيء، ولا تنس أنني محامية وكل ما له علاقة بالقضايا يثير فضولي، أحك لي ما حدث بالتفاصيل.

-ستكون مجرد حكاية ليس إلا، فأنا لا أعرف أحدا ممن كانوا ليلتها، ذهبت باكرا كما أخبرتك حماسا، وصلت كان المكان مظلما لكن ضوء القمر كان ناعما جميلا، جلست على صخرة أنتظر، ثم فجأة سمعت صوت سيارة، خفت قلت ربما الشرطة، اختبأت بين الصخور أراقب، كنت قريبا للحد الذي أرى بعض التفاصيل وأسمع قليلا مما كان يقال، نزل رجل مخيف، كان شابا لكن وكأنه رجل عصابة هناك ندبة على خده، ضربة سكين، تبعه شابان أخران يجران ثالثا مكبلا...

-اكمل، ماذا حدث بعد ذلك؟

-بعدها كانوا يهددونه، وصرخ المخيف قائلا " أرأيت يا محمد، أخبرتك أني من أقول الكلمة الأخيرة"، ثم وكأنه يجهز حقنة أفرغها بعدها في جسده، وبعد فترة فقد الشاب وعيه، حملوه ورموه من أعلى الصخرة وانسحبوا من هناك.

كانت فرحة عليا لا يمكن تصورها، فقد اكتملت الصورة أخيرا، مساعدة أمين، اعتراف إلياس وأخيرا شهادة حسين، الآن براءة اسبيريتو بين يديها، فهي ستقنع حسين أن يكون معها في القضية بطريقة ما، ورغم أن عليها التفكير كثيرا الآن كيف ستفتح الموضوع مع أهل محمد لفتح القضية، لم تستطع الانتظار، واتصلت بعلي لتخبره بما حدث، كان هو الآخر يحمل خبرا سارا لها، فأمين قد وجد التقرير الأصلي وما كتب به أن الجثة كان عليها علامات ضرب، وازرقاق حول يديه مما يدل أنه مكبل.

وأثناء نقاشها اتفقا أن يتصلا بمنى ليعترفا لها بكل ما حدث وما وصلا إليه دون إخبارها عن أنه روح تلتف حولهم، وسيكون عليها أخبار أهلها،

فكانت هذه مهمة عليا التي اتصلت بها مباشرة بعد إقفال الخط مع علي، لم تكن تستطيع أن تمالك نفسها، لو كان بيدها لفعلت كل شيء دفعة واحدة وأنهت الموضوع.

-ألو، منى كيف حالك؟

-بخير، وأنت؟

-الحمد لله...

وقبل أن تفتح عليا الموضوع قاطعتها منى قائلة

-هل من جديد بخصوص رسوماتي؟

تذكرت عليا الموضوع فجأة فهي كانت قد انشغلت بالقضية ونسيت حكاية المعرض ومستجداته.

-نعم لقد نظمت لك صديقتي آية التي تعرَفْتِ عليها على الفايسبوك معرضا مصغرا داخل كلية الفنون، فقد وافق المدير بما ان الموضوع فيه دعم وكما أنه قد أعجب بفكرتك.

-لا تستطيعين أن تعرفي حجم فرحتي الآن، لكن كما تعلمين لا يمكنني القدوم، تعلمين الوضع...

-في الأصل أردت التحدث معك عن سبب هذا الوضع، أظن أن ما سأقوله سيفرحك أكثر، براءة أخوك بين يدينا إن أقنعت والداك برفع إعادة نظر في القضية.

وأخذت تشرح لها بداية انها تأثرت بما كتبه لها في دفتر مذكراته وبحديث والدته، وبدأت تبحث في قضية وقد وصلت لنتائج كثيرة تبرؤه...

كانت منى تستمع إلى كلامها والدموع تخنقها تمنعها من الحديث، وقد وعدتها أنها ستعاود الاتصال بها بمجرد أن تستطيع فتح الموضوع مع والدها، أقفلت الخط وعادت لتحادث حسين بعد أن اتفقت مع علي أن تشرح له هو الآخر أنها بالصدفة تعمل على القضية التي تحدث عنها، وأخبرته أنه لن يعاقب فهناك إثبات أنه كان وقتها حراقا أي أنه لم يكن ليستطيع الإدلاء بشهادته وقتها، وقد عاد بعدها بشهر، كانت القضية أقفلت، لم تجد صعوبة في إقناعه فهو يملك ضغينة كبيرة اتجاه أي قاتل ولم يكن ليفلت هذه الفرصة من يده.

كانت العقدة بدأت معالم حلها تبدو واضحة، بدأ النور ناصعا آخر النفق، أخيرا ستنتهي قضية اسبيرتو وترتاح عليا من شبحه القابع في عقر حياتها، كانت قد نسيت كيف تفرح، كيف يكون الشعور بالاطمئنان، الراحة النفسية، كانت قد قاربت أن تقرع أبواب الجنون لولا آية أولا ثم علي...

كان لابد ان تختم قائمة الاتصالات هذه مع المعني بالأمر، نظرت إلى الساعة وجدتها تشير إلى الحادية عشر ليلا، والهدوء في البيت يخبرها أن الأمن مستتب، أحضرت أشياءها المعتادة ثم نادت عليه وبعض الخوف يتملكها كالعادة، لم يمر وقت طويل حتى سمعت طرقة حضوره على النافذة.

-لابد أنك عرفت أنني قد جمعت خيوط قصتك، وقاربت قصتنا أن تنتهي.

انتظرت قليلا ولكن لا طرق جاء بعد جملتها وخيم صمت الليل وحده على المكان.

-هل أنت هنا؟

-ن ع م

-إذا لما لا تتكلم؟

عاد السكون من جديد، لم تطل التفكير وخمنت أنه يتلاشى رويدا رويدا، وليس لديه ما يقوله.

-إلى اللقاء، أو أقول وداعا.

جلست على مكتبها تحاول وضع مخطط لعملها، فمثلا أولا عليها إقناع ياسين أن يتركها تترافع عن القضية، فهي كانت مجرد متدربة فقط، عليها أيضا أن ترفع إعادة نظر في القضية وتنتظر الرد عليه، ثم ... ثم نامت على المكتب من فرط التعب، واستفاقت في حلمها داخل قاعة محكمة كبيرة، يجلس قبالتها قاضي كبير في السن بشعره الأبيض، على يمينها داخل القفص وجوه مخيفة لا تعرفها، على يسارها وكيل الجمهورية بوجه صارم، التفتت خلفها، الكل هنا، علي، آية، أمين، حسين، إلياس، العم هواري والخالة خديجة بوجهها المبارك، ضرب القاضي فجأة بمطرقته على السندان وكانت طرقة عظيمة استفاقت على إثرها عليا لتجد رقبتها قد تشنجت، أخذت تدلكها قليلا حتى سمعت مناديا يقول "الصلاة خير من النوم"، قامت توضأت ولبست خمارها وصلت ثم دعت الله كثيرا أن يساعدها ويوفقها.

-يا من قلت أن قرآن الفجر كان مشهودا، أدعوك والشهود حضور أن لا تترك يدي، يا الله يسر لي قضيتي وأرحني مما أنا فيه.

ثم عادت إلى فراشها لتكمل نومها علها تكمل الجلسة وتعرف ما سيحدث لاحقا، لكن عبثا.

ها هو يوم السبت البهيج قد أطل على عليا لترتاح قليلا وتخرج كعادتها مع آية لتشتيت الذهن في وهران العظيمة، كما أنه بعد أن تمت الخطبة بدأت رحلتهما للجهاز، هذا الأخير الذي يعتبر مشروعا قائما بذاته، يحتاج لميزانية كبيرة جدا، تبدأ من الجورب إلى طقم الذهب، تمر بينهما بملابس البيت للصيف والشتاء، ثياب المناسبات وكذلك ثياب الخروج، الكثير من الأفرشة ومستلزمات البيت، كميات كبيرة من العطور ومستحضرات

التجميل دون نسيان ما تحتاجه العروس ليوم العرس من بدلات، فعلى غير عادة كل الدول العربية أو العالمية التي تلبس فستانا تقليديا واحدا إضافة إلى الفستان الأبيض، في الجزائر تلبس العروس مجموعة كبيرة من الفساتين خاصة بكل منطقة من مناطق هذا الوطن الجميل الغني بثقافته، ورغم أن آية قررت أن تشتري فقط اللازم بقيت القائمة طويلة، وعليها أيضا الادخار لأجل قاعة الأفراح، المصور، فرقة الأناشيد، الحلويات ومستلزمات طعام الغداء والكثير الكثير من التفاصيل التي تجعلك تندم أنك فكرة في الزواج لولا الحب.

قضيا اليوم كله بين شارع العربي بن مهيدي المدينة الجديدة التي يقال عنها فقط والداك من لن تجدهما هناك، حتى أسعارها تلائم الجميع، دخلتا إلى أحد المطاعم الصغيرة هناك وطلبتا الكارنتيكا معشوقة الوهرانيين، وهن تكملن حديثهن عن محمد، فقد كانت فرحة عليا كبيرة وهي تخبرها بآخر التطورات، وبين الكلام تذكرت منى، فبادرت آية بالسؤال.

-ماذا فعلت في قصة المعرض الذي أوصيتك عليها؟

-الأمور تسير للأحسن، لقد كلمت رئيس منظمة الطلاب، وقد قدم الطلب إلى المدير وقد وافق أن ننظم معرضا صغيرا اختتاما لهذه السنة، وقد سجلت اسمي مكان منى في القائمة لأنني طالبة هناك لأجل الأمور القانونية فقط، لكن ستكون هي ولوحاتها حاضرة.

-ومتى سيكون؟

-في الرابع من جويلية.

-سأخبرها ونرى كيف سيمكنها الحضور.

-سيكون الأمر سهلا بما أن اسبيريتو سيحصل على براءته.

-أظن ذلك أيضا، والعرس متى يا عروستنا الحلوة؟

-في السابع من سبتمبر.

سكتت قليلا وكأنها تذكرت شيئا محزنا، ثم أكملت.

-علي سيترك البيت لأمير ويستأجر مكانا آخرا.

-آه لم أكن أعلم، ذلك العلي لا يكلمني عن حياته الخاصة أبدا، ولكن لما الحزن؟

-أشعر أنني تسببت في مشكل.

-وما دخلك أنت؟ قضية بين صديقين وحلت، عليك أن تفرحي أنك لن تكوني بعيدة عن خالتي فاطمة.

ابتسمت آية وهي تفكر فيما قالته صديقتها، ربما هي محقة وربما لا، من يدري، لكن ذلك لم ينسها سعادتها بالتجهيزات.

ورغم أنهما لم تنطقا اسمه، كان محمد بالقرب منهما يراقب فرحة عليا بفراقه بشيء من الحزن، حزن لن يستطيع أحد تفسيره إلا هو، هل هو حزن الفراق أم حزن الخيبة أنها لم تستطع أن تحبه، يفكر الناس أحيانا في استعمال كلمة لو من قلة الحيلة، ماذا لو أنه فاتحها بحبه قبل أن يموت هل كانت ستحبه وتحزن لأجله الآن؟ هل سيكون دافعها لنصرته حبها لا التخلص منه؟ ماذا لو أنه لم يظهر في حياتها أبدا هل كانت ستكون أكثر سعادة؟

انسحب من المكان إلى مكان لا يعلمه إلى هو ومن يشبهه، بتلك الكسرة في وجهه، تاركا حبيبته في غمرة السعادة كحورية في حجابها.

سارت الأمور كما هو مخطط لها، فاتحت منى أمها بالقصة، خديجة التي كادت أن تطير من السعادة وهي تقول "أخبرتكم أن ابني برئ"، ولم يطل الأمر حتى وصل العم هواري والذي لم يتأخر في أن يسافر إلى وهران لمقابلة عليا، هذه الأخيرة بدورها التي قدمت طلبا إلى السيد ياسين لتولي القضية وقد دعمها في ذلك علي، علي الذي بقي على تواصل دائم بإلياس وحسين فهما الورقتان الرابحتان إضافة إلى الوثيقة التي يحضرها أمين، أمين الذي رغم انشغاله الكامل بالعرس إلا أنه ساعد بما استطاع.

قررت عليا أن تكون قضية إعادة نظر وليس طعن بالنقض وذلك لسببين الأول أنها في الأصل لم تكن قضية مكتملة، مجرد جثة حكم عليها بتعاطي المخدرات، وأما ثانيهما فلأنه يتوفر فيها شروط ذلك، فالحكم قد صدر بناء على شهادة شهود ووثائق مزورة، فمن يستعمل هذا الطريق من طرق الطعن لا يؤاخذ القاضي على أنه أساء في قضائه أو أنه خالف القانون؛ فعريضة التماس إعادة النظر ليست شكوى ضد نزاهة وكفاءة القاضي. الملتمس يدعي فقط أن القاضي أوقع في خطأ وأنه في كل الأحوال فإن خطئه كان غير عمدي. لذا يعتبر التماس إعادة النظر طريقا للمراجعة؛ وكما هو الحال يرفع الالتماس بإعادة النظر إلى نفس المحكمة التي أصدرت الحكم المطعون فيه.

كانت عليا تركض هنا وهناك بين الأوراق تحاول أن يتم تحديد تاريخ للقضية بسرعة، ورغم أن التوتر كان يخنقها، فهذه تجربتها الأولى، إلا أنها كانت تتقوى بعبارة أنها نهاية معاناتها، كانت ترتبك في كل مرة تقول اسم محمد بلعربي في أي هيئة إدارية تقصدها، تخاف أن يظهر أمامها، ولكن ودون أن تعلم فقد كان معها في كل خطوة تخطوها، كان كظلها دون أن تراه، بينما كان لها ظل آخر ترتاح بوجوده، علي هذا الصديق المتكامل الذي كانت تحمد الله في كل مرة أنها اتصلت به وطلبت المساعدة، كان لها سندا بكل ما للكلمة من معنى.

أصبح مكوثها بالبيت قليلا، فهي تقضي وقت الفراغ الذي نادرا ما تحصل عليه في مساعدة آية في تحضيراتها، تتذكر بها شغفها الأول، تصميم الملابس، ذاك الشغف الذي أخذ يعود إلى مكانه والقضية على مقربة من غلقها، راحت أحلامها تكبر مجددا مع كل قطعة قماش تخيطها لصديقتها، شغف أشرق وسحب النور من المحاماة مجددا، ضف إلى ذلك دعم منى لمعرضها، أصبحت مشتتة لا تفكر في نفسها، نقص وزنها أكثر، وبسبب حجاباتها الفضفاضة كانت تبدو كالفزاعة، أو هكذا أصبح يلقبها علاء.

وفي غمرة الأيام قبل طلبها وتقرر إعادة التحقيق في القضية لتوفر الأدلة الكافية، وتقرر كموعد للقضية تحدد بعد شهر أي أول أوت، نظرت عليا إلى التقويم وتذكرت وقتها أن معرض منى كان بعد ثلاثة أيام، اتصلت بها لتؤكد معها الحضور، منى التي كانت تحفظ الموعد عن ظهر قلب وتنتظره بالدقائق والثواني، اختارت أجمل اللوحات في اعتقادها، وبينها لوحة كبيرة أخذت وقتا طويلة في تطريزها، قامت بعد أن تركت الهاتف وأخرجتها من الخزانة حيث كانت تخبئها، نظرت إليها مطولا ثم قالت

-لقد كنت محقا يا أخي، عليا أوفت بوعدك.

عندما تشغلنا الحياة لا نشعر كيف تمر الساعات، تفر مخططاتنا من بين أيدينا ونحن نجلس آخر اليوم أمام الساعة مذهولين كيف وصل الليل، وهذا ما حل بعليا التي انتبهت أن الساعة التاسعة تدق، جلست على صفحتها الفايسبوكية التي أهملتها من كثرة العمل، ثم وبحركة أوتوماتيكية أرسلت رسالة لعلي.

-هل أنت هنا؟

-أهلا، نعم

-كيف حالك؟

-بخير، وأنت؟

-لا أعلم، صدقا مبعثرة ولا أدري كيف أنا.

-احكي لي عن كل قطعة منك لنجمعها.

-هناك عليا الصديقة، أريد أن أكون مع آية في كل تجهيزاتها فلم يبق للعرس كثيرا.

-لا تذكريني بذلك، لم أجد بعد بيتا لانتقل إليه، كما أن حالي في هذا الموضوع ليس أحسن منك فأمين هو الآخر يحتاجني وأنا لا استطيع أن أكون معه دائما، هاتي القطعة الثانية.

-هناك عليا المصممة التي استيقظت بعد سبات طويل.

-هذه العليا لم ألتق بها بعد، أتوقع أن آية ستشبه عرائس الكراكوز... أمزح طبعا، هل هناك قطع أخرى؟

-عليا التي تعرفها المحامية التي تريد أن تربح قضيتها الأولى وبالمقابل تتصارع مع عليا التي تريد أن تترك المحاماة.

-شخصيا لا أعرف من ستفوز.

-هناك أيضا عليا التي قطعت وعدا لمنى ومعرضها، وعليا الابنة وعليا الأخت.

ودون أن يقول شيئا، أرسل إليها وجها حزينا، استغربت له ثم كتبت.

-وضعي محزن أليس كذلك؟

-بل وضعي المحزن، أين أنا من كل هذه العليات؟ مثلا كوني العليا التي تساعدني في إيجاد بيت للإيجار.

-اسأل الأستاذ ياسين فهو له معارف كثر وقد يساعدك.

-معك حق مع أنني أكره أن أقصد أحدا.

استمر الحديث وكأنه مجرد جرد للوضعية دون حلول على أرض الواقع، وحقيقة هذا ما تحتاجه المرأة عادة، هي تحكي لتحكي، لتفضفض فقط، ولا تحتاج إلا لمن يستمع إليها باهتمام، أما الحلول فهي تجد ما يساعدها مع الوقت وتخرج من أزماتها ببراعة.

وبعد يومين، في بيت كمال كان المنبه قد أيقظ الجميع، ها هو يوم المعرض قد أتى، تهيأ الجميع فقد قامت عليا بدعوة عائلتها لتزيد من الدعم لمنى، وصلوا إلى الكلية، الكلية التي كانت ساحتها قد تزينت بالكثير من اللوحات البديعة، لكن كان ركن منى مميزا جدا، فهي كانت لوحات مطرزة وهذا ما جعلها ملفتة، تلك الفرحة في عيني منى جعلت عليا تشعر بسعادة غريبة وفوقها راحة لذيذة، قالت في نفسها.

-شكرا اسبيريتو فرغم أنها كانت مجرد مهمة للتخلص منك إلا أن اسعاد الآخرين يشعرنا بسعادة أكثر منهم، أدين لك بهذه اللحظات الجميلة.

محمد هو الآخر كان وجهه به شيء من البهجة، وقد وقف أمام لوحة كبيرة عليها صورته، وفي الطرف المقابل له كانت تقف عليا وهي تتمعن فيه، لم تشعر إلا وآية تعانقها.

-أظن أنه اسبيريتو.

هزت عليا رأسها دون أن تقول شيئا فأكملت آية.

-عرفته لأنها تشبه كثيرا لوحتك التي رسمتها له، غير أنه هنا يبدو أكثر فرحا، أكثر حيوية، حتى أن بسمته تكاد تكون حقيقية.

-من يرسم روحا لا يشبه أبدا من يرسم شخصا عاديا.

أقامت منى علاقات تعارف كثيرة مع شخصيات من المجال، منهم من أراد دعمها وآخرون أرادوا أعمالا منها، مختصر الحديث أنه كان يوما مثمرا

لها، حتى أن والدها العم هواري أرادها أن تسجل في الكلية، وهكذا انطفئ هذا اليوم سعيدا للجميع، هواري وخديجة فرحان بابنتهما منى، منى التي كانت كأنها عادت للحياة مجددا ممتنة جدا لعليا، عليا بدورها أصابها سهم البهجة وهي تفكر أن الطريق اقترب للخلاص من محمد، محمد الذي كانت روحه مرتاحة أن العقدة التي تسبب فيها موته قد حلت، وقد رأى والده رفع رأسه مجددا وعيون أمه قد عرفت للابتسام طريقا، كما أن أخته وجدت منفذا للنجاح وقد كان ممتنا في كل ذلك لعليا.

أخذت الأمور في السير في مسارها الطبيعي، صدرت مذكرة إيقاف في حق الأشخاص المشتبه بهم الذين ذكرهم إلياس في إفادته، وألقي عليهم القبض، وكان يبدو أن الشبكة لم تكن فعلا بتلك القوة التي توقعها إلياس حين خاف منهم سابقا، وقد تعرف حسين على أحدهم بسبب الجرح المميز على وجهه كما أن صوته كان لا ينسى بالنسبة له، لم يتأخر أمين في تقديم الوثيقة المطلوبة من سجل الطب الشرعي، كانت قضية محسومة النهاية، فيقال لا يوجد جريمة كاملة، فقط عليك جمع الأدلة جيدا، بقي فقط التجهز للمرافعة في الفاتح من أوت، والذي كان على بعد يومين.

أصبحت عليا كالمجنونة، تريد أن تكون مرافعتها كاملة متكاملة، دعوات نجوى ظلت محيطة بها من كل جانب، وكذلك نظرات فخر كمال، علي فقط كان يطمئن عليها فقد كانت مشغولة جدا، كما أنه هو الآخر قد قسم وقته بصعوبة بين عمله وتجهيزه بيته، كما أنه تعود أن يساعده أمين أما الآن فكل شيء ينتظره وحده.

وفي غمرة كل ذلك وصل الموعد المنتظر، قامت عليا باكرا، وتجهزت بثوب المحاماة الذي رغم أنه كان واسعا قليلا إلا أنه ناسبها جدا، وقفت أمام مرآتها تنظر إلى نفسها ثم قالت.

-اليوم سينتهي كل شيء، اليوم أول مرة تلبسين هذا المعطف وربما ستكون آخر مرة من يدري، اليوم سأتخلص من هذه الدوامة التي عشت بها طوال هذه الشهور، من مارس وأنا لا أعلم إن كنت مجنونة تتخيل أرواحا أم أنني فعلا عشت هذا الأمر حقيقة...

رن هاتفها قبل أن تكمل كلامها، كان علي يخبرها أنه ينتظرها بالقرب من المنزل ليقلّها إلى المحكمة، وكأن فراشة رفرفت بداخل قلبها دغدغت شعورها، فالاهتمام أكثر ما يمكن أن يسعد الانسان.

ظلت طول الطريق تعيد ما يجب أن تقوله، تعيد حفظ المواد الدستورية التي ستعتمد عليها، ولم تنسى طبعا التماس العفو لإلياس...

بسم الله الرحمان الرحيم

قال الله تعالى في كتابه العزيز "وإذا حكمتم بين الناس فأحكموا بالعدل "

سيدي الرئيس...حضرات السادة المستشارين الأجلاء

إن لي مقدمة لازمة، أستهل بها دفاعي عن المتهم تتعلق بالسيرة الذاتية لهذا المتهم وباختصار شديد:

...المتهم في هذه القضية (السيد محمد بلعربي رحمه الله) بتهمة تعاطي المواد المخدرة والموت بجرعة زائدة، كان على وشك التخرج من كلية الاقتصاد ببلقايد –وهران- فهو شخص متعلم (ونقدم لعدلكم حافظة مستندات تفيد ما سبق ذكره عن المتهم) الذي أجد وبحق صعوبة بالغة في نعته بالمتهم...ولكنه القانون. بل وأكثر من ذلك أنه الأول على دفعته سنتين متتاليتين بكليته.. والأول طيلة سنوات الثانوية علي مستوي ثانويته بمعسكر، المتهم كان شخصا يمارس الرياضة بشكل منتظم ومن الأشخاص المحبين للكتب، لم يكن فارغا أو مشبوها على العكس تماما فقد عرف بسيرته الجيدة طوال حياته.

سيدي الرئيس...حضرات السادة المستشارين الأجلاء

إن الدفاع الذي سنضعه على بساط البحث أمام المحكمة الموقرة مثله مثل كل كلمة وحرف في أوراق هذه القضية دفاعا عن هذا الشاب الذي ووري جسده الثرى متهما بجريمة التعاطي في المواد المخدرة.... ونبدأ بحديث القانون فيما يتعلق بالوقائع وتسلسل الأحداث...نجد أن السيد ضابط الواقعة وعلى حسب ما سطر بمحضره...ذكر أن الجثة وجدت على أحد الشواطئ وقد قدمت للطب الشرعي الذي أقر أنه وفاة عن طريق جرعة زائدة من المواد المخدرة، وما هذا إلا باطل أريد به باطل، وهذه سيدي الوثيقة

الأصلية من تقرير الطب الشرعي والتي تثبت أن المتهم كان عبارة عن ضحية، فقد كان جسده به كدمات الضرب، كما أنها تقول أنه كان هناك آثار لحبل على يديه مما يعني أنه كان مكبلا، هذه هي الحقيقة التي أخفيت عن القانون حتى تبدو القضية كما ذكرت لا أنها قضية قتل متعمد محكمة التنفيذ.

(تقدمت من مكانها إلى القاضي لتقدم له وثيقة الطب الشرعي وهي تكمل كلامها)

لا أدري كيف تم تزويرها ولا كيف تمكن القتلة من الوصول إلى هكذا نتيجة.

أما الآن وبعد إذنك سيادة القاضي، حضرات السادة المستشارين، نطلب منكم الاستماع إلى الشهود.

تقدم أولا إلياس الذي سرد الأحداث التي دارت بالإقامة، رفقة عليا التي كانت توضح أكثر من خلال أسئلتها، كما أن وكيل الجمهورية حاول بكل الطرق أن يوقعه في مشكلة فهو قد تستر على جريمة، فقد يكون الآن يروي قصة من صنع خياله لكن إلياس كانت كلمة الأخيرة.

-سيدي وكيل الجمهورية أنا أقف هنا اليوم لأريح نفسي من عذاب الضمير مخاطرا بدخولي إلى السجن بتهمة التستر على المجرمين، هل تجد أنني يمكن أن أكذب وأنا في موقف كهذا؟

قدمت عليا الأعذار التي جعلت منه يقع في هذا الوضع المؤسف، وقد كان واضحا على القاضي تعاطفه مع الحالة، تقدم بعده حسين ليدلي هو الآخر بروايته للقضية...

في كل مرة كانت عليا تضطر لنطق اسم محمد كان شيء ما داخلها يرتجف، وكأن روحه كانت تلامسها، ولم تكن مخطئة في ذلك بتاتا، فقد كان يحوم حولها طول الوقت، وعلى شفتيه ابتسامة الرضا، سعيد أنه

أخيرا سيرتاح في قبره، سيعرف والداه أن تعبهما لم يذهب هكذا هباء منثورا، أخيرا سيعرف إلياس الهدوء والسكينة، حتى منى أخيرا لن يكون عقبة في طريق أحلامها، معرفته لكل ذلك جعل هذه المرافعة كأنها مكتوبة على باب الجنة، باب الطمأنينة...

لم يحتج القاضي لأكثر من ذلك ليتأكد أنها لم تكن قضية جرعة زائدة من المخدرات بل قضية قتل بأتم معنى الكلمة، الدلائل كانت كافية وزيادة، وإلى هنا تكون مهمة عليا قد انتهت تقريبا، الآن أصبح على القتلة متابعة رحلتهم وحدهم، ويا لها من رحلة، قضية اتجار بالمخدرات، قضية قتل، قضية تكوين جماعة أشرار، قضية رشوة وتزوير وغيرها الكثير، ستكون رحلتهم طويلة في السجن.

إلياس هو الآخر لم يسلم من هذه القضية فرغم تعاطف القاضي إلا أنه قد حكم عليه بالسجن لمدة ستة أشهر بتهمة تظليل العدالة وتغيير مجرى القضية، ورغم كل محاولات عليا لم تستطع أن تفعل أكثر من هذا، ومع ذلك كانت هناك نظرة رضا على محياه.

-30-

انتهى كل شيء...

أو هكذا اعتقد الجميع، جمعت عليا التهاني وبالخصوص تقدير الأستاذ ياسين، فقد استغرب كيف لفتاة متدربة جديدة أن تجمع هكذا معلومات وترافع بهذه الطريقة، فطبعا هو لا يعلم أنها فقط تتبعت أثر ايسبيريتو، وبين نجاحها هنا فقد كانت تسجل نجاحا آخر في عالم الموضة، بعد أن بدأت تصاميم آية ترى النور مع اقتراب موعد الزفاف، كل شيء على ما يرام...

هل فعلا كل شيء على ما يرام؟ كانت عليا تسأل نفسها هذا السؤال بين الفينة والأخرى، مع سؤال آخر لم يفارقها أبدا منذ غادرت المحكمة يومها، هل اختفى محمد؟ لم تملك الجرأة أبدا لاستدعائه، ظلت تتجاهل الموضوع وتشغل نفسها أكثر فأكثر حتى لا يخطر على بالها، لكنه ظل هناك في كل ثانية فراغ يربت على كتفها، كانت تعتقد أن هذه الحالة ستختفي بفك القضية، هكذا تقول كل كتب الأرواح، ما إن تقضي الروح حاجتها تعود إلى المكان الذي تنتمي إليه وينتهي كل شيء.

لم تستطع أن تشارك هذا الموضوع مع أحد، فمن يعرفونه مشغولون بالعرس، فما كان منها إلى أن تتشجع و تستدعي محمد للمرة الأخيرة ربما، كانت تود أن تتأكد أن الحياة عادت كما كانت، وكما تفعل دائما انتظرت الليل واحضرت ورقتها وقلمها ولوحة الحروف، فهي لم ترد مقابلته وجها لوجه، وما إن ذكرت اسمه سمعت الدقة على النافذة، كانت هذه أكثر دقة مخيفة بالنسبة لها، هذه الدقة التي تقول أن الموضوع لم ينته، وأن محمد مستمر في التواجد في حياتها، قبلا كانت تصبر نفسها أنه بانتهاء القضية سيختفي، فبماذا ستصبرها الآن؟ تجمدت مكانها ولم تنطق ببنت شفة، فهي في الأصل لم تحضر نفسها للقائه، كانت فقد تريد التأكد من مغادرته، ثم وكأنها تشجعت ونطقت بصوت متقطع غير واثق خائف.

-لماذا لم تذهب بعد؟ أ لم تحل قضيتك؟

-ت ر ي د ي ن ا ل ت خ ل ص م ن ي؟

-هل أكذب؟ نعم أريد ذلك اليوم قبل الغد، ماذا تريد الآن لتتركني لحالي؟

-ب ق ي ش ي ء و ا ح د ب ع د

-ما هو؟

وكما هي عادته غادر دون أن ينهي الكلام معها، مباشرة حملت هاتفها واتصلت بعلي لتخبره بما حدث، فلم تكن تستطيع التفكير وحدها، علي الذي لم يرد على الاتصال فقد كان يغط في نوم عميق، أتعبه العيش لوحده ولم يعد هناك من يؤنسه فأصبح ينام باكرا.

ظلت تفكر لوقت طويل ما الذي بقي لتفعله؟ تفكر تفكر حتى أرخى النوم ملاءته عليها وسرقها إلى عالم مريح عما تعيشه، لم تستفق إلى وهاتفها يرن، كان ذلك علي.

-ألو علوش، آسف لم انتبه لمكالمتك البارحة كنت نائما.

-لابأس، لكن أظن أنه علينا أن نلتقي، الموضوع مهم.

-أي موضوع؟ عرس أمين؟ كلها أسبوع ونفرح بهما لا نريد مشاكل.

-لا، ليس ذلك، لنلتقي ثم سأخبرك، اليوم علي أن أساعد آية في بعض التفاصيل، مساء على السادسة عند البحر هل تناسبك؟

-تمام، أراك لاحقا.

غيرت ملابسها واتجهت لبيت صديقتها الذي أصلا كان يعج بالناس، كواليس الأحداث عادة ما تكون أجمل من الحدث نفسه، ففي الأعراس مثلا الأسبوع الأخير يجتمع في بيت العرس فقط من يحبك فعلا، من يأتي دون

طلب أو دعوة، دون رسميات أو بروتوكولات، بثيابه اليومية وكعكات الشعر المبعثرة، زغاريد من هنا ورقصات مجنونة من هناك، تشعر فعلا بجو السعادة صادقا، ثم يأتي يوم العرس وتتغير الموازين، الكل يرتدي أجمل ما لديه والكل غارق في الرسميات والمجاملات، فتفقد الفرحة شيئا من عفويتها.

الكل هناك مشغول بملء علب الحلوى، البقلاوة، المشوك، دزيريات ومدلل العلبة البنيون، مع وضع البوقالة وسطها، هذه البوقالة التي تكون أول ما تنظر له النسوة في هذه التشكيلة وهي عبارة عن شعر شعبي ملحون له مغزى وفال كما يقال، وقد سميت بوقالة نسبة للكلمة الأمازيغية "بوقال" بمعنى إناء، قبل أن تقرأها الفتاة تعقد عقدة في خمارها ثم تنوي هذه الكلمات على شخص معين، في كثير من الأحيان تصدق النية، قبل أن تكون هذه القصاصات المكتوبة توضع هكذا في علب الحلويات في الأعراس، كان لها طقوس جميلة في الجلسات الرمضانية فهي في البدء كانت عبارة عن لعبة، دائما ما تلعب في الليل تحت ضوء القمر في أسطح البيوت أو في الأفنية، تتجمع النسوة المتزوجات والعازبات على حد سواء في بيت احداهن التي تتكفل هي بالقعدة، يلتففن حول صينية الشاي وأطباق قلب اللوز و الزلابية، يقمن بإحضار بوقال من الطين يملأ بقدر من الماء ثم يغطى بطربوش العازب، أو منديل، ويوضع جانبا حتى يحين وقت اللعبة، تنزع النسوة خواتمهن ويضعنها داخل الإناء ويغطى مجددا، ثم تقوم حكيمة الجلسة بإلقاء البوقالات وذلك بعد أن تفتتح كلامها ب " بسم الله بديت وعلى النبي صليت وعلى الصحابة رضيت وعيطت يا خالقي يا مغيث يا ربي اعطينا الفال ولاقينا بأولاد الحلال"، ثم بعد الاستماع للفال تدخل احدى النساء أو الحكيمة ذاتها يدها إلى داخل البوقال وتسحب خاتما، وصاحبة هذا الأخير هي صاحبة الفال، ثم تقوم بفتح العقدة التي عقدتها في أول الجلسة.

كان كل شيء جاهزا تقريبا، تم توزيع بطاقات الدعوة، تثبيت الموعد مع المصورة، خبيرة التجميل، فرقة الدف، الحلويات جاهزة، تفقد صالة العرس وأخذ قائمة المشتريات لأجل غداء يوم الحنة، لم يبق سوى أن تمضي الأيام ويصل العرس بخير وسلامة.

في آخر اليوم استأذنت عليا من آية الذهاب وكان كل تفكيرها فيما ستقوله لعلي، ترتب الكلمات وتزوق المصطلحات والأمثلة، تريده أن يوافقها على ما عزمت عليه دون نقاش، ورغم معرفتها أن ما تريده ضرب من الجنون إلا أن كل ما حدث معها لم يكن علاقة بالعقل من الأساس.

وصلت الشاطئ حيث كان يجلس هو متأملا البحر غير عالم بما ينتظره، اقتربت منه ببطء وكأنها تخاف أن تقترب أكثر، أو بالأحرى تخاف أن تواجهه بما يجول بخاطرها، وصلت أخيرا ثم جلست بهدوء بعد أن ألقت السلام.

-هاه ماذا حدث؟ ما الموضوع العاجل الذي طلبتني لأجله على وجه السرعة؟

-اسبيريتو دائما ومن غيره.

-اسبيريتو؟ أ لم ننته من قصته وتبرأت روحه من تهمتها؟ قلت أنه بمجرد أن يحدث هذا سيختفي.

-هذا ما اعتقدته يا عليلو، لكنني أخطأت، البارحة حاولت مناداته كما تعودت فحضر، أي أنه لم يغب أبدا، والأمرّ من ذلك أنه أخبرني أنه هناك أمر آخر علي فعله ليختفي.

-ما هو هذا الأمر؟

-لا أعلم لقد اختفى كعادته.

-والعمل الآن؟

أخذت تفرك يديها وقد بدا التوتر عليها، كل ما جهزته في الطريق قد تبخر واختفى، وكل تلك الكلمات قد فرت هاربة منها، كانت نظراته إليها تزيد من تداخل أفكارها ولكنها وبعد فترة من الصمت قررت أن تتشجع وتقول ما خططت له.

-وأنا صغيرة كنت أحب قصص الأطفال كثيرا ولكنني لم أفكر يوما أني سأعيش واحدة منها،

والتفتت إليه ثم أكملت

-ألم تشعر بالتشابه بين قصتي معك وبين قصة الجميلة والوحش؟

قرن حاجبيه مستغربا مما تقوله ثم رد رافضا له.

-لا أنكر أنك جميلة، ولكنني لست بشعا لدرجة أن أكون الوحش، اعترض آنسة علوش على قرارك هذا.

-بالعكس تماما، أنت كنت الجميل في القصة، تأتيني كل يوم لتلهيني عن جانبي الموحش، كنت أنا ذلك الوحش الذي يرى أشباحا ويكلمهم، ولذلك قررت أن أختم قصتي مثلهم، أتتزوجني؟

كانت آخر كلمة أبعد ما يمكن أن يخطر على باله، فتاة تعرض عليه الزواج؟ ابتعد بناظريه عن عليا وغاص قليلا بها في هذا الأزرق الكبير، يسأله عما يمكن أن يجيبها، كان له قلب رقيق يقول له أن يوافق ولكن... ولكن عقله كان له رأي آخر، وربما لأنه شخص يؤمن أن العقل يدرك الطريق الصحيح أفضل من القلب قال لها.

-ربما ستغضبين، ولكن لا أريد أن أكون مكان أخيك الذي التصقت به حتى اختفى شبح جدتك وابتعدت عنه، أنا كصديق لك يمكن أن آت معك وقت تشائين إلى الشاطئ، أستطيع أن أكلمك الليل بطوله حتى أؤنس وحشتك واذهب خوفك، يمكنني أن أبحث معك في كل مكان عن حل لما

أنت فيه، لكنني لا أستطيع أن اتزوجك فقط لأجل أن أكون ضرعا بيك وبينه، أ لم تفكري أنه ربما سيغضب أكثر فهو بالأساس يحبك؟ أعلم أنه يختفي بوجودي عن أفكارك وربما عن الوجود لأنني لا أصدق فعلا بوجوده، لكن موضوع الزواج هذا تضحية أكبر من أن يقدمها لك صديق.

شعرت بالخجل من طلبها ومن أفكارها، وكان كلامه صوابا، ولكنها في دوامة لم تجد لها مخرجا... وقتها قام علي من مكانه وكأنه لا يريد احراجها أكثر وقال.

-فلنذهب.

-يمكنك الذهاب، أريد البقاء وحدي.

-ولكنك لا تستطيعين الجلوس وحدك هنا في الشاطئ، ربما...

-اذهب، سأتعلم أن أتولى أمري بنفسي.

ما كان منه إلا احترام رغبتها وانسحب من المكان بهدوء ورغم أن عقله بقي لديها لكنه لم يكن يريد أن يزيد التشويش الذي بها...

مر الأسبوع ثقيلا على عليا وعلي سواء، ورغم انشغال كل منهما بزفاف صديقه إلا أن التفكير بالآخر لم يتوقف أبدا، أراد علي أن يتصل بها كثيرا لكنه شعر أنه من الأحسن أن تفكر لوحدها لتجد المخرج الأكثر عقلانية، وبالمقابل لم تتصل عليا به لأنها شعرت من كلامه الأخير كم أنه يتعب لتشعر هي بالأمان.

وعلى عجل جاء يوم العرس، دخلت آية وهي ترتدي الشدة، تتبعها الأهازيج والزغاريد، جلست في مركز القاعة، وضعت أم أمين أمامها طبق الحنة، فتحته لتخرج الشمعتين تحملهما كالعادة فتاتين واحدة من طرف العروس والأخرى من طرف العريس، أخرجت منه أيضا طبقا صغيرا نحاسيا لخلط الحنة بماء الزهر، كل هذا وقد اجتمعت كبار السن حولها التقدام...

بسم الله بسم الله او بيك يبدا البادي او بيك يبدا البادي واللي ما صلى على النبي يسمى الشاقي
تربح تربح يا الرابح والفال قال ان شاء الله
محمد محمد صلو يالاما (الأمة) عليه، سيدنا وحبيبنا ويربح من صلى عليه
جينا من طريق بعيدة و كرارسنا يرعدو، هذي مرتك يا وليدي وعشرة في عينين العدو
جزنا على هديك المريجة وعجبنا نوارها، هادي مرتك يا وليدي وبين لبنات تختارها
حنينة يا حنينة في صحن البلار، تربطها لالة لعروسة والصلاة على النبي المختار.
محمد محمد ولدي يا وليدي يا نوار الياسمين جينا ندو لالا البنية ونخلوهم في السحين
محمد محمد بنتي يا لالا يا رجلين الحمامة خرجي البنات عمك بقيهم بالسلامة

يا سيدي وليدي خسر مالك لا تخاف، جبنالك طفلة صغيرة وحمامة من راس الكاف
الزينة يا لالا يا عينين الساف، خطب فيك مية واحد ، والقليل يخاف
الله الله يا الميمة خرجي لبنتك وصيها تتهلا في العجوز والشيخ ودعوة الخير تديها
زينة يا لالا ما تبكيش تشياني، راكي رايحا لوليد الفاميليا ماشي للبراني
علاي علاي يا البنية كيما يعلو النجوم، دارك دارك يا البنية، دار الميمة ما دوم
انت يا لالا البنية يا غزالة بين زوج جبال، واحد باباها اللي رباها، و الثاني زوج حلال
الزينة يا لالا نوضي تلبسي، شيخك جاب الفاليزا، ولوسك جاب التاكسي...

يتخلل كل جملة وأخرى من هذا الموشح زغاريد النسوة، وعادة دموع هنا وهناك، فهي تذكر كل واحدة انها ستترك بيت والديها، دار الميمة ما دوم، تربط الحنة للعروس ثم تطفئ احدى النساء الشموع في كأس من الحليب وتدور به على العازبات الحاضرات على نية أن يتزوجن بعدها، في كل مكان من الجزائر هناك عادات أخرى تتبع هذا، مثلا ترمى بعض المعالق على الأرض لتجمعهم العروس، في منطقة أخرى تقوم أم العريس بتجليس العروس وايقافها سبع مرات، وآخرون يربطون مع الحنة قطعة نقدية ذهبية، وهذا ما يمز هذا الوطن القارة.

لم يكن العرس مختلطا، لذلك لم تتمكن عليا من أن تلمح علي، صوت يتكلم داخلها ويقول "المهم أن أراه بخير" وصوت آخر يقول "عليك التعود من عدم وجوده" وصوت ثالث يصرخ "اشتقت إليه..." كان هذا الصوت الأخير قويا عاصفا، يخبرها أشياء كثيرة أخرى، أشياء كانت تعلمها ولكنها لم تعترف بها حتى لنفسها، هذا العلي الذي رمتها الحاجة إليه أصبحت رؤيته الآن هي أهم حاجة لها، المواقف، الأحاديث، الشجارات، المناقشات كلها مع الوقت تتراكم ترفع مكانة الشخص أو تلقيه خارج مجال الاهتمام،

جلست في مكان منعزل قليلا وسط ضجيج العرس، وأخذت تتذكر كيف مرت هذه الشهور رفقة هذا الشاب الغريب، مرت قصصهم الليلية عليها سريعا، سفرتهما معا، تعبهما لحل القضية، وقوفه جانبها رغم كل شيء، ارتسمت على وجهها ابتسامة حولتها إلى بلهاء حرفيا. وكأن المشاعر قد تمكنت منها في لحظة غادرة، ولم تتمكن من أن تخرج من تأثيرها، حملت هاتفها وأرسلت له رسالة تخبره فيها أنها تريد مقابلته في مكان ما من قاعة العرس أو خارجها.

كان للقاعة حديقة خلفية صغيرة، وقف علي هناك بطقمه الكلاسيكي الذي لاق به جدا ينتظرها، كانت العجلة واضحة من وجهها غير أن الكعب العالي منعها من الركض إليه، كان النظر إليها مبهجا بالنسبة له، رائعة هي الأخرى في قفطانها الأسود، زادها خمارها جمالا من نوع آخر، ورغم أن الشوق والإعجاب قد عقد لسانه لبعض الوقت لكنه تمكن من أن يتكلم أخيرا.

-ما الأمر المهم لهذه الدرجة حتى لا ينتظر نهاية العرس؟ هل حدث شيء؟

-هل تعلم أنه يوم تركتني على الشاطئ بقيت هناك ساعة بعدك؟ كنت أنام جيدا بدون أن أجد ما يلهيني كما كان يحدث عندما كنت مجبرا على السهر معي؟ أشعر أيضا أنني أملك الجرأة أن أنادي اسبيريتو باسمه وأصرخ محمد دون أن أخاف أن يظهر لي في مكان ما...

اختلطت مشاعر علي داخله، هل هو سعيد لشفائها أم تعيس لأنه شعر أنها تمهد للتخلص منه بعد أن تخلصت من خوفها من محمد، لم يقل شيئا بقي ينتظر أن تكمل كلامها ويحضر بعض كلمات الوداع الخفيفة دون أن يبدو منهارا أمامها.

-ما فهمته في هذه الفترة، أنني فعلا بادئ الأمر كنت أخاف من محمد، لكنني مع الوقت اقتنعت أنه حتى وإن كان في كل مكان معي، هو لم يسبب لي الضرر يوما، هو ككل الأشياء التي ترانا ولا نراها، إن لم نفكر فيها كثيرا لن يكون لها وجود في أيامنا.

-جميل ما وصلت إليه، أخبرتك سابقا أن هذا الخوف نحن من نركزه أو نلغيه داخلنا.

-نعم، مع أنني فهمت ذلك متأخرة لكنني سعيدة بالنتيجة، كما أنني حين فكرت في الأمر مليا وجدت هذه القصة كان لابد أن أعيشها حتى أتمكن من فهم أهمية محام يسعى وراء الحق، وقيمة ذلك للمظلوم.

لم يستطع الجزء السعيد أن يتغلب، غمره حزن خفي وهو يشعر أنها تودعه بلباقة وتضع النقاط على الحروف في قصتهما، أراد أن يختم الموضوع بطريقته، فضحك بسخرية وهو يقول.

-مبارك لك تخلصك من مخاوفك وتحديد طريقك، وتخلصك مني، لم يستغرق الوقت ثلاث سنوات كما حدث مع أخيك.

-لقد فهمت شيئا آخر أيضا، أنني قد تغلبت على خوفي من زمن بعيد لكنني كنت أتخذها دريعة لأكون بجانبك، لأتحدث معك، لأشاركك لحظات ضعفي وقوتي، لحظات شتاتي لأنك كنت تستطيع جمعي بنظراتك، عندما أتذكر كل ما مر بنا منذ تعرفت عليك إلى اليوم، أدرك كيف أنقضتني من السقوط في هاوية لا نهاية لها، أنا الآن هنا لأشكرك لأنك في حياتي وأطلب منك أن تبقى فيها.

رغم أنها كانت تغرق في الخجل إلا أن خوفها من خسارته جعلها تقول كل شيء دفعة واحدة، أمسكت قفطانها تحمله عن الأرض حتى تتمكن من

المشي سريعا مبتعدة عن المكان، لم تنتظر أن يقول شيئا، خافت أن تكون وحدها من تشعر بذلك، لكنه أوقفها إذ ناداها.

-علوش، ما قلته جميل جدا تنقصه كلمة واحدة...أحبك يا علوش.

رفرف قلب كليهما في تلك اللحظة، ورفرف معهما محمد الذي كان حاضرا شاهدا على كل ما حدث، تبخرت روحه وهي مبتسمة سعيدة برؤية حبيبته سعيدة قد تخطت صدمة وجوده في حياتها لشهور.

في سبتمبر عادة ما تنتشر أغاني الشاب حسني في كل أرجاء وهران، فذكرى وفاة أسطورة غناء الراي الرومانسي تكون فيه، ولكن وبطريقة غريبة كان علي يصادف إحدى أغنياته في كل مكان، في المقهى، فيديوهات الفايسبوك، حتى اذا اشتغل راديو السيارة، كأنها رسالة له خصيصا...

أني خليتهالك أمانة

تهلا فيها ماتغبنهاش

هاذيك حبيبتي أنا

ربي ليا ماكتبهاش

النهاية.

ياسمينة خليل: كاتبة جزائرية. حائزة على شهادة الدكتوراه في الصيدلة. صدر لها:
-كبرياء أنثى (رواية).
-كأس الموت (رواية)

ماذا لو أن الأحبة هناك في القبور يأتون ويجلسون بالقرب ممن يحبونهم، يقبلون الجبين، يمسحون الدمعة، يضمون الروح التي أنهكها التعب، هل سيخاف؟ من سينسى أنها مجرد روح ويذوب فيها؟ هذا ما كانت تفكر به عليا، فمثلا بدلا عن اسبيريتو كانت جدتها هي الزائرة، كيف كانت ستتعامل مع الموقف، لكنها خلصت أن الموضوع ليس له علاقة بماهية الشخص وإنما هي هيبة الموت، برودة الروح ووحشة القبور التي يفر منها الجميع.

خيال
khayaleditions@gmail.com
9 789931 060871